هذا العـــدد

كان مقدّرا لهذا العدد من « الآداب » ان يصدر في الشهر الماضي وأن يكون في حجمه ضعف ما هــو عليه الآن .

ولكن تأخر بعض الكتّاب عن ارسال مقالاتهم في الموعد المحدّد لها ، وتخلّف البعض الآخر في آخر لحظة هما السبب في تأخر صدور العدد وفي صدوره بهذا الحجم الذي قد لا يتناسب مع أهمية موضوعه .

والواقع اننا كنا قد خططنا لهــذا العــدد بحيث يغطي جميع القضايا التي ترتبط بالناصريــة وبالزعيم الراحل جمال عبدالناصر ، وكان هــذا في اعتقادنا أقل ما تستحقه ذكرى القائد البطل الذي فقدنــاه ، احياء لفكــره وجلاء لرؤيتــه .

ولقد كان التخطيط يشمل دراسات كاملـة عن الناصرية وموقفها من : الاشتراكية ، التنمية الاقتصادية ، الوحدة العربيــة ، القومية العربيــة ، الديموقراطية ، التجربة التنظيمية السياسية ، المرأة ، الثقافة والعلم ، الارض والفلاح ، العمال ، التعليــم ، القيم الروحية ، عدم الانحياز ، التضامن الدولي ، الجماهير (الزعامة) ، الاستعمار ، الثورة الافريقية ، الصهيونية ، التاريخ ، الدولة العصرية ، النظرية الثورية ، قضية فلسطين ، الماركسية ، الثورة الادبية ، الكفاح المسلح ، مستقبل الناصريــة . .

وقــد كتبنا او اتصلنا ، شخصيا او بواسطــة مراسلينا ، بعدد كبير من مفكري العربيـــة ، فوعد معظمهم بالكتابة ، بل وعــدّل بعضهم فــي الموضوعات المقترحة عليهم ، ولكن القلة هي التي وفت بوعدهــا ، وظلّ الآخرون يسوّفون ويطلبــون المهــل الاضافية ثم يعتذرون في اللحظــة الاخيرة .

والحــق ان هناك معاذير ومبرّرات لبعض مــن تخلّفوا ، ولكن هذا مرتبط بوضع المفكر العربي اجمالا ، وهو موضوع يستحق البحث والمعالجة في غير هــذا المجـــال .

لقد قررنا ان نصدر العدد بالمادة التي توفرت لنا ، وعزاؤنا ان موضوع الناصرية موضوع لا يستنفد فــي شهرين او ثلاثة ، بل يمتد ويمتد مــا دام مشعًا علــى الامة العربية وقائدا لخطاهــا .

وقد كان بامكاننا ان نضاعف صفحات هذا العدد باضافة القصائد والقصص والابواب حتى المتعلقة منها بالناصرية ، ولكننا آثرنا ان نضفي على العدد طابع العمق الدراسي لنميّزه عن اعداد المجلة السابقة ونميزه عن كل ما صدر من اعداد خاصة بهذا الموضوع في المجلات العربيــة الاخــرى .

وبالرغم من اننا لم نستكمل الموضوعات المصمّمة كما اشرنا ، فان المادة التي يضمها هذا العــدد وافرة زاخرة جديرة بأن تثير الفكر وتلقي أضواء كثيرة علــى فكر الفقيد الراحل الذي نبعث الى روحـــه الطاهرة بتحيــة امة تستعدّ ، بوحــي من روحـــه النضالية العظيمة ، لخوض معركة الشرف والحرية .

سهيل ادريس

عبد الناصر والوحدة العربية

بقلم الدكتور حسن صعب

تكونت الاتحادات المعاصرة في ظل نظريتين سياسيتين رئيسيتين : النظرية الليبرالية التي استوحتها الاتحادات الغربية والنظرية الماركسية التي استوحتها الاتحادات الشرقية . (١) واذا عدنا بالنظريتين الى اصولهما التاريخية والثقافية لوجدناهما وجهين لفلسفة الحكم الغربية كما تطورت من ارسطو الى جوهن لوك ومن هيرقليطس الى هيجل ، ولتجربة الحكم الغربية كما تطورت من المدينة ــ اليونانية فالى الامبراطورية الرومانية فالى الامبراطورية المقدسة الوسطوية فالى الدولة القومية في العصر الحديث ، فالى الاتحاد الفدرالي ، بحيث جاء الاتحاد الفدرالي مركبا تنظيميا جديدا من الحكم الامبراطوري وحكم الدولة ــ المدينة . وبلغت الحضارة الغربية في هذا العصر مستوى من الارتفاع والانتشار اعطى للنظريات الغربية والايديولوجية الغربية والتنظيمات الغربية مقامها النموذجي للانسانية كلها ، وجعل الحضارة نفسها «الحضارة الانسانية الحديثة» ، والايديولوجية الغربية «الايديولوجية الانسانية » ، والفعالية الغربية المثل الاعلى للفعالية الانسانية ، والابداعية الغربية الضالة المنشودة للابداعية الانسانية .

واذا كانت الشعوب المتخلفة ترى صورة غدها في الشعوب المتقدمة عليها ، فقد اصبحت الشعوب الاقل تقدما في اميركا الشمالية ففي اوروبا الشرقية وفي اميركا اللاتينية وفي آسيا وافريقيا ترى تقدمها في الاقتداء بالشعوب الاعلى منها تقدما سواء اكان ذلك على صعيد التنظيم السياسي او على صعيد سائر صور التكامل المجتمعي . فاخذت هذه الشعوب في قارة بعد الاخرى واقليم بعد الاخر « تتحدث » او « تتعضر » باقتباس النماذج التنظيمية « التحديثية » او « العصرية » التي سبقها اليها رواد التحضر الحديث . وكان هذا هو شأن العرب في اقتباسهم لليبرالية والماركسية وفي اقبالهم على القومية والعلمانية ، وفي احتذائهم الديموقراطية والدستورية وفي تطلعهم للكونفدرالية والفدرالية .

ولكن تأثير رواد الحضارة الحديثة لم يقتصر على التعميم الانساني لنماذجهم التنظيمية الخاصة ، ولكنه تعدى ذلك الى ايقاظ وعي الشعوب والامم غير الغربية بتراثها الذاتي وما تجلى فيه من قيم انسانية وما سبق اليه من تجارب تنظيمية نموذجية . فجاء هذا الوعي الذي اشتد باشتداد التحدي الغربي ، بعدا نفسيا وثقافيا من ابعاد يقظة فثورة الشعوب المتحداة في الان ذاته باستعمارية المتقدمين وحضارتهم ..وكانت النهضة فاليقظة فالثورة العربية احدى استجابات ان لم نقل اولى استجابات الشعوب غير الغربية للتحدي الغربي .

فواجهت الثورة العربية كما واجهت الثورة اليابانية والثورة الهندية والثورة الصينية والثورة الافريقية « مفارقة » التحرر من استعمارية الغرب بتقدمية الغرب. انها مفارقة التلازم بين الحرية والتقدم . وهي مفارقة عرفها الرومان من قبل مع اليونان ، والعرب مع البيزنطيين والفرس ، والاتراك مع العرب والفرس ، والاميركيين مع البريطانيين ، والاوروبيين الشرقيين مع الاوروبيين الغربيين . وهي الان المفارقة التي يعانيها الجنوبيون مع الشماليين ، او المتخلفون اللاتينيون والاسيويون والافريقيون مع المتقدمين الاوروبيين والافريقيين وتستحيل المفارقة تحررا شاملا بقدر ما تصبح عملية تحويل للحرية السياسية المسترجعة من حالة سكونية تستفحل فيها الهوة الانمائية او الحضارية الى حالة حركية يتكافأ فيها الجميع في مستوى الابداع الحضاري . انها التحول من الحرية ككينونة استقلالية شكلية الى الحرية ككينونة استقلالية فعلية اي كصيرورة خلاقة .

ان هذا هـو السياق الحضاري والتاريخي الحقيقي الذي يتحرك فيه المشروع الوحدوي العربي واي مشروع سياسي او تنظيمي اخر في الوطن العربي او في العالـم الثالث . ان حركتنا التاريخية الحقيقية ، وحركتنا القومية الحقيقية ، وحركتنا السياسية الحقيقيـة ، وحركتنا التنظيمية في ايـة صورة من صورها ، ان هي الا حركـة تحررنا من التخلف ، اي حركة لحاقنا بالمتقدمين وتجاوزنا لهم على هدى التجربة التاريخية المعاصرة والاختبـارات الانمائيـة الحديثة التي دلت في أميركا الشمالية واوروبا الشرقية واليابان والصين على ان اللحاق بالمتقدمين لايكون الا يتجاوزهم . ولا ينقصنا شيء لتحقيق ما حققه جميع هؤلاء وتحقيق ما هو احسن منـه ألا استعادتنا لثقتنا بانفسنـا .

ولذلك كان المشروع الوحدوي العربي كمـا تصوره وطبقه عبد الناصر قبل كـل شيء مشروعا نفسيـا اي مشروع استعادة الامة العربيـة واستعادة الشعب العربـي ، واستعادة الانسان العربي لثقته بنفسـه وبطاقته الخلاقـة وبقدرته على تحقيق التقدم . واستعادة الثقة منفتح التحرر ومنطلق التقدم لان الاستعمار هو قبل كل شيء قتل لهذه الثقة وايهام بـان التخلف هو الحالـة الطبيعية للمتخلفين وبان التقدم هو الحالـة الطبيعية للمتقدمين، وان الهوة بينهما قدر محتوم لا مجال لتحديه.

ومشروع عبدالناصر الوحدوي هو مشروع تحـدي هذا القدر المزعوم لا المحتوم . تحداه اولا بتحدي التجزئة الاقليمية وتصويره « تاريخ الوحدة في عمز امتنا » بانـه « نفس عمر تاريخ امتنا » . وبتأكيده بان « محاولات الوحدة في المنطقـة لم تتوقف منذ اربعة الاف سنة » وان كـان اسلوب « السعي الى الوحدة يتشكل بالعصر الذي تعيش فيه كل محاولة لتحقيقها . « فتحقيق الوحدة هو تحقيق غايـة تاريخنا ، اي غايـة وجودنا ، لان الوحدة كانت عبر هـذا التاريخ العريق » .. هي الحقيقة ، وكان كل مـا عـدا الوحدة اصطناعا » (٢) .

ولكن غاية هذا التاريخ وغاية هذا الوجود هي الحرية والتقدم ، ولذلك فان غاية الوحدة هي الحرية والتقـدم ايضا . ان صناعة الجمهورية العربية المتحدة هي صناعـة الحرية والتقدم ، انهمـا مسؤوليتها الكبرى . ولكن هذه المسؤولية » .. في صنع التقدم وفي دعمه وحمايته تمتد لتشمل الامة العربية كلها » . (٣) والثورة هي السبيـل لتحمل هذه المسؤولية التاريخية ، ولتحقيق الحريـة والتقدم لانها ... هي الوسيلـة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي ارغمت عليه الامة العربية كنتيجة طبيعية للقهـر والاستغلال ، فان وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على ان تنطوي مسافة التخلف الذي طال مداه بين الامـة العربية وبين غيرها من الامم السابقـة في التقدم ، ولا بد ــ والامر كذلك ــ من مواجهة جذرية للامور تكفل تعبئـة جميع الطاقات المعنويـة والمادية للامة لتحمل هـذه المسؤولية .(٤) ولكن الثورة لا تعني الدوامة العنفيـة او الانقلابية ، ولا الديكتاتورية العسكرية ، ان التقدم هـو غايـة الثورة » . وهي بطبيعتها « عمل شعبي وتقدمي ».

ولذلك لا يمكـن لها ان تكتفي بالتهديم ، فلا بد لها مـن تهديم التهديم او من التحرر من التهديمية . ولا بـد لها من ايجـاد وضع جديد . ولا يستقيم للثورة كل هـذا الا اذا كانت ثورة عربية . ولكن الثورة العربية مدعوة الـى الابداع لا الى التقليد . لانهـا « ... لا تستطيع ان تنقل ما توصل اليـه غيرها .. » (٥) ولكـن استبعاد النقل لا يعني استبعاد الاستهداء بالتجارب الثورة الانسانية ،ولكن هذه التجارب تجري في عالم متغير تغيرا سريعا . « فـان التغيرات العالميـة حملت تأثيرها الى وسائل العمل » من اجل اهداف النضال العربي .(٦) واذا كـان الواجب المحافظـة على الحرية والاشتراكية والوحدة اهدافـا لهذا النضال ، الا ان تغير الظروف يقضي برفض اتخاذ المصالحة مع الاستعمـار طريقـا للحرية ، كمـا نقضي بان لا يلتزم العمل الاشتراكي التزامـا حرفيا بقوانين جرت صياغتها في القرن التاسع عشر ، كمـا تقضي بتجاوز التجارب السابقة للوحدة في القرن التاسع عشر وابرزها التجربة الالمانيـة والايطاليـة ، لانهـا لم تعد تقبل التكرار في النصف الثاني من القرن العشرين . ان نموذج هاتين التجربتين هو نموذج التوحيد القسري . ولكن النموذج العربي المنشود هـو نموذج التوحيد الطوعي ، وذلك لان ... اشتراط الدعوة السلمية واشتراط الاجماع الشعبي ليس مجـرد تمسك باسلوب مثالي في العمل الوطني وانما هو فـوق ذلـك ، ومعه ، ضرورة للحفاظ على الوحدة الوطنيـة للشعـوب العربيـة في ظروف العمل من اجل الوحدة القومية للامة العربيـة كلها وضد اعدائها الذين ما زالت قواعدهم علـى الارض العربيـة ذاتها ، سواء اكانت هذه القواعد فـي قصور الرجعية المتعاونة مع الاستعمار لضمان مصالحها، ام كانت في مستعمرات الحركة العنصرية الصهيونية التـي يستخدمها الاستعمار مراكز للتهديد العسكري .»(٧)

ان الوحدة الوطنية داخل كل قطر عربي لا تقل اهمية عن الوحدة القومية الشاملة. ولذلك يفضل اسلوب الاقناع على اسلوب الاكراه صونـا للوحدتين معا . والمهم ان تكون هنالك لا وحدة في الصف بل وحدة في الهدف . ولا بد ان يكون الاتفاق على الهدف سابقا الاتفاق على الصيغـة الدستورية ، لان الوحدة العربية طريق طويل قد تتعـدد عليه الاشكال والمراحل وصولا الى الهدف الاخير . والسبيل التنظيمي المفضل لبلوغ الهدف هو تعاون الحركات الوطنية التقدمية ، لان « .. قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في العالم العربي امر سوف يفرض نفسه علـى المراحل القادمة في النضال . « وريثما تتحقق الوحـدة

المنشودة تظل الجامعة العربية الاداة العملية وان لم تكن الاداة المثالية لتعاون العرب وتضامنهم .(٨)

ان هذه الافكار تضع قواعد مبدئية للمشروع الوحدوي العربي كمشروع ثوري تجعل منه امتدادانضاليا حيا لتاريخ الامة العربية وتصل ما بينه وبين التجارب الثورية والوحدوية للامم المتقدمة بدون الالتزام باي نموذج ماضوى جامد من نماذجها لان الثورة العربية ... وهي تواجههذا العالم لا بد لها ان تواجهه بفكر جديد لا يحبس نفسه في نظريات مغلقة يقيد بها طاقته، وان كان في نفس الوقت لا ينعزل عن التجارب الغنية التي حصلتعليها الشعوب المناضلة بكفاحها .» (٩)

ان هذه القواعد هي الى حد بعيد ابنة التجربة الوحدوية المصرية السورية الفاشلة ، ولم يكن فشلها مانعا بل حافزا لاعادة النظر في التجربة الثورية كلها وللتفكير بتجربة وحدوية اقرب الى النجاح . وجاء هذا الموقف السليم صدمة للذين حسبوا ان انفراط الوحدة عام ١٩٦١ وظنوا ان وفاة عبدالناصر عام ١٩٧٠ يمكن ان يؤديا الى ارتداد مصر عن القومية العربية . ولكن عبدالناصر حمل الزعامات الانفصالية لا الشعب السوري تبعة الانفصال. ولذلك لم يأت الميثاق المنبثق من التجربة والخطأ ليؤكد التزام مصر العربي فحسب ، بل ليؤكد ايضا بان .. « التجربة الثورية الشاملة القيت مسؤوليتها الاولى على الشعب العربي في مصر .. » ولكن .. تجارب بقية شعوب الامة العربية مع التجربة كانت من الاسباب القوية التي مكنت الشعب المصري ان ينتصر . ولهذا فان .. « الشعب المصري مطالب اليوم بان يجعل انتصاره في خدمة قضية الثورة الشاملة في بقية شعوب امته العربية .» (١٠)

ان بوسعنا ان نكتب الكثير عن اسباب اخفاقالوحدة المصرية السورية ، وان نحاول استخراج العبر من هذه التجربة السابقة للافادة منها في التجارب القادمة . وتدل مراجعة جلسات النقد الذاتي في محاضر اعداد الاعلانالثلاثي بين مصروسوريا والعراق على انه كانهنالك طغيان مرعب للحساسيات والانانيات الفردية ، وكانهنالك نفث مسموم في العقد والعصبيات الاقليمية والطائفية، وكان هنالك نقص في التخطيط ، وكان هنالك فوضى في الادارة ، وكان هنالك فراغ في التنظيم الشعبي، وكان هنالك جنوح لاحلال التأله الشخصي محل التعامل المؤسسي ، وكانت هنالك هوة سحيقة بين الرئيس او القائد الاعلى وسائر القيادات السياسية والعسكرية والادارية والفنية جعلت وحدة ذاتية في شخص القائد الواحد او وحدة شخصية اكثر مما جعلتها وحدةموضوعية مؤسسية او وحدة قومية تكاملية لشعب واحد . ان كل هذه العوامل هي ظواهر للتخلف اكثر مما هي ظواهر للتجزيء . ولا بد ان تؤخذ بعين الاعتبار في اية محاولة وحدوية جديدة . ولكن ما يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار قبل كل شيء هو قانون من قوانين النمو الوحدوي يمكن استقراؤه من التجارب الوحدوية التاريخية السابقة ،ويدل على ان الوحدات الثنائية تظل في خطر ما دام التكافيء النسبي مفقودا بين طرفي التجربة ، وما دامت التجربة لم يتح لها الوقت الكافي للنمو النوعي والكمي . والتجربة المصرية ــ السورية لم يتح لها الوقت ولا الفرصة اللازمة للنمو . بل انصبت الجهود عليها من الخارج والداخل لحصرها في مهدهاوقتلها فيه . ويكفي تذكر الاحداثالتي حاقت بها في لبنان والعراق والاردن لتقدير الابعاد الضخمة التي اتخذتها عملية الحصر والخنق في المهد. ان فترة ثلاث سنوات من الحكم الوحدوي ليست فترة زمنية كافية للحكم على تجربة وحدوية عربية او غير عربية ، بل انها ليست فترة كافية للحكم على ايةتجربة لاي نوع من انواع الحكم .

وهذا ما ادركه ، ولو بعد حين ، الذين طالبوا بالانفصال فعادوا يطالبون بتجربة وحدوية جديدة .وادت هذه المطالبة الى الاعلان الثلاثي لعام ١٩٦٣ الذي جاء كمحاولة اولى لوضع قواعد « الميثاق » موضع التطبيق على الصعيد العربي. وهنا تظهر رؤيا القائد للنواة الثلاثية المصرية ــ السورية ــ العراقية كأنها الحلم وهو يقول : « الوحدة الثلاثية .. عمل اكبر بكثير من الوحدة ..بيننا وبين سوريا .. بانضمام العراق تبقى دولة الوحدة :

١ ــ من منابع البترول فخطوط امداد البترول

٢ ــ من خطوط الانابيب الى قناة السويس

٣ ــ ممتدة من آسيا الى افريقيا

٤ ــ بتجيب الجيش العراقي على حدود اسرائيل..

٥ ــ فيها امكانيات اكثر .. يمكن من فرنسا ...

٦ ــ فيها عدد سكان ٢٧ مليون و١٣ مليون ..يعني ٤٠ مليون » . (١١)

ولكن الرؤيا ظلت اعلانا بسبب المأزق القيادي ،اي بسبب انعدام الثقة بين القادة ، وتعذر التفاهم على التنظيم الوحدوي الشعبي ، وصعوبة الاتفاق على تنظيم المشاركة في القيادة او على ما يدعى « بالقيادة الجماعية» ولم يكن المأزق مأزق عبدالناصر والبعث ، ولكنه كان بالاضافة لذلك مأزق البعث مع نفسه ، ومأزق البعث مع القوى القيادية التقدمية الوطنية في سوريا والعراق ، بل كان ازمة جديدة من ازمات المأزق القيادي العربي .

ان اسطورة القيادةالجماعية تزين لنا انها حلللازمة ولكن الحقيقة هي ان القيادة الجماعية ، كما يراها بعض

ــ التتمة على الصفحة ــ ٦٨ ــ



في مقال بعنوان «نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو» ، ظهر في العدد السادس من مجلة «مواقف» ، حاولت تحديد ووجوب هذا الارتباط على ضوء بعض القوانين او الاتجاهات العامة التي تتكشف عنها التجارب الوحدوية والثورية في التاريخ . وكانت النتائج الاساسية التي توصلت اليها ما يلي :

١ ـ التجارب الوحدوية في التاريخ ، اي التجارب التي ينتقل فيها مجتمع او امة مجزأة مبعثرة الاجزاء ، الى دولة واحدة تحقق وحدتها ، تدل ان على الاجزاء اعتماد قاعدة تتركز عليها الجهود الوحدوية .

٢ ـ التجارب الوحدوية والثورية في التاريخ تدل بوضوح على ان الحركات الثورية لا تصح كحركات ثورية دون قاعدة شعبية عامة ، وان ثوريتها تلتصق التصاقا مباشرا بالاساس الشعبي الذي تستطيع اعتماده . فدون الجماهير وولاء الجماهير لا يمكن لحركة «ثورية» ان تكون ثورية .

٣ ـ التجارب الثورية تدل على انه بقدر ما تزداد ثورية الحركة الثورية تزداد حدة الشخصنة في القيادة .

٤ ـ عبد الناصر هو القائد العربي الوحيد الذي استطاع ، بصفاته ، ومنجزاته ، وقيادته ، ان يوفر الحركة العربية القومية الثورية الرمز او القيادة المشخصنة التي تحتاجها هذه الحركة في التعبير عن ذاتها وفي بلورة هذه الذات بلورة ثورية ووحدوية .

٥ ـ مصر ، بثورتها ـ ثورة ٢٣ يوليو ـ وبامكاناتها العديدة هي القاعدة الطبيعية للحركة العربية الثورية في سعيها وراء مقاصدها الثورية وفي طليعتها الدولة الواحدة التي تحقق وحدة العرب من الخليج الى المحيط .

في ضوء هذه النتائج دعوت الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ارتباطا استراتيجيا مرحليا ، اي ارتباطا لا يلزم صاحبه بقبول تام لمفاهيمها الثورية ، او بتجاهل ما قد تنطوي عليه من نقص وضعف ، ارتباطا يشجع على النقد والتصحيح ولكن في اطار الارتباط ، وليس في اطار الخصومة ، او اطار تجربة اخرى تقدم نفسها بديلا عنها . اما هذا الارتباط فيجد تبريره في كونه طريقنا الوحيد حاليا الى الوحدة العربية ، ولأن هذه الوحدة في دولة واحدة هي البعد الثوري الاساسي الذي لا يمكن لنا دونه تحقيق مقاصدنا الثورية الاخرى . فالدولة الواحدة ، وان كانت غير كافية في ذاتها ، فهي ضرورية ومن دونها تستحيل هذه المقاصد .

ونحن ان تركنا جانبا طابع «الحقد والضغينة» الذي ميز معظم الردود التي صدرت في العدد نفسه على ذلك المقال ، لا نستطيع ان نترك جانبا طابع التبشير والتجريد الذي كان اول ما يستلفت النظر في تلك الردود ، لان جميع ما ورد فيها تقريبا تجاهل تماما الواقع التاريخي الوحدوي والفوري الذي انطلقت منه ، كما تجاهل ايضا الى حد كبير تلك الاتجاهات والقوى التي رجعت اليها في الواقع العربي ، وعلى اساسها دعوته الى الارتباط . اذكر هذا للتأكيد وللتدليل مرة اخرى على ان الفكر العربي الثوري هو في معظمه فكر تبشيري تجريدي اخلاقي ، يمضغ كلمة «علمية» او «منهج علمي» دون القدرة على تمثلها بأي شكل صحيح (١) ، وأن ابشع اشكال هذا الفكر كانت حتى الان تلك التي جعلت همها الاول مخاصمة ثورة ٢٣ يوليو والناصرية باسم تجربة اخرى ، او دون تقديم اي بديل عنها. اذكر هذا في تقديم هذا المقال بغية تنبيه القارىء الى ان تحديد موقفنا من موضوع مصيري كموضوع الوحدة ، او موضوع الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، يجب ان يتم ليس في ضوء ميولنا ونوازعنا وآمالنا، او نزواتنا الشخصية ، بل في ضوء الواقع العربي الثوري ككل ، وفي ضوء تجارب التاريخ الثورية وما يمكن ان تتكشف عنه من اتجاهات وقوانين . فالثوري هو اولا من يعمل مع التاريخ وليس ضده .

المجتمع الجديد او مقاصدنا الثورية لا تتحقق لنا نتيجة تبشير او صورة مثالية نعمل بوحيها على الرغم من اهمية هذه الصورة من ناحية نفسية ، بل تتحقق نتيجة العمل بوحي المنطق العام الذي يسود الاوضاع الاجتماعية التاريخية الجديدة التي تتكشف عنها المرحلة الانتقالية التي نمر بها . لذلك كانت دراسة الاتجاهات العامة التي تسود التطور التاريخي الاجتماعي وخصوصا في مراحله الانتقالية المماثلة للمرحلة التي نعانيها ، تشكل نقطة الانطلاق للفكر الثوري العلمي الصحيح . فهذه الاتجاهات هي التي تحدد النظام المقبل ، المستقبل والمجتمع الجديد ، وهي التي تعين الطريق المؤدية الى ذلك. الفكر الثوري هو الفكر الذي يكشف عنها ، او الذي ينطلق من محاولة

---

١ ـ في رده المفحم على تلك الردود (مواقف ، عدد ٧) كتب الدكتور طارق اسماعيل «ان اراد احد برهانا اضافيا على الاتهام الذي يوجهه نديم البيطار منذ نشر كتابه الاول «الايديولوجيه الانقلابية» قبل حوالي ست سنوات حين وصف الفكر العربي الثوري بأنه اساسيا وفي معظمه فكر تبشيري ، فان معظم الردود على المقالة الآنفة الذكر ما هي الا توكيد على حقيقة نظرية البيطار» .

في الكشف عنها ، كما ان الموقف الأستراتيجي الثوري الصحيح هو الموقف الذي يستطيع ان يعتمد فكرا من هذا النوع .

المعرفة العلمية الصحيحة ليست معرفة عفوية للواقع ، ولا تشتق من تجربة جزئية له ، بل تعتمد منهج المقارنة comparatire method ولا تعطي قيمة للملاحظات والوقائع الفردية ان لم تكن جزءا من هذا المنهج .

الفكر الثوري لا يمكن له ان يقوم بدوره ان بقي على صعيد التبشير ، يدعو الى التمرد باسم عدالة ، او حرية خالدة ، او مفاهيم مجردة ضد مظالم مطلقة ، الخ .. فالشوق الى حياة جديدة ليس كافيا لاجراء التحويل الثوري الذي نريد ، ومشاعر القلب لا تقود الى تصحيح ما نشكو منه او نبغيه من مثل وقيم . فخارج ذلك الشوق وهذه المشاعر يجب ان نفتش في الواقع الموضوعي عن القوى والاتجاهات التي يمكن ، باعتمادها ، ان تتجه وجهة تلك المثل والمقاصد، او ان تقيم مجتمعا جديدا .

الحركة الثورية يجب ، اذن ، ان لا تبني مواقفها الاستراتيجية على التمرد الاخلاقي بل على دراسة علمية موضوعية للظواهر الاجتماعية التاريخية وعلى الاتجاهات التي تسودها . فهذه الظواهر تتميز بوجود موضوعي مستقل عن ارادة الافراد ، والفكر العلمي هو الذي يقيس صحة مبادئه ومواقفه بدرجة انطباقها عليها وعلى الديالكتيك الذي تتكشف عنه . فهو لا يخرج هذه المبادىء والمواقف من جعبة خياله ، بل من طبيعة التحول الاجتماعي التاريخي الذي يعانيه .

اننا لسنا مطالبين ، في هذه المرحلة ، بالعمل في ضوء مقاصد ثورية جديدة ، بل بأن نجد وسائل جديدة لتحقيق مقاصد معروفة . لا يكفي ان يعلن العربي الثوري انه يريد الدولة الواحدة كي يصبح وحدويا ، لا يكفي ان يبين خطر الامبريالية او ان يشتمها كي يصبح فعلا ضد الامبريالية ، بل يجب ان يدرك طريقه الى الدولة الواحدة، والى كيفية التحرر من الامبريالية . لا يكفي ان يعلن تمرده على النظام الاجتماعي السياسي التقليدي او القائم كي يصبح ثوريا ، بل يجب ان يدرك موقعه في الواقع الموضوعي الثوري المتحرك ، طبيعة هذا الواقع ، القوى الفاعلة فيه ، والاتجاهات الدافعة له . كل ذلك يفرض معرفة نظرية ليس فقط لهذا الواقع بل لتجارب التاريخ الثورية .

في ضوء هذا المفهوم يمكن القول ان اليسار الفكري العربي هو اساسيا يسار فاشل . المشكلة الان ليست فقط تعيين واقع هذا العجز بل تجاوزه بفكر ثوري جديد ينبني ليس على النوايا والمقاصد، على العموميات والتبشير ، على التخريجات اللفظية والشعارات الجذابة والمزايدات الطفولية ، بل على التطور التاريخي والتحول الاجتماعي ، وما ينكشفان عنه من اتجاهات عامة ، على التجارب الوحدوية والثورية التاريخية وما تنطوي عليه من قوانين ، على الواقع العربي الانتقالي وما يفصح عنه من قوى مستقلة . الفكر العربي الثوري الجديد الذي نحتاج اليه هو الفكر الذي يستطيع احلال الوعي التاريخي الثوري محل الانفعالات وردود الفعل الانفعالية التي تسود حاليا اليسار الفكري .

هذا اليسار في معظمه يرقص على انغام ثورية يسمع صداها من الخارج ولكن دون ان يتعلم ابدا تلك الانغام . انه يصفق ويهلل لتجارب ومبادىء ثورية تلقف اخبارها من الغير فاخذ يجترها دون ان يحللها ويكشف حقيقة الاوضاع التي ظهرت فيها ، وحقيقة القوى التاريخية التي عبرت عنها ، حقيقة الواقع الذي يريد ان يمارسها فيه وحقيقة القوى والاتجاهات التي تسود هذا الواقع . انه يلوك بشكل مستمر ، بكل مناسبة ، وفي كل شيء ، كلمة منهج علمي او علمية ، ولكن دون قدرة على تمثلها . ليس هناك من كلمة ابتذلت في يد هذا اليسار اكثر من هذه الكلمة ، كما انه ليس من موقف فضح هذا «الابتذال» اكثر من موقف بعض فصائل هذا اليسار من الناصرية.

* * *

لا شك ان التجربة الناصرية الرائدة تنطوي على الكثير من النقص والخطأ ، ولكن ما يجب ان نطرحه هنا ليس وجود النقص ، بل اولا ان كانت التجربة دلت على قابلية في تجاوز ذاتها وتصحيح النقص ، وثانيا ، ان كان يمكن لأي تصحيح ضروري نفكر به ان يكون امتدادا او تطويرا لقوى وخصائص موجودة في الناصرية ، اي ان كانت الناصرية «مقفلة» او «مغلقة» تمهد في اوضاعها ذاتها للتصحيح والتطوير ام لا ! لا شك ان اية نظرة موضوعية حول الموضوع تعطي جوابا ايجابيا على هذه الاسئلة المطروحة . فالناصرية دلت على قدرة بينةفي تجاوز ذاتها منذ ظهورها حتىوفاة مؤسسها الكبير. فممارستها لذاتها كانت تدل باستمرار على هذه القابلية ، ثم ان التحولات التي اجرتها في مجتمعها تحمل بذور وقوى هذا الاستمرار في تجاوزها الذاتي . اما من ناحية اخرى ، فيجب امام النقص او الخطأ ، ان نطرح سؤالا ثالثا ، ليس حول النقص والخطأ بشكل مجرد ، بل بشكل نسبي ، فنتساءل ان كان هناك من ثورة عربية اخرى استطاعت ان تتجاوز ما يمكن ان نعين فيها من نقص او خطأ ، او ان تنطوي على امكانات توفر لها قوة دفع اكبر في تجاوز النقص والخطأ !. وبما ان الدولة العربية الواحدة هي الشرط الاساسي الذي لا يمكن لمقاصدنا الثورية ان تتحقق دونه ، فيجب ان نتساءل ، رابعا ، ان كان هناك من ثورة اخرى تستطيع ان تحل محلها فيقيادتنا الى هذه الدولة ؟.. لا شك ان الجواب هو النفي ايضا ثالثا ورابعا .

نقض الارتباط بثورة ٢٣ يوليو لا يصح ان يبرر ذاته على اساس ما لم تحققه . بل ، اولا ، على اساس ما حققته في ضوء ما يمكن ان تحققه . وثانيا ، في ضوء قدرة حركات اخرى موجودة يمكنها ان تحقق ما حققته بشكل احسن ، او ان تحقق ما لم تحققه . وثالثا، على اساس صلة ما حققته بما لم تحققه ، وان كان ما حققته يقود الى ويحمل بذور ما لم تحققه .

الجواب الموضوعي على هذه القضايا المختلفة ، الجواب الذي يستطيع ان يعمل خارج السمة الاولى التي تميز الفكر العربي الثوري، اي سمة التبشير والعموميات والمزايدة ، وهو جواب يدعم الارتباط، لا ينفيه او يضعفه :

١ - الحكم عليها باسم ما لم تحققه وقدرتها على تحقيقه ، حكم مجرد لا قيمة موضوعية له . فهو من النوع الذي يمكن اعتماده في دفع الثورة ، اي ثورة ، ولكن لا يصح كحكم في نقض الثورة او في تبرير الحياد نحوها او اللامبالاة بها .

٢ - الحكم عليها سلبا لان حركة اخرى كان يمكن ان تحقق اكثر مما حققته او ان تحقق ما حققته احسن مما حققته ، هو الاخر حكم مجرد غير موضوعي لان تلك الحركة لم تؤكد ذاتها ، وهي غير موجودة، ولأن الوطن العربي كله كان ولا يزال مفتوحا مجالا واسعا أمامها ، ولكن دون ان نرى اثرها في اي مكان .

٣ - الحكم عليها باسم ما حققته ، وصلة ذلك بما لم تحققه ، هو في الواقع الصعيد الوحيد الذي يصح نقدها فيه . هنا يجب ان نعلم ان كان ما حققته يمهد الطريق لما لم تحققه ، وان كان ضروريا تحقيقه اولا كي يمكن تحقيق ما لم تحققه . هنا نجد ايضا ان الجواب الموضوعي يبرر الارتباط على الاقل حاليا وفي المرحلة الانتقالية التي نعانيها نحو الدولة العربية الواحدة . فالناصرية هزت المجتمعالعربي التقليدي اكثر من اية ثورة اخرى ، او بالاحرى كانت الثورة الوحيدة التي استطاعت ان تهز هذا المجتمع ككل ، من المحيط الى الخليج ، كما ان هذه الهزة التي ادت الى تحريك الجماهير وولائها الفريد لقيادة عبد الناصر هي التي مهدت الطريق الى ولادة الثورات المحلية

الاخرى . فهي كانت الثورة الاولى والوحيدة ، حتى الان ، التي انهت بشكل نهائي التناقض الاساسي في المجتمع العربي بين الرأسمال والعمل ، بين الاقطاع والفلاحين ، لمصلحة الفلاحين والعمال . وهي التي ضربت نهائيا التركيب الاجتماعي السياسي التقليدي وحاولت جديا اقامة قواعد تركيب جديد ، يعتمد اساسيا مشاركة ملايين الفلاحين وملايين العمال . وهي الوحيدة التي نسجل ، رغم نفقات الحرب الباهظة ، اي تقدم محسوس باعتماد التكنولوجيا والعلم والصناعة ، والتي تخطط علميا وفي المدى البعيد في هذا الصدد ، اي بكلمة اخرى مختصرة ، انها خلقت ولا تزال تخلق اكثر من غيرها بكثير الاوضاع الموضوعية التي يمكن بها وعبرها الانتقال الى مرحلة اخرى .

هذا يفرض نتيجتين اساسيتين ، اولا ، ان الاوضاع الموضوعية تفرض الارتباط الاستراتيجي المرحلي بها . وثانيا ، ان اي نقد لها يجب ان يتم في اطار هذا الارتباط ، وأن اي تجاوز لها يجب ان يكون عبر هذا الارتباط ، لان الاوضاع الجديدة التي تخلقها مباشرة وتجد مباشرة هي وحدها التي تجعل من الممكن الانتقال الى مرحلة اخرى ، او شق الطريق نحو الدولة الواحدة ، الشرط الاساسي لتحقيق مقاصدنا الثورية الكبرى . وبما ان الشرط الاساسي الذي يشرط جميع مقاصدنا الثورية الاخرى هو الوحدة من الخليج الى المحيط في دولة واحدة ، وبما ان هذه الدولة تستحيل دون مصر، وبما ان الناصرية كانت ولا تزال قاعدة هذه الوحدة ، فان الاستنتاج الثوري الذي يفرض نفسه علينا هو انه يستحيل استراتيجيا تجاوز الناصرية في هذه المرحلة الانتقالية الى الوحدة .

كتب هيجل مرة بأن الاحداث التاريخية الكبيرة تحدث اولا كمأساة . في تعليق على هذه العبارة ، كتب ماركس بأن هيجل نسي ان يذكر بأن هذه الاحداث تتحول الى مهزلة عندما تعيد ذاتها ، وطبق ذلك على رجالات ثورة ١٨٤٨ في فرنسا ، في محاولة تقليدهم للثورة الفرنسية ، فكان تقليدهم اقرب الى مهزلة منه الى ثورة . وأوجست كونت كتب ، قبل ماركس ، الشيء نفسه ، فقال بأنه لا يمكن اعادة ثورة اصيلة كالثورة الفرنسية . «ففي السياسة لا تنفع شيئا مواقف التقليد مهما حسن توجيهها . انظروا مثلا الى المسرحية الاسبانية البائسة في تقليد الثورة الفرنسية» (١) .

سبب ذلك يعود ، كما يتراءى لي ، اولا ، الى كون الاوضاع المتعددة والروابط التي تربط بينها والقوى التي تتكشف عنها ، التي تفجر الثورة الكبيرة وتدفعها في وجهة معينة ، لا تعيد نفسها الا بشكل محدود جدا في التاريخ ، لذلك كانت الثورات الكبرى قليلة جدا . ثانيا ، ان التقليد في ذاته لا يستطيع ، مهما كان امينا للانموذج الذي يقلده ان يؤدي الى اعادة الانموذج ، لان ديالكتيك التقليد النفسي والفكري ذاته لا ينطوي على الامكانات والطاقات التي تميز ديالكتيك الخلق والابداع .

الناصرية فجرت لاول مرة اوضاعا تاريخية كانت مختمرة للتفجير الثوري في الوطن العربي ، وكانت وجهة التفجير التي فرضتها هذه الاوضاع هي تحقيق ثورة اجتماعية في اطار عربي قومي وحدوي ثوري. وهذا يعني ان الناصرية التي عبرت عن هذا التفجير وفي قطر عربي يتميز بامكانات مادية وبشرية واجتماعية واستراتيجية تؤهله اكثر من اي قطر اخر في التعبير عن هذا التفجير وقيادته ، ستبقى الثورة الرائدة والقاعدة الى ان تستنزف نفسها في انجازاتها ، اي الانجازات التي تحقق المقاصد التي فجرتها : الثورة الاجتماعية في اطار الدولة الواحدة التي تجمع العرب من الخليج الى المحيط . لهذا لا يمكن تجاوزها بأية ثورة اخرى قبل استنزافها لذاتها في هذه المقاصد ، او ان امكن تجاوزها ، فالتجاوز لا يمكن دون بتر هذه المقاصد ، وذلك للاسباب التالية :

١ ـ لان هذه المقاصد اقترنت في ذهن الجماهير العربية بالناصرية ، ودون ولاء الجماهير تستحيل هذه المقاصد .

٢ ـ لان تحقيق الاشتراكية بشكل فعال ، دخول القرن العشرين او بالاحرى الواحد والعشرين ، التغلب على التخلف بجميع وجوهه، تحقيق التنمية الاقتصادية والعلمية بشكل يستطيع ان يجاري العصر الحديث في ثوراته الذرية ، والالكترونية ، والالية ، والفضائية ، التغلب على الامبريالية ووسائلها الجديدة ، تجاوز الهوة التي تزداد اتساعا بين بلدان العالم الثالث والبلدان الصناعية المتقدمة ، تحرير فلسطين واسترجاعها ، الخ .. كل هذه المقاصد تحتاج الى حشد امكانات وطاقات الوطن العربي المادية والديمغرافية والسياسية .

٣ ـ ان مصر بامكاناتها المادية والاجتماعية والديمغرافية والثورية تشكل القاعدة الطبيعية في هذه المرحلة الانتقالية الى الوحدة العربية .

٤ ـ ان موقع مصر الاستراتيجي في قلب الوطن العربي يجعل الدولة الواحدة مستحيلة دون مصدر اي دونها يستحيل تحقيق الشرط الاول الاساسي الذي يشرط تحقيق مقاصدنا الثورية النهائية.

هذا يعني ان الناصرية بقاعدتيها ، الثورة الاجتماعية والدولة الواحدة ، وما دامت تنطلق من هاتين القاعدتين ، لن تفقد على الاقل ذلك الحد الادنى من الديناميكية الثورية التي تجعلها قاعدة للحركة العربية الثورية . من ناحية اخرى يمكن القول ان الاوضاع التي تحيط بها او تفاعلها مع هذه الاوضاع يفرض عليها فرضا الانطلاق الدائم من هاتين القاعدتين ، بل زيادة ولائها وارتباطها بهما . اهم هذه الاوضاع هي :

١ ـ معركة تحرير فلسطين التي لا يمكن للناصرية ان تتجنبها او ان تبترها او ان تجمدها ، وهي ان ارادت ذلك ، اي ان وصل الى قيادتها قادة قد تراودهم فكرة من هذا النوع ، فان الضغوط التي تفرضها هذه المعركة ، ووجود اسرائيل في ذاته ، سوف تدفعها الى المزيد من الارتباط بهاتين القاعدتين .

٢ ـ معركتنا مع الامبريالية . فهذه الاخيرة لن تتركها تهدأ او تستكين في اي شكل قطري ، لانها تنساق بطبيعتها وبحكم ديالكتيكها نحو اخضاعها او تخريبها . لذلك كان اي انكماش قطري يبتعد عن تلك المقاصد يعني ان الناصرية تنكر ذاتها ، وان افترضنا وصول قيادة تحاول ذلك ، فالارجح ان هذا يؤدي الى انقلاب عليها ـ اي القيادة ـ من الداخل يصحح سير الثورة .

٣ ـ متناقضات وضعف بناء اشتراكية عربية قطرية . اهمال الثورة الاجتماعية او التنكر لها في اطار وحدوي ، يعني ان الثورة تستطيع تحقيق مقاصد الثورة الاجتماعية كما حددنها في الفقرة الثانية في اطار القطرية ، وهذا امر يستحيل عليها ، على اية قطرية عربية، حتى وان كان ذلك القطر مصر بثورته الثابتة المستقرةوامكاناته الكبيرة . محاولة كهذه تكشف ، ان لم يكن نظريا ، فعن طريق الممارسة لغو قصد كهذا القصد ، وتندفع عبر الممارسة الى تجاوز قطريتها ، لان الممارسة ستكشف لها ان الوحدة العربية في دولة واحدة هي الاطار الطبيعي لتحقيق مقاصد الثورة الاجتماعية .

من هذا يتضح ان اية محاولة في تجاوزها في هذه المرحلة الانتقالية نحو الوحدة هي محاولة فاشلة ، وأنه عند حدوث اي تجاوز ـ ان افترضنا جدلا امكانه ـ فانه سيكون من النوع المبتور . ما اعنيه بذلك هو انه قد يمكن لثورة عربية قطرية ان تتجاوزها في صعيد معين او اكثر ، اي بتصحيح بعض وجوه النقص التي قد توجد فيها، ولكنها لا تستطيع ان تحل محلها في قيادتنا الى تحقيق المقصدين الاساسيين ، الثورة الاجتماعية في الدولة الواحدة . يمكن لثورة اخرى مثلا ان تتجاوزها على الصعيد الايديولوجي المحض باعتماد

١ ـ P. Arnaud . Politique d'Auguste Comte , 1965 ,P. 259

فلسفة حياة جديدة تنكر فيها فلسفة الوجود العربي التقليدي الغيبية ، تتخذها قاعدة للدولة والمجتمع ، وتعلمن الذات وجميع اصعدة الحياة بها . كما يمكن لها ان تعتمد حزبا ثوريا ، او بالاحرى يمكن لثورة عربية قطرية ان تأتي عن طريق قيادة حزب ثوري للثورة ، يكون فيما بعد اداة للسلطة وتثوير المجتمع ، كما يمكن لها ان تتخذ سياسة صراع طبقي حازمة ضد جميع الطبقات العربية التقليدية ، الخ .. ولكن هذه الثورة ، وان استطاعت ذلك ، فان منجزاتها تبقى مبتورة ، لانها لا تستطيع ان تحقق مقاصدنا الثورية الاساسية ، وهي كي تستطيع ذلك وجب عليها ان تقودنا الى الدولة الواحدة ، وهو مقصد لا تستطيعه للاسباب التي ذكرناها آنفا .

الارتباط بالناصرية ارتباطا مرحليا استراتيجيا يفرض نفسه ليس فقط لان منجزاتها تتقدم نسبيا على اية منجزات اخرى ، بل لانه ليس هناك من بديل لها تستطيع ان نصل عن طريقه الى الدولة الواحدة ، فدون هذا الارتباط تستمر الامة العربية مجزأة وتسود التجزئة ثورتها ، وتعجز الامة وثورتها عن تحقيق مقاصدنا الثورية .

نقطة الانطلاق في الموقف الوحدوي الثوري هي الامةالعربية ككل، في تحركها الثوري الاجتماعي . لذلك فان واجب هذا الموقف هو الدفاع عن مصلحة هذه الامة ككل ضد اية حركة او قطر ينحرف عنها. مقياس هذه المصلحة ، المقياس الذي يحددها هو وجهة الشعبالعربي ككل في تحركه الثوري . الناصرية استقطبت ولاء هذا التحرك الشعبي وكانت قاعدته . لذلك كان الارتباط بها ارتباطا بقضية الامة في تحركها الثوري ، ومقاومتها الانحراف عن هذا التحرك ، ومخاصمة للجماهير العربية ، مقاصدها ومصلحتها .

الحركات العربية الثورية في الاقطار العربية المختلفة لا تمثل مصلحة هذه الاقطار ، بل مصلحة الامة العربية في ممارستها الثورية لذاتها ، في ممارستها الثورية لواقعها وللتاريخ الحديث . وبما ان طريقنا الاستراتيجية الى مقاصد هذه الممارسة الثورية ترتبط ارتباطا وثيقا مباشرا بالجمهورية العربية المتحدة ، فيجب القول ان هذه الحركات تمثل مصلحة هذه الجمهورية في هذه الاقطار ، تنفذ ارادتها وليس ارادة نظم او مصالح قطرية . فهي لا تمثل ذاتها او هذه الاقطار ضد الجمهورية او بشكل مستقل عنها ، بل تمثل هذه الجمهورية ضد الاقطار وضد اية ذات مستقلة لها . ان مهمة هذه الحركات ليست مقاصد ثورية مجردة ، بل مقاصد ثورية في اطار دولة واحدة .

حرية اي قطر عربي لا يمكن لها ان تناقض نهائيا حرية الكل العربي ، بل هي تتحقق عبر هذا الكل وفي اطاره. وبما ان الجمهورية العربية المتحدة هي محور هذا الكل ، قاعدته والطريق اليه ، تصبح حرية كل قطر في الارتباط بهذا المحور ، وبالعمل فيه ومعه .

***

ان علاقة كل حركة سياسية مع التاريخ والقوى الفاعلة فيه تتخذ واحدا من اربعة اشكال :

فهي تستطيع ان تجاري تلك القوى وتسير معها ، وبذلك تساند الامكانات الثورية التي تنطوي عليها .

وهي تستطيع ان تعي هذه القوى وأن تتقدمها عن طريق هذا الوعي الثوري فتجعلها تتكشف بسرعة اكبر وتختصر الطريق أمامها .

وهي تستطيع ان تقاوم اتجاه التاريخ والقوى الفاعلة فيه مقاومة سلبية وبذلك تخسر كل فاعلية .

وهي اخيرا تستطيع ان تحول مؤقتا دون تطور التاريخ في بعض المناحي التي تفرضها القوى الفاعلة فيه وتفرض عليه بعض المناحي المفتعلة . كل حركة سياسية تتخذ الشكل الثالث او الرابع موقفا لها تستطيع ان تؤذي التاريخ او القضية الثورية التي ينكشف عنها في مرحلة معينة ، ولكنها تعجز في المدى البعيد عن الحيلولة دونه ودون المقاصد الجديدة التي تفرضها القوى التي تحركه .

الحركات التي حاربت الناصرية وقعت في هذين الانحرافين رغم ما قد تنطوي عليه من نوايا ومقاصد ، وذلك لانها لم تدرك القوى الاساسية الفاعلة في التاريخ الحالي الذي نعانيه .

فهي لم تدرك ان الفاعلية الثورية تستحيل على اية حركة لا تعتمد الجماهير وولاء الجماهير ، وأن الناصرية هي الثورة التي كسبت وحدها هذا الولاء عبر الوطن العربي ، فأدت مخاصمتها للناصرية الى تخريب سيرنا نحو مقاصدنا الثورية .

وما دام انه ليس هناك من قيادة تجذب خيال الجماهير ومشاعرها، فيمكن الكلام عن الثورة ، ولكن لا يمكن صنع الثورة . دون هذا النوع من القيادة تبقى «الثورة» محصورة بفئات من المثقفين وبتجمعات هي اقرب الى النوادي الثقافية منها الى الحركات الثورية ، وهذا كان فعلا مصير هذه الحركات التي جعلت من خصامها مع الناصرية قصدها الاول . ان الفقيد الكبير هو القائد الثوري الوحيد الذي استطاع ان يجذب مشاعر الجماهير ، محبتها وولاءها بشكل ادخلها نهائيا الى العالم الثوري .

والان ، وبعد ان خسرناه ، ستحل الناصرية في جمهوريتها العربية المتحدة التي تقترن باسمه لمدة طويلة مكان شخصه في ممارسة قوة الجذب للجماهير الثورية ، هذا الجذب الذي لا يمكن دونه لاية حركة ثورية ان تكشف عن فاعليتها . اننا لم نعرف في الماضي كيف نستخدم وجوده في تحقيق الدولة الواحدة ، ورجائي هو ان يكون الولاء الفريد من نوعه في التاريخ – وأعني حرفيا ما اقول عند استخدام كلمة فريد – الذي اظهرته الجماهير العربية عند موته المفجع عبرة لنا فنصحح موقفنا في ضوئه ، ونستخدم الناصرية بعد وفاته الاليمة بوعيثوري يصحح الموقف المنحرف السابق، ويقودنا الى الدولة الواحدة ، بدلا من مناوأتها كما فعلنا في الماضي . ان عجزنا عن ذلك ، وهو عجز قد يقضي نهائيا على امل تحقيق الدولة الواحدة ، فان المؤرخ في المستقبل قد يرى عندما يرجع الى هذه المرحلة بان اعظم كارثة منينا بها قد لا تكون نكبة ١٩٤٨ او هزيمة ١٩٦٧ ، بل عجزنا عن الافادة من قيادة الفقيد الكبير في تحقيق هذه الدولة .

لقد كانت الناصرية اول ثورة عربية استطاعت ان تحركالجماهير العربية تحريكا ثوريا عبر الوطن العربي ، تدفعها نحو الثورة الاجتماعية ، وتجعل فكرة هذه الثورة جزءا من تصورها السياسي لذاتها ، كما انها كانت الثورة الاولى والوحيدة التي استطاعت ان تربط فكرة هذه الثورة بالدولة الواحدة ، وأن تبلورها بلورة وحدوية في ذهن الجماهير .

قبل الناصرية كانت الحركة العربية «الثورية» تبشر بمقاصدها الثورية من دولة واحدة وثورة اجتماعية ، وتقتصر اساسا على اعداد وتجمعات محدودة متنافرة . الناصرية غيرت هذا الوضع تماما ، فكانت ليس فقط الثورة الاولى التي اعتمدت الجماهير ، واستطاعت ان تحركها في اتجاه ثوري ثابت وتتخذها قاعدة لها ، بل كانت الثورة التي سمحت لتلك التجمعات بأن تتصل بالجماهير وتجد صدى لديها .

في الناصرية قامت لاول مرة في التاريخ العربي الحديث دولة ثورية قصدها الاول ان تكون صوت الجماهير وأداة الجماهير وفي خدمة الجماهير . ولاول مرة في هذا التاريخ دخلت الجماهير سيدة الى المسرح السياسي ، تحاول ان تحققارادتها وتخلق نظاما يمثل هذه الارادة والمصالح التي تبغيها هذه الارادة . ولكن على الرغم من ذلك قامت فئات لم تستطع ان تحقق شيئا ونظم «ثورية» ترجع في ولادتها نفسها اليها ، الى الجو الجديد الذي خلقته ، الى الانتصارات التي سجلتها ، الى المساندة التي وفرتها ، والى المظلة الوقائية التي قدمتها ، قامت هذه الفئات والنظم بمحاربتها ، وانشغلت بهذه

المحاربة عن الاهتمام بمقاصدنا الثورية وفي طليعتها الوحدة وتحرير فلسطين ، ولكن الانكى من ذلك انها كانت دائما نصنع ما تصنع باسم الجماهير ، ولاؤها للجماهير ، وولاء الاخيرة لها .

ومن الغريب ان تقوم هذه الفئات والنظم فتحاربها بذلك المنطق المبتور او ان تقاومها باسم بعض نقاط الضعف والاخطاء والعجز فيها، وهي التي تتخبط تخبطا جامعا بالاخطاء والعجز والضعف . كم من السهل ان يعبر المرء عن «ثورية» ما عن طريق المزايدة اللفظية ، عن طريق سلبي يقتصر على الاشارة الى نقص او خطأ ، او مجردات لا تكلف صاحبها شيئا حتى الجهد الفكري !..

كانت الناصرية اول ثورة عربية اجتماعية ، وانتصارها وفر قوة دفع لتحركات مماثلة ، فاصبحت كل ثورة اخرى تجد الطريق مفتوحا امامها ، وتستطيع تحقيق ذاتها بسهولة كبرى نسبيا ، بسهولة كانت تستحيل عليها اولا الناصرية .

اليسار العربي كان عاجزا طيلة وجوده عن تفجير اية ثورة قبل ظهور الناصرية . هذا جعل فاعليته ونموه يرتبطان بنوع الصلة التي ينسجها معها ، لانها هي التي حملت اولا الثورة الى الواقع ، وجعلتها واقعا حيا بين الجماهير . لهذا ان كانت العلاقة ايجابية استطاع هذا اليسار ان ينمو وان يمارس فاعلية مستمرة ، وان هي كانت سلبية، حكم على نفسه بالانكماش والضمور ، وبعمل جانبي على هامش التاريخ، لان الجماهير كانت تعطي ولاءها لهذه الثورة ولقيادة عبدالناصر بالذات، وعلاقة سلبية من هذا النوع نفصل بين هذا اليسار وبين هذه الجماهير ، وهو فصل لا يمكن فيه لاية حركة ثورية ان تكون فعالة ، او ان تساهم مساهمة جدية في صنع الثورة العربية ، او حتى ان تكون ثورية . هذا ما حدث فعلا ، ونظرة واحدة على الخمسينات والستينات كافية للتدليل على ذلك . فاشكال هذا اليسار كانت تنمو وتؤكد ذاتها عندما كانت تعمل مع الناصرية ، وهي كانت تخسر فاعليتها وتدور في حلقة مفرغة عندما كانت تتحول عنها الى العمل ضدها، لان العمل ضدها كان يعني ، وهو لا يزال يعني في المرحلة الحالية ،علاقة عكسية مع التاريخ كما يصنع ذاته حاليا في هذه المرحلة الانتقالية التي نعانيها .

***

ان المواقف المتعددة التي اتخذها هذا اليسار « الانفصالي » « الجديد » في خصوماته مع الناصرية لم تكن فقط تدل على فقدان الوعي الثوري . بل كانت في الواقع مزايدات غير مسؤولة ونوعا من المهاترة والتهريج .

وهذا يصدق على اولئك « الناصريين » الذين ظلوا يمارسون التقديس والتهليل ، والتبجيل والمديح الفريد حتى عام ١٩٦٨ ، اي اكثر من عام بعد هزيمة حزيران . فقسم كبير من هؤلاء استرسل في هذا التقديس الى درجة انكر فيها حتى ان تكون حرب حزيران هزيمة للعرب او لعبدالناصر ! وبين ليلة وضحاها اخذ هؤلاء يشتمون ويذمون وينكرون نفس المنجزات والقيادة التي كانوا يقدسون كل التقديس طيلة اثني عشر عاما!..وذلك دون اية فترة انتقالية يقومون بها بنقد ذاتي ويعترفون فيها بقصورهم وخطأهم وعجزهم ومسؤوليتهم عن الهزيمة نفسها ، الهزيمة التي شاركوا فيها لانهم لم ينبئوا بها وله يحذروا ، لا من بعيد او من قريب ، بانه يجب ان لا ندخل في معركة مع اسرائيل في تلك الاوضاع ، او ان معركة من هذا النوع ستكون خاسرة . دون اي شيء من هذا انتقلوا الى موقفهم الجديد بنفس الثقة المطلقة بما يقولون ويقدمون ، يتكلمون بنفس« السلطة الفكرية » السابقة ، وكأن مفتاح المعرفة ، كل المعرفة ، بيدهم ، او كأنهم هم وحدهم يدركون الحقيقة ، كل الحقيقة ، التي تعبر عن الواقع العربي الثوري !. موقف يدعو ، في الواقع الى الشفقة !.

وجه المأساة في هذه الظاهرة هو ان مواقف فجة من هذا النوع كانت ولا تزال تجد من يقبلها بين « المثقفين » (؟) العرب ، بين مثقفين لا يفترض فيهم فقط حد ادنى من الوعي الفكري ، بل من الثورية الواعية . هذا ان دل على شيء ، فانه يدل ، فيما يدل عليه ، على انحلال الذات العربية انحلالا نتج عن المرحلة الانتقالية التي نمر بها، الا وهي مرحلة تفرض كمعالجة لذاتها بروز ذات جديدة لم تبرز بعد، وعلى ان المشكلة العربية الاساسية هي اساسيا ، كما حاولت التدليل على ذلك في كتبي ، ولادة العربي ولادة جديدة تجدد من الجذور الابعاد العقلية والنفسية التي تحدد سلوكه في الحياة وفي التاريخ . في كتاب « من النكسة الى الثورة » ذكرت ان الحركة العربية الثورية ضربت بشرور جسام ، ولا اكون مبالغا ان قلت بان الامية الفكرية تأتي في الطليعة . ولكن هذه الامية « الجديدة » هي انعكاس لعطل اكبر واعمق وهو ان تلك الولادة الجديدة في تصور ايديولوجي انقلابي جديد لم تتم بعد . لذلك كانت، كما حاولت ايضاح الامر في الكتاب نفسه ، جميع اقتباساتنا الحضارية الجديدة ، من السيارة الى المفاهيم الثورية ، اقتباسات خارجية لا تنزل الى اعماق الذات العربية . فهي اقتباسات تعبر ، اما عن ذات لا تزال تقليدية في اطاراتها النفسية والعقلية اللاواعية ، واما ذات تعيش في فراغ باطني لانها خسرت هذه الاطارات التقليدية ولم تستطع بعد احلال اطارات جديدة تنسجم مع عقلية القرن العشرين او مع المفهوم الثوري الذي تتبناه ، فتبقى العقلية قشرة خارجية ، ويبقى المفهوم مفهوما لفظيا هامشيا يدل على نفسه بالتخرجات اللفظية والتبشيرية . لهذا كان النفس القصير ـ وفي الناصريين السابقين نجد مثالا واضحا عنه ـ السمة الاولى التي تميز مواقفنا الثورية ، وذلك لان الوحدة الذاتية التي توفر النفس الطويل مفقودة .

***

هذه ملاحظات عجلى تدور حول الطابع الاساسي العام الذي يميز اخصام الناصرية « الثوريين » من الناصريين السابقين ، اردت منها فقط التدليل على ان طبيعة هذا الطابع هي طبيعة انفعالية ، تدور حول المزايدة والتبشير والفكر الشعائري ، وليس الفكر العلمي الموضوعي ، او الوعي الثوري الصحيح الذي يغذي كل التزام ثوري خلاق . لذلك لم يكن غريبا ان نرى ان المواقف التي تتفرع عنه ، وبالاخص تلك التي تتناول الناصرية ، تتسم بنفس السمات . والامثلة التالية التي اذكرها بسرعة على سبيل التمثيل وليس الحصر كافية في التدليل على ما اعنيه .

هؤلاء الناصريون السابقون يقولون مثلا ،في « ردتهم » ، ان الناصرية ليست اشتراكية ، لان الاشتراكية التي نعمل لها جاءت من فوق ، كانت منحة ، والاشتراكية لا تأتي عن هذا الطريق ..

انني لا اريد مناقشة هذا القول في ضوء منجزات الناصرية ، ما لها وما عليها في هذا الصعيد ، ولكن في ضوء ما يعنيه بالنسبة الى الناصرية كثورة . انه قول يعني ان الناصرية كانت يجب ان لا تحدث. لانه لم يكن هناك التنظيم الشعبي السابق او الحزب الثوري الصحيح الذي يمكن له اجراء التحويل الثوري . هذا بدوره يعني ان مصر كانت يجب ان نبقى كما كانت عام ١٩٥٢ ، مزرعة للملك ماجن ، ولطبقات اقطاعية وبورجوازية مستهترة منحلة ، وقاعدة للاستعمار في افريقيا واسيا ، الى ان يقوم ذلك الحزب او التنظيم بالثورة .

ولكن بما ان هذا « الحزب » لم يستطع ان يحدث اية ثورة اشتراكية ليس فقط في مصر ، بل في اي قطر عربي ، بل في اي بلد اسيوي ، ما عدا الصين وفيتنام وكوريا الشمالية ، وذلك بسبب اوضاع تختلف تماما عن الاوضاع التي يفكر بها هؤلاء عند الحديث عن هذه الطريق ، فان هذا النقض للناصرية يعني ، في تسلسله المنطقي ، ان بقاء مصر كما كانت عام ١٩٥٢ افضل من تغيير واقعها ذلك عن طريق الناصرية ، وما جاءت به وغذته من تحولات في

مصر والوطن العربي . هذا هو نوع المنطق الذي ينتهي فيه عادة ما اسماه لينين باليسار الطفولي !..

مناقشة او نقض الوقائع المتحولة في حركة او مرحلة ديناميكية باسم اخلاقية جامدة ، او باسم موقف عقائدي ثبوتي ، ليس من العلم في شيء ، وهو من ناحيــة ثوريــة ، قد يضر اكثر بكثير مما يفيــد . القول بان تلك او هذه الثورة لا اخلاقية ، لا اشتراكية ، غير ثوريــة، اوتوقراطية ، او بكلمة اخرى لا تحقق ذاك او هذا الانموذج او التصور الثوري . قول سخيف ، ويعني في الواقع انه من اللااخلاقية،واللاثورية ان نغير وضعــا قديمــا بوضع جديد ان لم يحقق الاخير تصورا معينا عن الثورة . هذا ينفي ، في الواقع ، ثوريــة ايــة ثورة تاريخية ، لان ليس من ثورة استطاعت ان تحقق التصورالذي انطلقت منه . التفكير حول الواقع الثوري باسم مجردات ومفاهيم وتصورات لا تنعكس فــي الواقع ، بدلا مــن مواقف تتصل به وتعانيه ، هو خروج على ذلــــك الواقع وانحراف عنه ، وعن الديالكتيك الثوري ذاته .

لا شك ان اشتراكية الناصرية تنطوي على عجــز ونقص ومطارح ضعف اساسية ، ولكــن القضية قضية نسبية ، يجب ان تقاس فيضوء اشتراكيات اخرى عبرت وتفرعت عن اوضاع مماثلة ، وليس في ضــوء مقاييس مطلقــة مجردة ، او في ضوء اشتراكيات اخرى عبرت وتفرعت عن اوضاع تختلف جذريا عن الاوضاع التي مهدت لها ورافقتها .

المفهومالتقليدي للدولة، وهو المفهوم الذيقالبه هيجل ايضا،كانيرى ان الدولة هي القوة التي تحدد المجتمع ، ولكن المفهــوم الماركسي - وهؤلاء الخصوم هم في معظمهم من الماركسيين .. عفوا اردت ان اقول من المتمركسين - يقول بان المجتمع هو الذي يحدد الدولة .

ماذا يعني هذا القول ؟.. انه يعني فيمــا يعنيه ، وبشكل بديهي انــه عندمــا تعجز الدولة عن تجسيد معنى ثوري معين ، او في ممارسة دور فعال في خدمة مقاصد تبنتهــا ،يجب ان يتطلع المفكر الى الوضع الاجتمــاعي القائم فيفتش فيه عن اسباب التناقض ، فلا يجعلها نتيجة لشخصيــة القائد او حتى لطبيعــة الدولة ونظامهــا .

واخيــرا ، فيمــا يتعلق بهذه الناحية ، يمكــن القول انه منااهم ميزات الاشتراكية ، تدمير سلطــة ومركز الطبقات التقليدية المستغلة، تحرير الجماهير المستغلة من اشكال الاستغلال ، تحسين اوضاع الفــرد المعاشية ، ومن ثم تحريره نهائيــا من كل شكل من اشكال البؤس والفقر، تحقيق العدالة السياسيــة والاجتماعية ، توفير الكرامة الانسانية لكل فــرد ، تحقيق روح جماعيــة من التعاون والاخوة بين الشعب .

لا شك ان الناصريــة لا توفر لنــا صورة مثلى او عليــا عن هذه المنجزات ، ولكنهــا عملت اكثر بكثير من ايــة ثورة عربية اخرى فــي هذا السبيــل ، وعلى الرغم من تكاليف معركة تحرير فلسطين التــي تحملتهــا لوحدها ، وتكاليف الثورة العربية التي دعمتها في الجزائر الى اليمن ، فــان الناصريــة قطعت فيهذا الطريق اشواطا لا تــزال بعيدة عــن متناول ايــة ثورة عربية اخرى ، بله ايــة ثورة اخرى فــي العالم الثالث ، مــا عدا كوريــا ، وفيتنام والصين وكوبا .

هؤلاء الناصريون السابقــون يعترضون ايضا على الناصرية بانها ذات قيادة « فردية »هذا الاعتراض ، وان جارينا هــــذا « المنطق » فافترضنا جدلا بانها كذلك ، هو اعتراض مجرد وتبشيري . فليس هناك من طبيعة واحدة تتفرع منها جميع اشكال القيادات « الفردية » ، او تفرض معنى واحدا عليها ، كما ان ليس هناك من اوضاع واحدة ثابتــة تفرض علاقــة واحدة بيــن هــــذه القيادات والوسط السياسي . فالقيادات وطبيعــة علاقتهــا بالاوضاع المحيطــة بهــا تتغير ، فايتقييم لايــة قيــادة ثوريــة يجب ان يتم على ضوء هذه العلاقة .

القيادة الثورية ، بقطع النظر عــن تركزها في فرد او لجنة،تكون قيادة ديمقراطيــة عندمــا تكــون امتدادا لارادة ومشاعر الجماهير ، للشعب ككل ، وللقوى الجديدة الفاعلة في التاريــــخ ، وهي تكــون اتوقراطية عندمــا لا تمثل ذلك ، وان كانتمن لجنة تشكل من عشرات يتساوون مساواة تامة كاملــة فيكل شيء . ولا يتخذ احدهم خطــوة واحدة دون اجماع تام بينهم . من ناحيــة اخرى ، يمكــن القول ان«كل تنظيم موقت للدولة يفرض ، بعــد قيام الثورة ، ليس دكتاتورية فقط، بــل ديكتاتوريــة نشيطــة ايضا (٢)

الديمقراطية لا تعني فقدان التركيز او السلطة الثورية المركــزة، بل تعني في وضع ثوري كالذي نمر به ، وجوب تعبير هذا التركيــز عن ارادة الشعب فيكون امتدادا لسيادة الجماهير . ليس هناك فيالتاريخ الثوري من قيادة ثوريــة حققت هذا الشرط اكثر من القيادة الناصرية ليس هنــاك في التاريخ الثوري من جماهير دللت على هذه العلاقــة عندمــا جابهت امكــان ابتعــاد قائدهــا عــن القيادة (٩و١٠ يونيو)او عند خسارة قائدها ، كما دللت الجماهير العربية .

هؤلاء الناصريــون السابقــون كانــوا يرددون ان ظاهــرة ٩و١٠ يونيــو كانت نتيجــة المفاجأة ولان الجماهير لم تكــن تعي بعــد ابعــاد الهزيمة ، وانها بعــد ذلك نزعت ولايتها عن عبدالناصر ! هذا هو نمط الفكر « العلمي » الذي يمارسه هؤلاء !. ولكن هل اعتبر هؤلاء بتلــك الظاهرة الشعبيــة الفريدة في التاريخ ، التي كشفت عنها وفاة الفقيد الكبير ، فاذا بهــذه الجماهير التي قالــوا عنهــا بانهــا خسرت ولاءها لعبدالناصر ، تعاني بعشرات الملايين وفي كل مكــان من الوطن العربــي موجــة الم وحزن عميق لم يــر التاريخ شيئــا يماثلها ؟ كــلا طبعــا !. فهؤلاء يسخرون ، دون اي شعور باي حرج ، يتكلمــون ويتحدثـــــون « بسلطــة » فكرية مطلقــة ، وكأنهم هم الوحيدين الذين يدركــون الواقع وتحولاته !. شيئا من الحرج ان لم يكن من الخجل !

هذا النوع من المزايدة ، من اتهام الحركات الثورية بالفردية كان في الواقع ظاهرة تعيد ذاتهــا باستمرار في تجارب التاريخ الثورية . « ففــي جميع الحركات الثوريــة الكبيرة ، في جميع الثورات الناجحة نرى دائمــا هنــاك اتجاهات وفئات عجزت عن مجاراة المجرى الثـــوري الاساسي ، وعن التجاوب مع ديالكتيكية العام ، فكانت تلتقي جميعهــا بمحاربة هذا المجرى من مواقفها الجانبية باسم الحرية او الديمقراطية المجردة ، وباسم مقاومة الاتوقراطية والبيروقراطية (٣) . اما ماركس وانجلز فيكتبان :« من السخافة اذن ان نتكلم عن مبدأ السلطــة كشر مطلق ، وعــن مبدأ الاستقلال الفردي كخير مطلق . فالسلطة والاستقلال الفردي همــا من الامور النسبية ، يتغير صعيدهمــا بتغير مراحــــل التاريــخ » (٤)

هذا هو نمط النقد والنقض الذي مارسه هؤلاء الناصريونالسابقون ضــد الناصرية . فموقفهم كــان يتفرع باستمــرار مـــن عموميات ، وتجريدات ، وفكــر شعائري ، من مزايدات ومهاترات ، وفي كثير مــن الاحيــان من انفس موتورة مليئة بالحقد والضغينة . فهم مثلا ينتقدون طريق الناصريــة الى الوحدة ، ولكــن دون ان يدلوا علــى اي طريــق خاص بهم ، او دون ايــة قدرة على ممارســة ما قــد يعلنون عنه مــن طريق ! وهم ينتقدون منجزاتها ، ولكــن دون تقديم اية منجزات اخرى تتقدم عليها او تماثلها او تحل محلها !. وهم يدلون على النقص فيها ليس بغيــة التصحيح ومساعدتها على تجاوز ذاتها بل دعوة في العداء لهــا ونقضها !. وهم يشيرون الى اخطائهــا ولكــن دون القدرة علــى ابراز اي نظام خلفوه استطاع ان يتجاوز هذه الاخطاء !..

لقــد كتب لينين مرة :« النقطة الاساسية الان هي واجبالطليعــة الثورية ان لا تتردد .. في تثقيف ذاتها وفي الاعتراف بانها غير معدة

2 - Lenin : Selected Works , Foreign Language Publishing House , moscou . 1960 Vol . I . P . 589

3 - Ibid , P . 462

4 - l/arp , Engels : Selected Works , Moscou ,A 62 , Vol I. P. 38

كفاية ، وتنقصهـا الكفاءة الضرورية » (٥) كما يحتاج هؤلاء الناصريون السابقـون ، واكثريتهم من « الماركسيين » المحسوبين على الماركسية، الى التأمل بهـذه العبارة والعمل بوحيها !..

***

اثناء ناصريتهم لم يكـن هؤلاء الناصريون السابقون يختلفون فـي موقفهم ذاك او في الفكر الذي عبر عنه ، عمـا هم عليه الان موقفـا وفكرا ، ما اعنيه هو ان الفكـر الذي عبر عـن ناصريتهم انذاك كان هو ايضـا فكر تبشير ، وعموميات ومزايدة وشعائر . فهم في دعوتهم الى الارتباط بهـا في ذلك الدور ، كانوا يطرحون قضية الارتباط على صعيد التبشير والشعارات ، اي دون الانطلاق في الدعوة الى الارتباط فـي نظريـة علميـة ثوريـة يشتقونها من تجارب التاريخ الثورية والوحدوية من طاقات الواقع العربي ، ومن ادراك صحيـــح لديالكتيكه الثوري والامكانات التي يمكنه الكشف عنها ، اي ان الارتباط كـان يتحـــرك بطريقـة عفويـة ، دون ان توفر لـه نظريـة تنقله من هذا الصعيد الى صعيد الوعي الثوري الذي يتفرع من نظريـة شاملة لتلك التجارب ، لهذا الواقع وديالكتيكه ، لذلك هم بالغـوا أشـد المبالغـة بفاعليـة الناصريـة الثوريـة ، وضخموا دورهـا اكثر بكثير مما نسمح بـــه الطاقات المتوفرة لها ، كمـا انهم ضخمـوا دور عبدالناصر فجعلوه اضعافا مضاعفـة فوق طاقـة اي انسان . اذ جعلوا التاريخ والاجتماع شبـه عجينة في يـده يستطيـع ان يصنع بهمـا ما يشاء . لهذا لا اكـون مبالغـا عنـد القول بان معظم هؤلاء كانوا دون ان يدروا اعداء الناصرية حتى اثناء الدعوة لهـا والى الارتباط بها .

والان ماذا نرى ؟.. نفس الشيء يعيد ذاته في موقفهم من المقاومة الفلسطينية . هنا ايضـا نرى نفس الفكر الشعائري، نفس الاعتمـاد على المزايدات والعموميات والتخريجات اللفظية ، خطوط نظريـــة « وتنظيرات عامة » قد تؤثر في فكر مراهق وتجذبه ولكنها دون صلـة حيـة مع الواقع ، هنا نرى نفس التضخيم لدورها ، وهو تضخيم اصبح يكشف ضرره بها ، وهـو ضرر قـد يكـون اشد من الضرر الـــذي الحقه بثورة ٢٣ يوليـو والناصرية ، ان اشد مطارح الخطر في هـــذا التضخيم هـو تقديم المقاومة المسلحة كثورة تحل محل ثورة ٢٣ يوليو وتتجاوزهـا ثوريا ، تحل محل الجيوش « النظامية المحترفة » وتحـرر فلسطين كلها في حرب شعبية على غرار ما حدث في الصين والجزائر وخصوصا في فيتنام . القصد هو تقديم الثورة الفلسطينية كبديـــل يتجاوز الناصرية ، كالثورة الجديدة التي تلغي بارتباطنا بها جميـــع ارتباطاتنا السابقـة .

يا حبذا لـو ان المقاومة تستطيع ان تمارس هذا الدور !. يا حبذا لو انهـا تستطيع نقلنـا الى صعيد جديد نتجاوز فيه انحرافات وضعف وخلل تجاربنـا الثوريـة الماضية !. ولكـن امالنـا يجب ان لا تعمينا عـن واقعنـا وامكاناته . ان ايـة درجـة من الوعي الموضوعي الثـوري للواقع كافية فـي الكشف عن عجز موقف كهذا الموقف وفي رؤيـة الخطر الذي يشكله على المقاومة نفسها . ولكن ما الفائدة !. فالواقع لهؤلاء في مرحلتهم الناصريـة كـان نهائيـا وبشكل لا واع العقليـةالتي ما زالت جزءا من ذات الوجود العربي التقليدي التي تعتمد البطولـة والبطل في تفسير مـا يحدث في التاريخ . البطل سقط في هزيمـة حزيران ، فأخذت العقليـة تفتش عـن بطل جديد فوجدته في العمـل الفدائي . لذلك لم تكـن الدعوة الى هذا العمل تعبيرا عـن وعي ثوري موضوعي لواقعه ، الاوضاع الموضوعيـة التي تحيط به والديالكتيـك الثوري الذي تتكشف عنه ،بل عـن نفسية لا ترتاح او تستكيـن دون عبادة بطل وبطولة . ان الاطار التبشيري، الاخلاقي ، الميتافيزيقـــي الذي يعمل فيه هـذا الفكر يدفع دائمـا الى عبادة الارادة ، البطولـة والبطـل مهمـا تشدق لفظيـا بالعلمية والمنهج العلمي .

الاشارة الى النقاط التاليـة كافية في ايضاح ذلك :

١ ـ ان الاوضاع الموضوعيـة منجغرافية وديمغرافية واستراتيجية لفلسطين،واوضاع الاحتلال بالنسبة للارض المحتلة تختلفجذريا وبشكل تام عن الاوضاع التـي ظهرت فيها الحرب الشعبية فـي الصين ، والجزائر وفيتنام ، وهي لا تسمح بتحول العمل الفدائي الى حـــرب شعبيـــة .

لقـد تعرضت لهذه الناحيـة في حديث مع « مواقف » سيظهـر في عدد ١٢ ، ولذلك فانني اعيد القارىء اليه في ايضاح ما اعنيـه ، واكتفي هنا بالاشارة فقط الى هذا الواقع .

هذا لا يعني انه ليس هناك من دور ثوري فعال يمارسه العمـل الفدائي ، لا يعني التقليل من اهمية الثورة الفلسطينيـــه القصوى واهميـة ارتباطنا والتزامنا الاساسي بها ، ولكـن يعني دورا اخر لها هـو غيـر الدور الذي تريده بعض فصائل اليسار لها . في الحديث الانف الذكـر تعرضت ايضـا الى هذه الناحيـة .

٢ ـ هذا الموقف التبشيري ، والثوري « اللفظي » يدعونا انتتعرف على الكفاح المسلح لاول مرة في الثورة الفلسطينية ، وهو بذلك يتجاهل تمامـا اننـا تعرفنا على هذا الكفاح قبل هذه الثورة ، وذلك في ثـورة الجزائـر واليمن الجنوبية .

هذا التجاهل يعـود الى توكيد هذا الموقف على الكفاح المسلـــح طريقـا لخلق « الثورة الصحيحة » . ولذلك فهـو يتجاهل تجارب مـن هـذا النوع لم تؤد الى هذه « الثورة » . هذا لا يعني طبعا ان هـــذا التوكيد غير صحيح ، فهـو صحيح ولكـن بشكل مشروط . ولذلككنت من اول من اكد عليه في كتبي المختلفة ، ابتداء من « الايديولوجيـــة الانقلابية » عام ١٩٦٤ ، وخصوصا في كتاب « من النكسة الىالثورة» ولكـن صحته غير كاملـة ، فهـو ضروري ولكنه غير كاف في خلـقتلك الثورة ، وكي يقوم بهـذا الدور يحتاج الى شروط اضافية عديدة منها مثـلا تصور ايديولوجي انقلابي جديد للتاريخ.

ثم ان هذا الموقف يدعونا من ناحيـة اخرى « ليس الى العمـل الفدائي كطريق الى ثورة جديدة صحيحة ، بل الى المقاومة نتعرف فيها لاول مرة على الثورة ، وذلك على الرغم من ان المقاومة لا تزال متأخرة حتى الان ايديولوجيا وتنظيميا وثوريـة اجتماعية ، وعسكريا وحتـــى استراتيجيـا عـن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية . المقاومة لا تستطيع انتقدم نفسهـا بديـلا عـن الناصريـة دون ان تبرهـن على تقدمها عليهـا فـي هذه الاصعـدة .

العمل الفدائي لا يزال في فلسطين المحتلة ، وبعـد مرور خمس سنوات ، عملا فدائيا وعملا فدائيا محدودا انه لم يتطور الى حـــرب شعبيـة او حتى الى حرب عصابات . هذا يعـود طبعـا ليس الىنقص في المقاتل الفلسطيني، بل الى الاوضاع الموضوعية التيتحيط بالارض المحتلة ، والتي لا تسمح على غرار فيتنام مثلا بممارسـة كفاح مسلـح مماثل ، فنوعية هذا الكفاح لا تتفرع مباشرة من عناصر ذاتية فيالمقاتل، بل من علاقـة ديالكتيكية بيـن هذه العناصر والاوضاع الموضوعية التي تحيط بالاحتلال وبالارض المحتلـة .

هذا التضخيم لدور المقاومة بشكل يتجاهل هذه الاوضاعالموضوعية ابتدأ يعزز ـ وهنا الخطر الذي يجب ان نتلافاه بكل مـا اوتينا مـن وعي وجهد ـ انعكاسات سلبيـة بيـن الجماهير والمثقفين ، لانهـم لا يرون ان المقاومة تمارس الدور الذي اضفاه عليهـا هذا الموقـــف التبشيري الشعائري . انني على سبيـل التمثيل اورد هنا اخـــر الاحداث التي ساهمت في هذه الانعكاسات ، اي المؤامرة المجرمة على العمل الفدائي ومحاولة تدميره بتلـك الوحشية اثناء الصيف الماضي. فقد سمعت اكثر من مـرة من يقول لي بنبرة يائسـة : ما هـذا؟.. الفلسطينيـون يشكلون خمسين بالمائة من الجيش الاردني ، فلمـاذا لم

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٥ ـ

5 - Lenin , op . cit . Vol 3 , P, 766

عبد الناصر والأرض والفلاح

بقلم ابراهيم عامر

سيظل من رأيي ان اهم ما حققته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ العربية في مصر ، بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، هو الاصلاح الزراعي ، وذلك باعتقادي ـ بناء على متابعة ودراسة على الواقع لمترتبات الاصلاح الزراعي منذ بدء تطبيقه ـ ان هذا الاصلاح الذي بدأته الثورة في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ ، ولما يمض على قيامها اكثر من شهر ونصف ، كان هو الحجر الاساسي لكل ما حققته او حاولته الثورة من انجازات في مجال العمل السياسي ضد الاحتلال والاستعمار والاستغلال الاجنبي والقوى العميلة الداخلية ، او في مجال العمل الاقتصادي ـ الاجتماعي المتقدم .

وفي اعتقادي ان من اعظم مساهمات الزعيم جمال عبد الناصر في الفكر الثوري المعاصر ، وخاصة في الامم المستقلة حديثا والآخذة بطريق التنمية غير الرأسمالية ، اكتشافه للدور الثوري الهام للفلاحين في عملية التحول الاقتصادي الاجتماعي .

ان ظروف ضعف الطبقة العاملة الصناعية في المستعمرات السابقة في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، وفي المنطقة العربية ، وظروف ارتباط الصناعة في هذه البلاد بالرأسمالية الاجنبية المتحالفة مع الرأسمالية المحلية ، بالضرورة او بالرضى ، حرمت العمال الصناعيين من القيام بدورهم كاملا ، بل وأدت ، في بعض الاحيان ، الى الانحراف بدورهم الى مسارات مشبوهة وغير قومية ، او رشوة قطاعات قيادية منهم بالمال او المكانة .

على ان الفلاحين ، ورغم تخلفهم النسبي عن العمال الصناعيين ، ظلوا القوة القادرة على التحرك ضد الاستعمار وضد الاستغلال . وقد شهدت الصين الدور الهام والحيوي الذي قام به الفلاحون في ثورتها المعاصرة ، كما شهدت الجزائر مثل هذا الدور في نضالها ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي . وتشهد بلاد اخرى ، من الهند الى بوليفيا ومرورا بالمغرب ، حركات الفلاحين الثورية من اجل تحقيق المهام القومية الاشتراكية .

واذا كان الاصلاح الزراعي لم يبرز بمثل هذه الصورة العقائدية في بدايات الاعداد لثورة ٢٣ يوليو ، مثلما برزت قضايا اخرى من قضايا التحرر السياسي والاجتماعي ، فان من المؤكد ان الضباط الاحرار بقيادة جمال عبد الناصر ، وبمساهمة ملموسة من جانب المناضل الراحل جمال سالم ، قد درست هذه المسألة بصورة عامة . ثم كان عليها ان تنتظر الى ما بعد الاستيلاء على السلطة لكي تبلور برنامجها لاقامة قاعدة سياسية واقتصادية واجتماعية مستقلة للثورة ، على اساس الاستناد الى جماهير الفلاحين .

وعلى طول عهد عبد الناصر ، ظل الفلاحون ، وأهل الريف ، هم القاعدة الراسخة للثورة ، والقوة المؤيدة الرئيسية للزعيم عبد الناصر ، والحصن المنيع لقوة الثورة في مواجهتها لقوى الثورة المضادة ، الخارجية والداخلية على السواء ، والمعين الذي لا ينضب لتجديد عناصر الثوريين لمواصلة الثورة ، ولتزويد الامة بما تحتاج اليه من كوادر وقيادات .

وظل الاصلاح الزراعي اكثر الاجراءات دلالة على اتجاه الثورة وقيادتها ، وتطوراته اكثر التطورات دلالة على المسار السياسي الاجتماعي لمصر ، والصراعات من حوله اكثر الصراعات دلالة على نوعية المتناقضات التي ينبغي التغلب عليها وتجاوزها ، لا في مصر وحدها بل وفي الامة العربية كلها .

والذي لا يزال يدهشني ـ مع ذلك ـ هو ان قليلين جدا من المثقفين العرب ، بل ومن المشتغلين بالسياسات العربية القومية ، هم الذين يوجهون اهتمامهم الحقيقي الى قضية الاصلاح الزراعي : قضية الارض والفلاح في الثورة العربية المعاصرة ، ويحاولون تحديد خط سياسي ـ اجتماعي واضح لمصلحة الفلاحين . بينما هم يدركون ان المجتمعات العربية لا تزال مجتمعات فلاحية ريفية ، لا من ناحية ان الذين يعملون بالزراعة والفلاحة ويعيشون في الريف هم الاغلبية فحسب ، بل ومن ناحية التأثير الكبير

الملموس للريف على مختلف مجالات الحياة القومية العربية ، بما في ذلك مجالاتها السلوكية اليومية والفكرية، حيث نجد ان معظم القيادات العربية هم من اصول فلاحية ، او ممن لهم ارتباطات تاريخية - اجتماعية - تربوية - نفسية بالريف ، وعاداته الذهنية ، ومعاييره التقليدية ، بهذه الصورة او تلك .

اول معركة للثورة

ولم يكن اصدار قانون الاصلاح الزراعي الاول ، يمثل اول خطوة في ثورة ٢٣ يوليو فحسب ، بل وكان اول معركة خاضتها الثورة ، على المستوى الاجتماعي - القومي ، ومع اقوى طبقة في البلاد ، وفي اوسع ميادين الحياة السياسية الاقتصادية للبلاد .

وبالمعنى الرمزي ، وكثيرا ما يكون مغزى الرمز اهم من مغزى الواقع ، فان معركة الاصلاح الزراعي كانت معركة مصر الثورة الاولى ، لان مصر كانت هي الفلاح وكان الفلاح هو مصر .

ولا احد ينكر ، ومنذ ابعد عصور التاريخ المصري ، ان استعباد الفلاح كان الايذان باستعباد مصر كلها ، وان تحرير الفلاح كان الايذان بتحرير مصر كلها. وبدون الخوض في تفاصيل الارقام والوقائع ، فان بؤس الفلاح كان بؤس مصر ، وخرابه خرابها ، واستغلاله استغلالها، والسيطرة عليه سيطرة عليها .

وبالعبارة السياسية العصرية ، فانه اذا كان من يملك وسائل الانتاج ، والارض اساسا ، يملك السلطة ، فان تمليك الفلاح للارض كان معناه تمليكه السلطة .

وبالمعنى الواقعي ، فلم تكن معركة الاصلاح الزراعي معركة سهلة ، او معركة مساومات وتنازلات ، كما لا يزال يتصور البعض في العالم العربي حتى الان ، وانما هي كانت معركة مواجهة مباشرة بين «قوى الثورة» و«قوى كبار الملاك» .

وقد يفهم من تعبير «قوى كبار الملاك» المعنى المحدود المباشر ، وليس المعنى التاريخي لقوى كبار الملاك في مصر . ان كبار الملاك في مصر لم يكونوا مجرد ملاك كبار للارض الزراعية ومستغلين للفلاحين ، وانما كانوا هم ايضا الذين يحكمون مصر ويتحكمون فيها سياسيا وحزبيا واداريا وتشريعيا ، وكانوا هم ايضا كبار المساهمين في الشركات الصناعية والمصرفية والتجارية الكبرى ، وكانوا هم الذين يصنعون القيم السلوكية للمجتمع ، ويرعون ويوجهون الفكر والفن ، ويرسمون بتصرفاتهم - صورة مصر في اعين الاخرين .

وكانوا لا يزيدون عن مائة اسرة يملكون فيما بينهم نحو الف مليون جنيه ، ويقدمون من بينهم ومن بين ١٥٠٠ اسرة اخرى مرتبطة بهم ، بصورة او بأخرى ، كل رؤساء الوزارات والوزراء . كانوا يمثلون مجتمع النصف في المائة، على حد تعبير الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، الذي يتحكم في مجتمع ال ٩٩٫٥ بالمئة .

وكانوا هم القاعدة الرئيسية، بالضرورة او بالرضى، للسيطرة الاستعمارية في داخل البلاد ، والعقبة الكبرى، بالوعي او بالتلقائية، في سبيل اي تغيير جذري ، او تحرك الى الامام .

ومن ثمة ، فقد كان من الطبيعي وقد فتحت الثورة نيرانها على طول مثل هذه الجبهة العريضة ، ان تلقى ، وهي لا تزال في الاسابيع الاولى بعد الاستيلاء على الحكم ولما تستول على السلطة بعد ، مقاومة سياسية عنيفة اشتركت فيها جميع القوى السياسية القديمة ، ومنها حزب الوفد ذو الاغلبية «الشعبية» . واشترك فيها ما يشبه اتحاد عام لكبار الملاك ، بقيادة رئيس الوزراء حينذاك ، وقد كان هو نفسه من كبار اصحاب العزب ، وناظرا لتفاتيش كبار ملاك آخرين .

واتخذت المقاومة السياسية صورة الضغط والتخويف ومحاولات تحريض قطاعات من الراي العام ضد الاصلاح الزراعي ، بدعوى تعارضه مع الدستور، ومع الدين ، ومع التقاليد القومية . وبدعوى التحذير من آثاره الاقتصادية السيئة لانه سيؤدي - في رأيهم - الى انخفاض الانتاج الزراعي وتعريض البلاد للمجاعة والخراب . وبدعوى عدم قدرة الفلاح الفقير والمزارع الصغير على النهوض بالارض الزراعية التي سيتملكها . وصحبت هذه الحملة محاولات للمساومة على الحد الاقصى للملكية ، وعلى اسلوب تنفيذ التحديد وهل لا يكون بأثر رجعي .

واتخذت المقاومة ، في الوقت ذاته ، صورة التآمر لتأليب بعض القوى العمالية الصناعية ضد الثورة ، بغية فتح جبهة اخرى تشغلها عن الاصلاح الزراعي . وهذا تكتيك معروف ، تاريخيا وفي العالم كله ، من جانب كبار ملاك الارض الذين لا يترددون بوصفهم «اشتراكيين ، اقطاعيين» من تبني مطالب العمال الصناعيين لضرب مطالب الفلاحين ، ولتفرقة صفوف العمال والفلاحين حتى لا تلتئم في التحالف الثوري لقوى الشعب العامل .

ولكي يصدر القانون ويبدأ تنفيذه ، فقد كان لا بد من عزل رئيس الوزراء ، وتكوين حكومة جديدة تحت اشراف اتجاهات «مجلس قيادة الثورة» اكثر ، وذلك بعد ان رفض جمال عبد الناصر اي اتجاه للتراجع عن الاصلاح الزراعي او المساومة حوله ، باعتباره الركيزة الاساسية للثورة ، في بعدها في المستقبل . وكان لا بد، وفي اليوم ذاته ، من ان يصدر قانون يفرض قيودا منهجية على الاحزاب السياسية القديمة ، بعد ان وقفت جميعا ضد الاصلاح الزراعي ، بصورة او اخرى .

وفي بداية تطبيق الاصلاح الزراعي واجهت السلطة الثورية ، بقيادة جمال عبد الناصر ، محاولات عديدة لعرقلة التطبيق . وبعض هذه المحاولات كان غير مباشر عن طريق التحايل على القانون ، او عن طريق تخريب

المنشآت والزراعات وذبح الماشية التي على الارض المقرر الاستيلاء عليها ، او عن طريق تهريب الزائد من الاملاك والخاضع للاستيلاء بوسائل عديدة . والبعض الاخر من هذه المحاولات كان في شكل مقاومة مباشرة لتنفيذ عمليات الاستيلاء . وكان من ابرزها محاولة عدلي لملوم المشهورة .

ولقد كان عدلي لملوم ابنا لاحد كبار الملاك من مشايخ القبائل في الصعيد . وكان والده الأمي الوحيد في البرلمان . وعندما شهد رجال الاصلاح الزراعي يدقون «الحدايد» في ارضه لتحديد الارض المستولى عليها من املاكه ، امتطى حصانه وحمل بندقيته وحشد اتباعه ودخل معركة مسلحة لمنع التنفيذ . لكن الثورة سارعت بتوجيه ضربة حاسمة ضد عدلي لملوم ، باعتباره رمز المقاومة الاقطاعية الكامنة والمحتملة ، والقت القبض عليه، وحاكمته وحكمت عليه بالسجن . وكان يوم تكبيل عدلي لملوم بالحديد هو يوم عيد حقيقي للفلاحين ، ويوم ان برهنت الثورة ، بالفعل ، على اصرارها على تنفيذ الاصلاح الزراعي ، وقدرتها على ذلك .

على انه من الحق ، في الوقت ذاته ، ان نقول ان بعض الفلاحين لم يستقبلوا الاصلاح الزراعي الاستقبال الصحيح للوهلة الاولى . وذلك بسبب ما كان في نفوسهم من شكوك فى قدرة الثورة على تنفيذه حقا ، وخوفهم الشديد من تهديدات كبار الملاك لهم بالانتقام منهم اذا قبلوا الارض الموزعة، وبسبب الاسترابة في نوايا وكفاءات موظفي الاصلاح الزراعي ، والتقاليد الخضوعية ورواسب التربية الخنوعية المغروسة في نفوسهم منذ آلاف السنين . وبسبب الدعايات الحزبية المضادة للاصلاح الزراعي . وبسبب تشعبات العلاقات الأسرية وعلاقات التبعية الشخصية المتشابكة في الريف .

ومع هذا ، فقد ظل الاصلاح الزراعي يلقى معارضات ومقاومات غير مباشرة لتطبيقه . وكان من اهم اشكال هذه المعارضات والمقاومات شكل «تهريب الارض» لمنع الاستيلاء عليها وتوزيعها على الفلاحين . وقد بلغ هذا الشكل ذروة خطورته الدامية في حادث قرية «كمشيش» في مايو ١٩٦٥ ، واسفر عنه ان اتخذت الثورة اجراءات حازمة لتصفية الاقطاع المهرب .

بل ولا تزال المعركة ضد المعارضات والمقاومات للاصلاح الزراعي مستمرة حتى اليوم. وتتخذ المعارضات والمقاومات اشكال التشكيك في نتائج الاصلاح الزراعي والمبالغة في عيوبه واخطائه والمبالغة في المطالب والشكاوى، وادعاء الحرص على مصلحة الفلاحين اكثر من حرص الفلاحين انفسهم على مصالحهم . فالذين يتباكون على قلة المساحة التي حصل عليها الفلاح او على كفاية الارض الموزعة لكل الفلاحين، لا يريدون في الواقع زيادة الاراضي المستولى عليها بمزيد من تخفيض الحد الاقصى المباح للملكية الفردية والأسرية حتي يزيد الممكن توزيعه .

والذين يتباكون على انخفاض اجور العمال الزراعيين يشكون في الوقت ذاته من ان الاصلاح الزراعي قد افسد عليهم العمال الزراعيين لانه قال لهم ان لهم حقوقا .

ومن الذين لا يزالون يعارضون ويقاومون الاصلاح الزراعي حتى الان ، ممن انطبق عليهم الاصلاح الزراعي فسلبهم جزءا من ارضهم ، او سلبهم نفوذهم او مكانتهم الاجتماعية الاستبدادية في الريف . وهم ـ بصورة رئيسية ـ من كبار الملاك السابقين ومن نظارهم ومديري مزارعهم وموظفيهم ، بل واحيانا من خفرائهم وخدمهم واصدقائهم . وهم من طبقة الوسطاء في الريف الذين كانوا يؤجرون اراضي الملاك الغائبين من الباطن للفلاحين. وهم بعض المستأجرين السابقين لأراضي التفاتيش الكبيرة ، وهم طبقة الممولين السابقين للفلاحين من مرابين وتجار . وهم طبقة تجار الداخل الذين كانوا يتعاملون في الاسمدة والمبيدات والقطن والمحاصيل الزراعية الرئيسية الاخرى .

ومن الذين يعارضون الاصلاح الزراعي ، بعض الذين لم يستفيدوا من الاصلاح الزراعي ، بسبب عدم كفاية الارض المستولى عليها ، في اطار الحد الاقصى الراهن للملكية ، لاشباع جوع كل المعدمين والفقراء .

اربعة اهداف

على اننا اذا قلنا ان «الاصلاح الزراعي» كان هو الخطوة الاولى للثورة ، بقيادة جمال عبد الناصر ، وكان قاعدتها على الارض الزراعية وعلى الفلاحين ، فانما نقول ذلك لكي نوجز ايجازا رمزيا علاقة الثورة وجمال عبد الناصر بالارض والفلاح . ذلك لان الثورة في اتجاهها الرئيسي نحو الفلاحين قد حققت خطوات اخرى مكملة للاصلاح الزراعي ، ومساهمة مساهمة فعالة في تكوين عناصر الثورة الفلاحية المستمرة في الريف وفي المجتمع العربي كله في مصر .

وبالاضافة الى قوانين الاصلاح الزراعي التي تلت القانون الاول ، وعدلت الحد الاقصى للملكية بخمسين فدانا للفرد بدلا من مائة ، وبمائة فدان للاسرة بدلا من ٣٠٠ فدان ، وبالاضافة الى تعديل التعريف السياسي للفلاح من كونه المالك لخمسة وعشرين فدانا ، الى كونه الحائز لعشرة افدنة ، فان مصادرة اراضي الملك السابق والاسرة المالكة ، وتأميم اراضي الملاك الاجانب والمصارف الزراعية والعقارية الاجنبية ، والغاء تعويض الملاك عن الارض المستولى عليها ، وتخفيض ثمن الارض الموزعة الى ربع قيمتها مع تقسيطه على اربعين سنة ، هي جميعا ، وغيرها مما لايتسع المجال هنا لحصره بالتفصيل،اجراءات مكملة للاصلاح الزراعي .

كذلك فان عمليات استصلاح الاراضي الجديدة ، والتي بلغت نحو ٨٥٠ الف فدان ، واقامة مزرعة آلية نموذجية ، ومحاولات استصلاح الاراضي الصحراوية،هي

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٣ ـ

الناصرية والنظرية الثورية

بقلم الدكتور فؤاد مرسي

تطورت المفاهيم الثورية عند جمال عبد الناصر في اتجاه صاعد منذ يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . ويمكن القول بأن هذا التطور قد انطوى على ثلاث مراحل هامة .

ففي **مرحلة اولى** تبدأ بالاستيلاء على الحكم وتنتهي بتأميم قناة السويس وهزيمة الغزو الثلاثي ، كانت افكاره تدور حول حتمية تصفية الاقطاع تمهيدا لكسب الاستقلال السياسي من بريطانيا العظمى عن طريق المفاوضات وبالتفاهم مع الولايات المتحدة . غير ان مساندة الولايات المتحدة لاسرائيل وحجب السلاح عن مصر ثم سحب وعدها بقرض السد العالي كانت مواقف حاسمة ، وضعت نهاية لمرحلة التردد في صياغة مفاهيم القضية الوطنية بوصفها ثورة معادية للامبريالية العالمية .

وابتداء من هذه النهاية بدأت **مرحلة ثانية** هي مرحلة تثبيت الاستقلال . كانت الثورة قد قطعت شوطا بعيدا ضد مناورات رأس المال الاجنبي في محاولة للتصنيع . لكن من معركة السويس ، انبعثت ، كما يقول عبد الناصر ، احتمالات العمل الثوري غير المحدود . من معركة بور سعيد تأكد اتجاه الثورة انها (ثورة قوى الشعب العاملة التي كانت تدافع عن ارض الوطن) . وبصفة خاصة ، فانه من قاب النار خرجت قرارات تمصير الاقتصاد ، ثم خطة التصنيع الاولى ، والخطة الشاملة لمضاعفة الدخل القومي في عشر سنوات . عندئذ طرح عبد الناصر مفهومه عن اعادة بناء الاقتصاد الوطني . وطالب (باقامة اقتصاد وطني ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه حاجات المجتمع والعمل على اقامة عدالة اجتماعية) . لم يكن يريد ان يصفي او يقضي على الرأسمالية ، فرأس المال الوطني ضرورة لازمة (في هذا الوقت) من اجل تطوير الاقتصاد القومي . وانما كان يطالب بأن تكون القيادة الاقتصادية للدولة ، فلقد عانى كثيرا من فروغات رأس المال الكبير في مجالات التنمية الاقتصادية المقترحة . لم يرفض ، بل طلب مساهمات رأس المال الاجنبي ورأس المال المحلي الكبير . وطلب معونة البلدان الاشتراكية . كانت اعتبارات التنمية الملحة تدعوه لطرق كافة الابواب المحتملة لتمويل هذه التنمية . فلقد توصل الى فهم دقيق لموضوع التنمية بوصفها (الصيغة المحققة للتقدم في جميع نواحيه) . وهكذا طرحت قضية تثبيت الاستقلال ، بوصفها قضية كسب الاستقلال الاقتصادي ، قضية بناء اقتصاد وطني حديث ، قضية التنمية الاقتصادية . وعندما فشلت تماما كافة محاولاته لجذب رأس المال الاجنبي ورأس المال المحلي الكبير، بحيث غدت التنمية في خطر ، كانت قرارات يوليو ١٩٦١ .

وبدأت **مرحلة ثالثة** واخيرة في فكر عبد الناصر ، هي مرحلة التحول الاجتماعي . فمن واقع معركة التنمية الاقتصادية كان لا بد ان تدخل الثورة في صراع اخير لتصفية مراكز رأس المال الاجنبي ورأس المال المحلي الكبير . ومن واقع معركة التنمية الاقتصادية كان لا بد ان تطرح قضية التوزيع بعد طرح قضية الانتاج . يقول عبد الناصر نفسه (لقد ادركنا بوضوح ان التنمية لا بد ان تقترن بالتوزيع) . هكذا طرحت القضية الاجتماعية وهكذا اكتسبت الثورة مضمونا اجتماعيا واضحا . ومن ثم دخل دنيا التحولات الاجتماعية الفسيحة من باب التنمية الاقتصادية . ومنذ ذلك الحين صارت التنمية الاقتصادية محور الحياة السياسية نفسها . وتحددت ابعاد العمل الثوري ، وسار في اتجاه فكري موحد ، اخذ يزداد نضجا منذ صياغة ميثاق العمل الوطني . وبعد ان كان العمل الثوري يبدو وكأنه رد لفعل خارج عنه ، صار فعلا له منهج واهداف واساليب عمل وصيغ تنظيمية .

لقد فرض الحل الاشتراكي نفسه بغير بديل كطريق للتقدم الاقتصادي والاجتماعي . واذا كان عبد الناصر قد اخذ بالطريق الاشتراكي للبناء ، فان (الاشتراكية لا يمكن ان تكون الا اشتراكية علمية) . وهذه الاشتراكية العلمية هي اشتراكية واحدة، هي الغاء استغلال الانسان للانسان ، وازالة المجتمع المتعدد الطبقات (تقريب الفوارق بين الطبقات بالقضاء على هذه الطبقات) . ومن ثم فلا بد من بناء مجتمع جديد هو مجتمع الكفاية والعدل ، الذي يفترض مرحلة انتقال تقضي على الطبقات، وتصفي التفكير الطبقي بالاعتماد على قوى الشعب العاملة وبخاصة الفلاحين والعمال والتسليم بذور الرأسمالية الوطنية . بعدها يتم الانتقال الى الاشتراكية التي هي (طريق لا نهاية له) .

هكذا نما فكر جمال عبد الناصر ونضج من خلال نمو الثورة المصرية ونضجها . فالثورة المصرية التي بدأت مجرد ثورة وطنية قد تحولت من ثورة وطنية الى ثورة اجتماعية اي الى ثورة وطنية ذات مضمون اجتماعي . وذلك هو طابع الاستمرار في هذه الثورة . وهذا الاستمرار هو الذي يميز ايضا فكر وعمل جمال عبد الناصر وصنع طول نفسه الثوري ولهذا يقول عبد الناصر (ان هذه الثورة المستمرة هي سبيلنا الى بناء بلدنا ، وهي سبيلنا الى ان نعوض ما فات) . لم تعد الثورة المصرية تكتمل الا باعادة بناء مصر اجتماعيا . وعلى الرغم من التضارب بين طبيعة كل من الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، فلقد اصبحتا ثورة واحدة مستمرة تنجز اهدافها بالقضاء على الظلم الاجتماعي والاستبداد الطبقي . وهكذا بعد الاستيلاء على السلطة اصبح الاحتفاظ بها مطلوبا لاجراء تغيير اساسي لنظام المجتمع . وهنا نلمس الاحساس العميق بعامل الزمن ، اي بالحتمية التاريخية . فالضرورة الموضوعية هي التي حكمت استمرار الثورة وتحولها من ثورة وطنية الى ثورة اجتماعية .

فالواقع اننا نشهد تحولات هائلة في البلدان التي كانت مستعمرة او شبه مستعمرة . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، اطردت حركات التحرر الوطني لتصبح ظاهرة عالمية بارزة . ومن ثم اندمجت الثورة الاشتراكية العالمية مع الثورة العالمية لتشكلا تيارا ثوريا واحدا يرمي الى التصفية الكاملة لنظام الاستعمار العالمي ولنظام الرأسمالية العالمي . ولقد ظهرت الى الوجود مجموعة البلدان التي استقلت حديثا . وبعد كسب الاستقلال السياسي ، تواجه هذه البلدان مهمة تثبيت الاستقلال الوليد وذلك بالسعي لكسب استقلالها الاقتصادي وبناء اقتصادها الوطني المستقل . ان هذه المهمة تتخذ عندئذ صورة السعي لانجاز تنمية اقتصادية تقضي على التخلف الموروث الطويل الأمد ، عن طريق الاصلاح الزراعي، وبدء عملية التصنيع ، وازاحة الاحتكارات الاجنبية ، واقامة قطاع للدولة ، والسعي لرفع مستوى المعيشة للطبقات الكادحة . ويكون امام هذه البلدان الفتية طريقان لا ثالث لهما لاحداث تلك التنمية. فهناك طريق التطور الرأسمالي المألوف بكل ما يحف به من مخاطر وآلام، مخاطر استمرار التبعية للاقتصاد الرأسمالي العالمي ، وآلام الاستغلال المفروض على عاتق الطبقات الكادحة . ولهذا يبدو طريق التطور الرأسمالي وكأنه طريق مسدود . وهناك طريق اخر هو طريق التطور غير الرأسمالي ، الذي يتخذ ما يلزم من اجراءات التنمية والاقتصاد الوطني في مواجهة الطبقات الاجتماعية الرجعية المتخلفة ومراكز السيطرة الاقتصادية الاستعمارية . ومن شأن الطريق غير الرأسمالي ان يسعى بالضرورة لتحسين مستوى معيشة الطبقات الكادحة ، حتى تشارك غيرها في التمتع بثمار الاستقلال ، وفي الوقت ذاته لتأمين مشاركة هذه الطبقات في اتخاذ القرارات الحاسمة بالنسبة لمصير بلادها . ولهذا يتميز الطريق غير الرأسمالي عن الطريق الرأسمالي ليس فقط بطبيعة الاجراءات الاقتصادية التي تتخذ تحت اسم التنمية ، وانما كذلك وبصفة اهم بطبيعة السلطة السياسية في الدولة . ان السلطة في الطريق غير الرأسمالي يجب ان تستقر في ايدي تحالف الطبقات الثورية ذات المصلحة في استمرار الثورة ، وبخاصة العمال والفلاحين وممثليهم من المثقفين الثوريين . ولقد دلت التجربة في البلدان الفتية على ان السلطة الثورية تقع في العادة في ايدي تحالف من البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة والطبقة العاملة . ونظرا لفشل التجارب التي قادتها البرجوازية الوطنية ، ونظرا لغلبة البرجوازية الصغيرة في التركيب البشري للبلدان الفتية، ونظرا للضعف الكمي والنوعي للطبقة العاملة ، فان قيادة التحالف غالبا ما تقع في ايدي البرجوازية الصغيرة وممثليها من المثقفين الثوريين . ولهذا تكون السلطة في العادة هي سلطة الديمقراطية الثورية للبرجوازية الصغيرة. ولقد بحث لينين بعد ثورة فبراير امكانية قيام ديكتاتورية الديمقراطية الثورية للبرجوازية الصغيرة في روسيا باستخدام سوفيتات نواب العمال والجنود كوسيلة لتمكين الثورة البرجوازية الديمقراطية من التطور الى ثورة اشتراكية في ظروف بلد فلاحي متخلف ، وذلك عن طريق وقف عملية التطور العضوي للرأسمالية . ومع التسليم باختلاف ظروف روسيا عندئذ عن ظروفنا الحالية ، فان البرجوازية الصغيرة لم تستطع هناك القيام بهذه المهمة موضوعيا . وعلى العكس من روسيا ، توجد حاليا الظروف التي تسمح بقيام هذه السلطة في البلدان الفتية ، وبخاصة حيث تتبنى العناصر المتقدمة من البرجوازية الصغيرة افكار الاشتراكية وتطمح الى صياغة اشتراكية للمجتمع .

وفي ظل السلطة الثورية للبرجوازية الصغيرة ،

المعادية للاقطاع والاستعمار يكون موطن الضعف الرئيسي هو تقة جماعات البرجوازية الصغيرة في الرأسماليين .

ويصبح من الضروري حسم الموقف من الرأسماليين ، على النحو الذي تم في الجمهورية العربية المتحدة منذ يوليو ١٩٦١ . ومع ذلك تظل اوهام البرجوازية الصغيرة قائمة حول امكانية التوافق الطبقي والتعاون مع البرجوازية في حكم الدولة ، ولا يمكن التغلب على هذه الاوهام الا من خلال التجارب العملية وحدها . فهنا لا تجدي النظريات ولا النصائح مهما يكن صدقها واخلاصها. لكن الخطير في الامر هو قدرة البرجوازية عندئذ على التستر خلف اوهام البرجوازية الصغيرة للسيطرة على الاقتصاد والسياسة في الدولة . ولهذا فان مسؤولية الطبقة العاملة وممثليها تتمثل بالضرورة في الوقوف موقف الحليف الثابت للبرجوازية الصغيرة ، والسعي بصبر ودأب للتغلب على اوهامها ومخاوفها من خلال التجربة العملية . ولعل على رأس هذه المخاوف موقف العداء الذي قد تتخذه من الطبقة العاملة وممثليها ونظريتها . فمثل هذا العداء عداء ذاتي لا موضوعي ، ليست له ارضية موضوعية من مصالح الطبقتين الثوريتين بوصفهما طبقتين غير مستقلتين وانما هو ينبني في الاساس على اعتبارات ذاتية . هو عداء مفتعل . ومع التسليم بان هذا العداء قد يتحول من تناقض ثانوي الى تناقض رئيسي ، الا ان الطبقة العاملة مطالبة بالا تقع هذا الموقع،وان تتخذ من المواقف ما يجرد البرجوازية الصغيرة من مخاوفها الذاتية ، فان الطبقة العاملة لا يمكنها ان تنجز الاشتراكية دون التحالف الوطيد مع جماهير البرجوازية الصغيرة وبخاصة الفلاحين .

والناصرية ، أن صح هذا التعبير ، هي مجموعة المفاهيم الثورية التي اعلنها جمال عبد الناصر تعبيرا عن الثورة التي قادها اكثر من ثمانية عشر عاما . واذ جمع في شخصه بين المناضل والمفكر ، فانه يمكن القول بان الناصرية هي نظرية للبرجوازية الصغيرة عن الثورة الوطنية الديمقراطية في عصر الانتقال على النطاق العالمي من الرأسمالية الى الاشتراكية. انها نظرية للثورة الوطنية المستمرة التي تكتسب مضمونا اجتماعيا صريحا ، ومن ثم تقطع مراحل ثلاثا واضحة هي مرحلة كسب الاستقلال ثم مرحلة التنمية الاقتصادية ثم مرحلة التحول الاجتماعي . انها نظرية للثورة الوطنية والعداء السافر للاقطاع والاستعمار والرأسمالية الكبيرة . انها نظرية للقضاء على التخلف الموروث من اجل التنمية الاقتصادية الشاملة . انها نظرية للتحول الاجتماعي والطموح الى بناء الاشتراكية . انها نظرية للتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والوحدة القومية .

لكنها لم تتخلص بعد من اصولها البرجوازية الصغيرة ، ومن ثم كانت تنطوي على تناقضاتها . ولعل اخطر هذه التناقضات جميعا قيامها منهجيا على التجريب والانتقاء .

فقد اعتمدت هذه النظرية على برهان التجربة والخطأ ، على منطق التجربة والممارسة . وتقدمت النظرية مستفيدة من تجربتها ، مع ما انطوت عليه من خسائر فادحة احيانا . وظل هذا المنهج سائدا حتى وضع الميثاق . ومن ثم استطاع جمال عبد الناصر ان يقول (لقد حققنا شيئا هاما كانت له كل الفائدة في الوصول بمرحلة التحول العظيم الى قرب نهايتها . هذا الشيء الهام هو الوضوح الشامل . لم تعد جزئيات المشاكل امامنا معارك متفرقة واصبحت الكليات مرتبطة متماسكة تكاد تكون في متناول ايدينا قوانين للحركة الاجتماعية والسياسية) .

كذلك اعتمدت النظرية على منهج الانتقاء . ومع ان الميثاق يعتبر الحل الاشتراكي حتمية تاريخية ويرفض اعتباره اختيارا انتقائيا ، الا ان جمال عبد الناصر كان حريصا على تمييز اشتراكيته التي يعلن انها اشتراكية علمية عن الاشتراكية الماركسية اللينينية .

مثال اول : (فالماركسية اللينينية لا تعترف بالدين ونحن نعترف بالدين وبالله) . ومع ذلك فهو صريح في موقفه من الدين . (الاسلام عقيدة يؤمن بها الشعب العربي فلا بد للرجعية ان تتستر بالاسلام وتتمسح بالاسلام زي الاخوان المسلمين عملاء الاستعمار) . (لقد اتخذوا من الدين ذريعة ليقولوا ان الاشتراكية ضد الدين) .

مثال ثان : (الماركسية اللينينية تطالب بالانتقال من دكتاتورية الرجعية الى دكتاتورية البروليتاريا التي هي دكتاتورية طبقة ما . ونحن لا نقول بأن تنتقل الدكتاتورية من طبقة الى طبقة والا فسندخل في حرب اهلية . فنحن ننتقل من دكتاتورية الرجعية الى ديمقراطية الشعب اجمع) .

مثال ثالث : (الماركسية اللينينية تطالب بهدم الطبقة المستغلة بعنف واستئصالها . ونحن نقول اننا نحل مشاكلنا بدون اراقة دماء ونتيح لهذه الطبقة او لافرادها فرصة العيش الكريم) . هنا يرفض عبد الناصر دموية الصراع الطبقي ، مع تسليمه بحتمية هذا الصراع وموضوعيته ، ويدعو لحل التناقضات الموجودة بالوسائل السلمية لا بالعنف او القوة .

مثال رابع : (الماركسية لا تؤمن بالملكية الخاصة . ونحن نقسمها الى ملكية غير مستغلة وملكية مستغلة . ونحن ضد الملكية المستغلة) .

مثال خامس : (الماركسية والشيوعية تنص على تأميم الارض . واشتراكيتنا لا تنص على تأميم الارض بل تؤمن بالملكية الفردية في الارض في اطار من التعاون) .

وعلى الرغم من هذا التفريق بين الاشتراكيتين ، فان جمال عبد الناصر لا يتردد في اعلان حقيقة جوهرية هي وحدة الاشتراكية وعدم تعددها . (انا في رأيي ان الاشتراكية واحدة ولكن يختلف التطبيق فيها باختلاف المكـان) .

وفي النهاية فان الناصرية قد سمحت من خلال التجربة العملية بان تكشف عن امكانيات هائلة في ثورات التحرر الوطني المعاصرة . ويحلو لي ان اذكر بهـذه الامكانيات التي سبق لي التنبيه اليها في مناسبات عديدة وهـي :

اولا ـ امكانية استمرار الثورة الوطنية وتحولها الى ثورة اجتماعية .

ثانيا ـ امكانية تحول القادة الوطنيين وهـم في قمة الحكم الى المواقع الفكرية للاشتراكية .

ثالثا ـ امكانية تبني طبقات اجتماعية اوسع من الطبقة العاملة لقضية الاشتراكية .

رابعا ـ امكانية بدء التحول الى الاشتراكية بغير قيادة الطبقة العاملة .

خامسا ـ امكانية قيام مرحلـة انتقالية الـى الاشتراكية تكون في ذاتها مجموعة من المراحل الانتقالية الى الاشتراكية تكون في ذاتها مجموعة من المراحـل الانتقالية تنطوي على اصلاحات لها طبيعة ثورية .

سادسا ـ امكانية قيام سلطة البرجوازية الصغيرة الثورية بتحالف ما مع البرجوازية الوطنية والطبقة العاملة وامكانية تطوير هذه السلطة ببناء حزب طليعي موحـد للاشتراكيين على اساس الاشتراكية العلمية .

انها جميعا امكانيات تفترض شروطا وظروفا مؤاتية والا فانها لا تتحقق . وفي مقدمة هذه الشروط والظروف جميعا حركة الجماهير ويقظتها ونضجها للمشاركـة الفعالة في حكم بلادها .

القاهـرة

فؤاد مرسي

دار الآداب تقـدم

الثقافة والثورة

مقـالات في النقـد

بقلـم

محمود أمين العالم

« طوال العشرين سنة الماضية ، احتدم في الوطن العربي كله صراع حول نظرية في النقد الادبي او النقد الثقافي بوجه عام ، كان مداره طبيعة العلاقـة بين الثقافة ـ من ادب وفن وفكر ـ وبين متطلبات الثورة التحريرية والاجتماعية والقومية . علـى انه ـ في الحقيقة ـ كان تعبيرا عن صراع اعمق ، هـو الصراع الطبقي في مجتمعاتنا العربية كلها ..

... ولعل هذا ما دعاني الى التفكير في تجميع طائفة متنوعة من المقالات شاركت بها في هذا الصراع تحديدا لملامح تلك النظرية النقدية التي ليست هـي ـ ببساطة ـ الا دعوة الى تنمية الثقافة الثورية العربية باعتبارها امتدادا وتطويرا لاشرف ما في تراثنا القومي العريق والـى التعجيل بثورة ثقافية جذرية ، تعمق ثورة التحرير والاشتراكية والوحدة القومية ، وتعيد بناء الانسان العربي بناء حضاريا جديدا ، غير منقطع عن اشرف ما في تراثه القديم ، غير معزول عن حقائق مجتمعه وعصره . انها دعـوة الـى توظيف الثقافة توظيفا ثوريا في حياتنا ، دعوة الى التخطيط الثقافي بما لا يتناقض مع جمالية الابداع وذاتية الخلق وحرية التعبيـر .. »

من مقدمة المؤلف

صدر حديثا **الثمن ٥٠٠ ق.ل**

الناصرية والمسيرة العربية



ان «نقد الذات» ، بالنسبة للمثقفين العرب ، هو الاساس الضروري لفهم المسيرة العربية .

يطالعنا التاريخ الحديث بظاهرة ارتبطت باهم احداثه وكان لها بالغ الأثر في توجيه مسيرته ، هي ظاهرة القومية الحديثة التي جاءت نتيجة انقسام الجنس البشري الى عدد من الامم تبلورت شخصيتها وتكونت ارادتها واتخذت مكانها على مسرح التاريخ . والملاحظ بوضوح ان الامم لا تبلغ المرحلة التي تتبلور شخصيتها وتفرض وجودها الا بعد كفاح طويل واثر صدمات قاسية احيانا . هذا هو ما حدث بالنسبة للامة الفرنسية التي تبلورت شخصيتها ، وبدأت بذلك الحركات القومية الحديثة كلها ، عندما حاصرها الاعداء من كل جانب في الثورة الفرنسية . وهذا ما حدث بالنسبة للامة الالمانية بعد الهزيمة الساحقة التي انزلها جنود نابليون بالاقطار الالمانية كلها وعلى رأسها بروسيا . وهذا ما حدث ايضا بالنسبة للامة الايطالية بعد ان حطمت قوات النمسا بضربة واحدة الجيوش التي جندتها الاقطار الايطالية بقيادة بيدمونت.

وهذا كذلك هو ما حدث بالنسبة للامة العربية في اعقاب هزيمة جيوش اقطارها الثمانية على يد شراذم الصهيونية .

وفي كل من هذه الحالات كانت الهزيمة بمثابة صدمة اطلقت وعي «الجماهير» من عقاله ، فانتزعت القيادة من قادتها السابقين وهبت تؤكد ذاتها ووجودها وتفرض نفسها على مجرى الاحداث المعاصرة .

وليست الجماهير في هذه المرحلة من مسيرة الامم هي «الغوغاء» و«الدهماء» و«رجل الشارع» الذي لا يعرف الا مصلحته الخاصة الضيقة ولا يعمل الا لاشباع حاجاته المادية الرخيصة ، كما يحب البعض ان يصورها. كما انها ليست مفهوما ميتافيزيقيا او كمًا تصوريا يتألف من طبقات تصارع بعضها كالوحوش ، او كائنا يتجسد في كتلة غير متميزة من الناس بلا فردية ، كما يذهب آخرون. ان الجماهير هي ـ في هذه المرحلة ـ مجموع «الافراد» الذين يؤلفون الامة ويتمتع كل منهم بكيانه الخاص كعضو في هذه الامة ، ولكل منهم قدرة التفكير وارادة التغيير ، ولكل منهم تجربته الخاصة في الحياة . وشخصية الامة عندما تتبلور هي خلاصة هذه التجارب جميعا .

هذا هو المفهوم الاساسي في الناصرية ، والقاعدة التي يقوم عليها بنيانها . وهذا هو جوهر المرحلة الراهنة من مسيرتنا ـ مرحلة انطلاق وعي الجماهير العربية وبلورة شخصية الامة العربية .

ان الناصرية في صميمها هي التعبير الحي عن الارادة الواعية لملايين الافراد الذين تتألف منهم امة تنضج وتفرض وجودها ، وسر نجاحها هي انها ادركت قيمة كل فرد في هذه الملايين فتركت اثرا في كل واحد منهم . وهكذا دخلت كل بيت عربي وتحولت في وجداننا كعرب الى «فكرة» استوعبها كل منا بقدر ـ وان اختلف معها بعضنا . فالناصرية تجربة شخصية عاناها الناس العرب كافراد وعانتها الجماهير العربية في صورة تحقيق مادي ملموس لمطالب وآمال يحسها كل العرب تقريبا .

وهذه الحقيقة هي التي جعلت الناصرية موضع قبول على نطاق واسع ، لا في الوطن العربي وحده ، ولكن بين اعداد متزايدة من شعوب البلاد النامية الاخرى بشهادة

الاصدقاء والاعداء . وهي التي دفعت اصدقاء الشعوب في كل مكان الى الاستماتة في صداقتهم لها ودفعت الاعداء الى الاستماتة في عدائهم لها . فهي الدليل الحاسم على يقظة الضمير العربي وظهور الارادة العربية كعامل فعال على مسرح التاريخ ، وبها ثبت للعالم ان مسيرة الامة العربية قد بلغت مرحلة التأثير الايجابي في الاحداث ، وانها لا بد ان تغير موازين القوى في عالمنا المعاصر وهي تحقق اهدافها الاجتماعية والقومية . وهذا وحده هو التفسير المنطقي للاهتمام البالغ في كل عواصم العالم الكبرى بما يجري هنا ، وبكل بادرة تصدر من جانبنا - والا فما معنى تلك الصيحات الهستيرية التي تتردد اصداؤها في الدوائر الاستعمارية والامبريالية مع كل تقدم نحرزه في تحقيق وحدتنا او كل تصاعد في قوانا ؟ وما سر تطلع الشعوب المناضلة نحو امتنا - حتى ونحن في محنتنا - كلما اشتد بها الامر ؟ ليس هناك من سبب لذلك سوى ان الامة العربية، وقد وضعت الناصرية اللمسات الاخيرة في بلورة شخصيتها وقدراتها ، قد حددت موقفها الى جانب نضال الشعوب من اجل الحرية في كل مكان .

وما كانت الناصرية لتستوعب كل تلك الطاقات الخلاقة في امتنا لولا انها من صنع الجماهير نفسها في مسيرتها نحو الوعي بذاتها وتأكيد وجودها كأمة متميزة خصها التاريخ ، كما خص غيرها من الامم ، بسمات تفردت بها . وعلى كل من يريد ان يحدد ابعاد الناصرية بالنسبة للمسيرة العربية ان يتناولها بوصفها ، اولا وقبل كل شيء اخر ، مرحلة وعي الجماهير العربية ، المرحلة التي بدأ فيها العرب يصنعون تاريخهم بارادتهم الواعية.

اننا اليوم نصنع تاريخ امتنا ، نصنع بارادتنا تاريخ هذه المنطقة من العالم التي تنتمي اليها امتنا ، ومن ثم فنحن نشترك -عن وعي- في تحديد مسيرة التاريخ البشري كله . ولم يكن التاريخ يوما من صنع افراد مهما كانوا عظماء وعباقرة . فهم قد يبلغون ، كما بلغ عبد الناصر ، مكانة لا تدانيها مكانة اخرى في النفوس . وقد نطلق اسماءهم على مراحل بأكملها من التاريخ ، ولكن بوصفهم رموزا لها وليس لأنهم صنعوها . ان صناع التاريخ هم الجماهير وليسوا العظماء والعباقرة او الصفوات المختارة من المثقفين .

وما كان عبد الناصر يستحق منا ان ننسب الى اسمه هذه المرحلة من تاريخنا ، مرحلة وعينا كجماهير نصنع مجتمعنا بارادتنا ، الا لانه ادرك هذه الحقيقة كاملة واستوعبها تماما وقام بالدور الذي تتطلبه بلا زيادة ولا نقصان - فلم يدع لنفسه حقا في القيادة والتوجيه . لقد كانت العبارة التي لم يمل من ترديدها يوما «ان الشعب هو القائد ... ان الشعب هو المعلم» . ونحن نعلم جميعا ان صفة عبد الناصر الاولى كانت الاخلاص فيما يفعل والايمان العميق بما يردد من شعارات .

لقد ادرك زعيمنا خصائص هذه المرحلة من تاريخنا واحس بنبض الجماهير واتجاهاتها وربط حياته كلها بها وجعل من نفسه منفذا لارادتها وحدها ، وليس وصيا عليها او مربيا لها .

وسيبادر غير الناصريين الى توجيه تهمة «الذيلية» (وهي مصطلح يستعمله البعض بمعنى السير وراء الجماهير ، لا أمامها كما يجب على «الطليعة») الى الناصريين الذين يؤمنون بقيادة الجماهير بهذا المعنى . ولا اظن الناصريين سيحاولون دفع هذا الاتهام ، بل لعلهم سيفخرون بانهم كانوا دائما ، وسيظلون ابدا ، جزءا من الجماهير يعملون باخلاص من مواقعهم ايا كانت - سواء في مقدمتها حيث تضع السياسات المنفذة لارادتها او في مؤخرتها يدفعون معها الطعنات التي توجه اليها من الخلف .

ان مفهوم تحالف قوى الشعب العامل الذي صاغته الجماهير الناصرية من وحي تجربتها ومعاناتها لا يفرق بين مقدمة ومؤخرة في النضال من اجل تحقيق الوحدة والرفاهية للعرب كلهم والكرامة لكل انسان عربي . وقد تكون الصيغة التنظيمية لهذا المفهوم في حاجة الى مزيد من البلورة بحيث تتيح اوسع مجال ممكن للمثقفين والتكنولوجيين من ابناء امتنا للاسهام في بناء قواعد الدولة العصرية واقامة صرحها من اجل المستقبل العربي. وليس في اعادة النظر فى الصورة التنظيمية ما يتنافى مع جوهر الناصرية ، فالتنظيم في الفكر الناصري هو اولا واخيرا وسيلة يعبر بها الناس بصورة مباشرة عن افكارهم وتطلعاتهم وآمالهم وتتحدد بها رغبات الجماهير وتتحقق ارادتها . ولكن كل ذلك يظل دائما بشرط لا غنى عنه ، هو ان يدرك ان المرحلة التي بلغناها من كفاحنا هي مرحلة وعي الجماهير ، مرحلة الناصرية ، وان الشعب هو الان ، وسيظل ما بقيت الامة ، القائد والمعلم وحده دون غيره ، وانه لم يعد في حاجة الى وصاية تفرض عليه او الى من «ينوبون» عنه في توجيه مصائره .

ان الطريق ما زال طويلا وآفاق النصر دونها عقبات غير هينة ، وامتنا في مستهل مرحلة تأكيد ذاتها ، وليس هناك ما هو أخطر علينا من ان نسيء فهم انفسنا .

* * *

لقد حاول الانسان عصورا طويلة «فهم» العالم الذي يحيط به ، ولم يبدأ في محاولة «تغييره» الا منذ بداية العصر الحديث - وهي الظاهرة التي كان اول من تنبه اليها كارل ماركس ، بعد ان بدأت فى الغرب باكثر من ثلاثة قرون ، وحاول ان يضع لها المبادىء والقوانين .

وقد بدأ العرب -كعرب- يتلمسون طريقهم الى «فهم» العالم الحديث منذ بداية القرن الماضي تحت تأثير الغزو الاوروبي لبعض اراضيهم . وبدأوا يعملون على

«تغيير» عالمهم بزعامة عبد الناصر منذ اول النصف الثاني من القرن العشرين عندما بلغت جماهير الامة العربية ــ في اعقاب حربين عالميتين وتطورات تكنولوجية ضخمة ــ مرحلة الوعي الارادي .

فالتاريخ العربي الحديث والمعاصر ، مثل كل تاريخ حديث ومعاصر آخر ، هو قصة مولد «وعي» العرب ونموه ، من بدايات متفرقة هنا وهناك في تلك البقعة من الارض التي يسكنها الناطقون بالضاد الى مسيرة ضخمة تجتذب انظار العالم وتتكتل ، معها او ضدها ، قوى الصراع البشري المعاصر كلها .

وكانت هذه البدايات الاولى بمثابة بحيرات صغيرة تجمعت فيها قطرات الوعي الفردي ثم خرجت منها قنوات ضيقة من الوعي النامي لا يلبث بعضها ان يختفي ، فهو لا يستطيع مغالبة القوى المضادة، ولكن البعض الاخر يستمر في صلابة لتتكون منه روافد تتجمع وتتقارب لتصب في ذلك النهر الكبير من الوعي القومي العربي الذي يكمل مسيرته ، متحديا قوى الردة والعدوان ، صانعا على جانبيه التقدم والحرية والحياة ، وتتردد في جنبات واديه وقع خطوات الانسان العربي يؤكد في ثقة وثبات وبالدليل المادي الملموس ارادته ووعيه . انه الوعي العربي يتفتح امام اعيننا خطوة فخطوة ، والارادة العربية تنطلق من عقالها امام نظرنا يوما بعد يوم ، في مسيرة طويلة تندمج في نهايتها الامة العربية في ذلك المحيط البشري الواسع بعد ان تؤكد ذاتها وتسهم في التراث البشري بما هي جديرة بالاسهام به .

* * *

لقد بدأت المسيرة العربية في اوائل القرن الماضي بانتفاضات محلية في بعض المناطق التي احتلها الغربيون في مصر والجزائر وفي كل مكان من ارض العرب وقع فريسة الاحتلال . ولم يكن في هذه الانتفاضات ما ينطوي على معنى قومي ، بل ولا حتى على معنى وطني اقليمي واضح ، ولكنها كانت حركات تلقائية ضد دخيل من غير «الملة» . وتزعم هذه الحركات نفر يغلب بينهم رجال الدين ، وكان من الطبيعي الا تنطوي مثل هذه الحركات ــ التي تكاد تكون ظاهرة عامة في بداية كل حركات البلاد النامية التي وقعت فريسة للاحتلال الغربي ويطلق عليها الدارسون مصطلح «حركات المقاومة الاولية» ــ على اي مضمون اجتماعي باستثناء بعض المفاهيم التقليدية التي اختلط فيها الحنين الى الماضي الكريم بالمشاعر والاحاسيس الدينية . فهي في جوهرها فورات سلبية ليس لها من هدف سوى المحافظة على الاوضاع القائمة ، ومن بينها الامتيازات الخاصة التي كانت تتمتع بها بعض الزعامات الدينية في ذلك الوقت ، في مواجهة «التغيير» الذي جاء المستعمر يفرضه .

ولكن هذا الصدام الذي حدث بين الدخيل وابناء البلاد ، والذي انتهى في معظم الحالات بهزيمتهم امامه ، دفع بعض العرب ممن لديهم شيء من سعة الافق الى التفكير في الاوضاع المتحجرة التي تعيش فيها بلادهم وأتاح الفرصة لعقد المقارنات بينها وبين الحضارة المتفوقة التي جاءت تدوس ارضهم عبر البحر .

وتمخض التفكير والمقارنة عن عدة دعوات اصلاحية تهدف الى احياء الثقافة «العربية ــ الاسلامية» وتنقيتها من الادران لاستعادة الامجاد الماضية . وشيئا فشيئا نمت بواكير الوعي ، وفي الربع الاخير من القرن ظهرت في عدد من الاقطار العربية حركات من نوع مختلف ضد اضطهاد «الحكام» فيها وسلطانهم المطلق . وبدأت تظهر حوالي هذه الفترة بعض المفاهيم السياسية الغربية بين دعاة الاصلاح ، كما ظهر من ابناء البلاد من احسوا بأنهم ينتمون الى مجتمعات متميزة حتى عن المجتمعات الاسلامية الاخرى . وهكذا ولدت بذور القومية الاقليمية في بعض انحاء الارض العربية في مواجهة المحتلين الاوروبيين .

وفي هذه الاثناء كان المشرق العربي ، الذي ظل في مجموعه ساكتا لوقوعه تحت سيطرة مستعمر لم يعتبر «اجنبيا» لانه كان من نفس الدين ، وقد بدأ يتململ بعد ان تسربت اليه هذه المفاهيم بدوره وسرت اليه ايضا عدوى القومية في مواجهة «القومية الطورانية» التي كانت قد بدأت تعلن عن وجودها لدى المستعمر التركي .

وقد حدثت كل هذه التطورات بقيادة راقات المثقفين العرب ، من الزعامات الدينية في مبدأ الامر ، ثم من المثقفين ذوي الاتجاه العلماني الذين اتصلوا بالحضارة الغربية بدرجات متفاوتة ونمت لديهم بذور تلك الظاهرة التي قيض لها ان تغير مسيرة التاريخ البشري ــ ظاهرة «القومية الحديثة» ــ وتملكتهم الرغبة في تأكيد ذواتهم كقادة «لامة» ناهضة .

وحوالي مطلع القرن الحالي بدأت موجة الوعي النامي في البلاد العربية تتبلور في صور اكثر وضوحا وترتبط اكثر فاكثر بمضامين سياسية واجتماعية من النوع السائد في الغرب . ومنذ ذلك الوقت ظهرت على مسرح الحركة العربية تلك الفئة من المثقفين «السياسيين» الذين كان لهم دور كبير في التطورات التالية للمسيرة العربية . وكان تأثير الاحتلال الغربي علينا مزدوجا ، فهو لم يقتصر على اثارة المشاعر الوطنية التي تنطوي على مفاهيم اجتماعية وسياسية جديدة فحسب ، بل انه عمل في نفس الوقت على تأكيد انحراف هذه المشاعر عن مسارها الاصلي بخلق كيانات سياسية حصرت داخلها هذه المشاعر فولدت مشوهة وساعدت على بذر بذور انفصال قادة حركات الكفاح عن الجماهير العربية التي كانت اقل التصاقا بالكيانات السياسية الجديدة من قادتها المثقفين السياسيين . فقد نما لدى المثقفين العرب عموما ، بحكم تأثرهم اكثر من غيرهم بالمفاهيم الاوروبية،

الشعور القومي العلماني اسرع مما نما لدى الجماهير وفي انعزال عنها الى حد كبير . ولم يجدوا من الكيانات السياسية «الجاهزة» التي يربطون بها مشاعرهم القومية في ذلك الوقت سوى تلك الكيانات الجديدة التي هيأها لهم المستعمر وعمل على تثبيتها باكتشاف « الحضارات القديمة» ـ الفرعونية والفينيقية والبابلية ـ لكل منها والحط من شأن الحضارة الكبرى التى دمجتها جميعا اكثر من الف عام . بل انه سعى جاهدا حتى يدخل في روع المثقفين العرب ان الحضارة العربية هي السبب في تخلف بلادهم بعد الامجاد الفرعونية والبابلية والفينيقية، ثم اضفى على الكيانات التي خلقها «الشخصية الدولية» بمنحها «الاستقلال» . ووقع مثقفونا وبخاصة «السياسيون» منهم، في الفخ الذي نصبه لهم المستعمرون الغربيون وساقوا وراءهم اعدادا متزايدة من الجماهير التي كانت تثق فيهم باعتبارهم زبدة ابنائها وخلاصة مجتمعها ، وان ظلت الاغلبية الساحقة من الناس تحس بأنها تنتمي الى ما هو اكبر واعظم من هذه الكيانات المصطنعة ولكنها لم تكن قد بلغت بعد تلك الدرجة من الوعي التي تستطيع معها بلورة ارادتها بنفسها والتعبير عنها بصورة فعالة .

وكان من الطبيعي في هذه المرحلة من المسيرة العربية ان يعتمد المثقفون السياسيون على المفاهيم الغربية في تنظيم انفسهم فنقلوا عنها ـ دون فهم كامل لجوهر ما ينقلون ـ نظام «الاحزاب المتعددة» باعتباره افضل النظم «والدليل على النضج والتقدم» .

وقد يكون نظام تعدد الاحزاب ملائما في المجتمعات المستقرة التي تريد تطور ذاتها في هدوء ودون مؤثرات خارجية قوية وعندما يكون الغرض من التنظيم السياسي هو تحقيق تغييرات اجتماعية معينة ، او المحافظة على اوضاع اجتماعية قائمة . اما عندما تكون القضية المطروحة ليست مجرد تحقيق الاهداف الاجتماعية بل تأكيد وجود الامة نفسها ، او حتى تحقيق «الاستقلال» في النطاق الاقليمي الضيق ، يصبح نظام الاحزاب بطبيعته مناقضا للهدف منه . فالغرض من الحزب ، اي حزب ، هو الوصول الى «الحكم» في ظل سيطرة الاحتلال المسلح لا يمكن ان يؤدي الى تنفيذ اية سياسة الا تلك التي يرضى عنها الاحتلال . وبذلك يصبح نظام الاحزاب والحكم النيابي باكمله مجرد مهزلة يلهي بها المستعمر ابناء البلاد المحتلة عن مطلبهم الاصلي . فضلا عن ان النظام الحزبي يحول جزءا كبيرا من جهود المثقفين في البلاد النامية الى الكفاح من اجل الوصول الى الحكم ، ثم الاحتفاظ به بعد الوصول اليه ، ويؤدي بالضرورة الى الانشقاق في صفوفهم والعداء بينهم بحيث يجعلهم جميعا فريسة سهلة لعدوهم الاصلي .

وهذا هو ما حدث فعلا في معظم البلاد العربية ، ولولا الفورات الجماهيرية المتوالية والصدامات الدامية بينها وبين المحتلين لما تحقق حتى ذلك «الاستقلال» الاقليمي المصطنع الذي فرضه المثقفون السياسيون كهدف على الجماهير في الاقطار العربية المختلفة .

واذا اردنا ان نضع «كشف حساب» لمكاسب وخسائر هذه المرحلة من مسيرتنا ، التي قاد الكفاح العربي فيها المثقفون ، والسياسيون منهم بصفة خاصة ، وفرضوا فيها وصايتهم على الجماهير العربية ، لهالنا الامر .

اولا : من الناحية الاجتماعية ، لم يحدث اي تقدم في اوضاع الجماهير المسحوقة ، فقرا وجهلا ومرضا وكرامة ، بل ان الحال ظل يزداد سوءا يوما بعد يوم بظهور فئات «المنتفعين» الذين انضموا الى المستغلين في استغلال الكادحين والى المضطهدين في اضطهاد المكافحين من اجل لقمة العيش ، وشهدت البلاد العربية لاول مرة في تاريخها جيوش المتعطلين تتجول في انحاء مدننا وريفنا بحثا عما تسد به الرمق في صورة يتندى لها جبين الانسانية ذاتها . وخنقت في مهدها تلك الصيحات القليلة المتناثرة التي ارتفعت تطالب بأقل قدر من العدالة الاجتماعية والتخفيف من حدة هذا الهوان البشري .

ثانيا : من الناحية السياسية ، تبلورت التنظيمات السياسية في معظم البلاد العربية على اسس ومفاهيم اوروبية تماما ولم يبذل اي مجهود لتحويرها حتى تلائم التربية العربية ، وكانت النتيجة الحتمية ان ابعدت الجماهير عن كل مشاركة في الحياة السياسية ، وبالتالي عن مجرد حق ابداء الرأي فيما يتصل عن قرب او بعد بمصيرها وحقيقة تطلعاتها وآمالها ، وصارت كمًا مهملا وزادت هوانا على هوان .

ثالثا : من الناحية القومية ، كانت هذه المرحلة مرحلة تكريس للكيانات المصطنعة التي عمل المستعمر بكل قواه على خلقها . وحتى «استقلال» هذه الكيانات ـ اذا اعتبرناه مكسبا ـ لم يتحقق الا بدماء الجماهير التي حرمت من كل ثمرة لتضحياتها. وعندما بدأت موجة الوعي القومي النامي تفرض نفسها شيئا ما على الاحداث لم تجد راقات المثقفين من العرب من سبيل ـ وقد سد في وجههم طريق الوحدة العربية الشاملة بانفصالهم عن الجماهير ـ سوى «ابتكار» اوطان ذات رقعة اوسع ، فظهرت دعوات مثل وحدة مصر والسودان ووحدة المغرب الكبير . وحتى مثقفو عرب المشرق الذين قامت على اكتافهم بواكير الدعوة التي تحمل الاسم الكبير ـ الوحدة العربية ـ لم يستطيعوا ان يستوعبوا في ذلك الوقت الوطن العربي كله فبدا التيار الغالب في دعوتهم مقتصرا على «عرب المشرق» ، في حين كان آباؤهم وأهلوهم من «الجماهير» يتنقلون بين تونس ودمشق، بين طرابلس الغرب وطرابلس الشرق ، بين القاهرة وبغداد وبيت المقدس ، كما يتنقل المرء في بيته ووطنه وينزلون حيث يطيب لهم المقام

فيعيشون ويتعايشون بصورة لا تتاح الا لابناء الامة الواحدة .

ومما زاد الطين بلة ان ظهرت في نهاية هذه المرحلة، قبيل الحرب العالمية الاخيرة وفى اثنائها ، اتجاهات جديدة لا يمكن ان تقوم الا في البلاد التي تحققت تطلعاتها القومية وتفرغت نهائيا لعلاج مشاكلها الاجتماعية داخل حدود مستقرة . وغفل اصحاب هذه الاتجاهات عن ان المسيرة العربية ما زالت في جوهرها قضية كفاح من اجل الوجود ذاته ، قضية نضال قومي - ذي مضمون اجتماعي محدد ولا شك - ولكنه قومي اساسا يمتزج فيه مطلب الوحدة بالمطالب الاجتماعية امتزاجا لا انفصام فيه

وفي هذه الغفلة استورد مثقفونا «التقدميون» بدورهم مفاهيم وتنظيمات اوروبية اخرى يريدون تطبيقها بلا تعديل ولا تغيير ، وبجهل مدهش احيانا ، في هذه البلاد بصرف النظر عن واقعها وماضيها ومستقبلها ، بدعوى وحدة الكفاح مع القوى التقدمية في العالم ضد اعدائها من الامبرياليين والرجعيين ، وكأنما وحدة الكفاح لا تتأتى الا في صورة محددة تفرض على الجميع . وظهرت في الاقطار العربية «المستقلة» الاحزاب «الطليعية» ودعوات «الصراع الطبقي» وصيحات «وحدة الطبقة» العاملة على الصعيد العالمي .

واختلط الحابل بالنابل وضاعت مطالب الجماهير وتطلعاتها الحقيقية في خضم من الشعارات التي لا معنى لها ولا رابط يربطها بواقع المسيرة العربية .

* * *

وفي اخر الاربعينيات ضاعت فلسطين كنتيجة حتمية للانفصال الذي منيت به الامة العربية - انفصال مزدوج ، بين الاقطار العربية من ناحية ، وبين المثقفين العرب والجماهير العربية من ناحية اخرى .

وكانت الصدمة رهيبة واليمة ، ولكنها فجّرت المرحلة الاخيرة من الوعي العربي بين الجماهير ذاتها .

وقررت الجماهير العربية ، وقد بلغت مرحلة الوعي القومي الحقيقي ، ان تتولى الامر بنفسها - فهي لم تعد في حاجة لمن يتحدث باسمها - واختارت من بين ابنائها اكثرهم ادراكا لهذه الحقيقة واعمقهم اخلاصا لها وجعلته منفذا لارادتها وعلمته اسرار العمل الجماهيري المباشر وقادته على الدرب خطوة خطوة يتعلم منها ويستجيب لنبضها ... حتى اخر رمق في حياته .

وتبلورت من خلال كفاح الجماهير العربية ذاتها في مرحلة وعيها عدة افكار ومبادىء هي في مجموعها ما يطلق عليه العرب اسم «الناصرية» نسبة الى بطل الجماهير الذي مات في موقعه وهو ينفذ ارادتها .

وسارت مصر على الدرب ، ثم انطلقت السودان وليبيا ... واول الغيث قطرة .

عبد الكريم احمد

دار الآداب تقدم

الحب والحضارة

تأليف

هربرت ماركوز

ترجمة مطاع صفدي

يحاول ماركوز الذي يوصف اليوم بانه « فيلسوف » الثورة الجديدة ، ان يبرهن من خلال تراث التحليل النفسي والفلسفة والعلوم الاجتماعية وعلم الجمال على ان «ذلك الاجماع على ضرورة مراقبة غرائز الحياة وتقييد الليبيدو انما كان دائما تعبيرا عن القمع ولمصلحة ارادة السيطرة ، كما كان اداة لاستمرار القمع والسيطرة» . وهكذا يحاول ماركوز ان يقرن التحرر الغريزي بالتحرر الاجتماعي ... انه يرفض التراث الفلسفي الغربي القائم على تمجيد الانتصار والغلبة سواء باسم العقل او باسم ارادة القوة او باسم التقدم . وهو يرفض كذلك في ميدان الاخلاق احتكار الذات الدنيا ، ويعكس الآية فيعتبر ان حيوية الفرد انما تكمن اولا في عضويته ، وان مطالبة هذه العضوية بحق الارتواء الكامل هو اصل السعادة وأصل الحرية وأصل التقدم .

ويرى ماركوز في هذا الكتاب انه اذا ازيل التسلط ، فليس ثمة حاجة الى تقنين الحاجات وكبت الحيوية وقهر سعادة الانسان. فالحضارة التكنولوجية اذا حررت من يد الاستغلال الطبقي استطاعت ان تتيح للانسان مجالا رحبا لارواء حاجاته الحيوية ، وتحول مبدأ الصراع على الوجود ، من دفاع الانسان ضد الانسان بالحرب والقهر والعبودية وردود الفعل العدوانية والانحرافية او الثورية والتجردية ، الى تنمية «تصعيد ذاتي» من نوع جديد تصبح فيه المراقبة القسرية على حرية تحقق الغرائز مراقبة شعورية لمنع قيام نظام جديد من السيطرة والقمع الفردي والاجتماعي .

وهكذا يبني مركوز تفاؤليته على اساس حتمية انقلاب حضارة القمع من داخل بنيتها بالذات صدر حديثا - الثمن : ٦٠٠ ق.ل.

«ثورة ٢٣ يوليو» والأدب العربي

محاولة في ضوء منهج تكاملي

بقلم حسين مروّه

مدخل

من طبيعة الاحداث الكبرى والخطيرة ، في تاريخ الامم والشعوب او تاريخ النهضات الوطنية والحركات التحررية والثورية ، ان تكون اشبه بالمحطات الكبرى في طريق الرحلة الطويلة العنيفة يسترجع عندها الركب شؤون ما انقضى من الرحلة ، ليتعرف قيمة كل منها في ذاته وقيمة كل منها في علاقته مع الشؤون الاخرى ، وليصل من ذلك الى اختبار دقيق او تقريبي لحاصل ما تحقق من مهمات الرحلة واهدافها ، وحاصل ما لم يتحقق منها ، ثم حاصل ما استنفد في المراحل السابقة من طاقات ومن زاد وعتاد ، لكي يعد من ذلك كله ما يضمن له متابعة المسير حتى نهايته المفترضة في منطق الاشياء او منطق التاريخ ، ولكي يرفض من ذلك كله ما قد اصبح عتيقا او فاسدا يعوق المسيرة او يؤخرها او يكون عبئا ثقيلا عليها ، فيستبدل به جديدا يدفع المسيرة بزخم جديد ..

هكذا شأن الركب العربي في رحلته الكفاحية الطويلة العنيفة ، وهكذا ينبغي ان يكون شأننا نحن الكتّاب والنقاد والباحثين الذين نشارك الركب العربي هذا ، او نتابع مسيرته بالاقل ، في طريقه الكفاحي التحرري الثوري .. فلطالما حدثت في تاريخ هذه الرحلة احداث كبيرة وخطيرة كانت تستدعي ان نتخذ منها « محطات » من ذلك النوع لتقويم ما مضى من اشواط رحلتنا على نحو جديد دائما من التقويم الموضوعي بعيدا عن الانفعال الذاتي المحض .. غير ان الامر لم يكن كذلك في كثير من هذه الاحداث الجسام .. ولكي نكون صريحين مع انفسنا ومخلصين لقضيتنا يجب القول انه كثيرا ما كانت الحادثة الكبرى تأتينا وكأنها مفاجئة لم نحسب لها حسابا ، فنستسلم للانفعال بها نفسيا دون ان نفتح لعقولنا باب الرؤية الواقعية العلمية لنعالج اسباب الحادثة ووجوهها المختلفة : القريبة والبعيدة ، الذاتية والموضوعية .. ثم يستأنف الركب العربي رحلته من غير ان يتزود منا بزاد جديد او ان يتعرف منا مكان الخلل في « خريطة » السير ..

وها هو ذا ركب الثورة العربية التحررية يعاني ، في هذه الايام ، حادثا من نوع خاص فوجيء به اروع مفاجأة، وسريعا ما اجفل له الركب وذعر ، ثم تماسك قليلا ، وما يزال يتماسك باناة ليمضي في مسيرته ولا يقف .. فهل لنا هذه المرة ان نجعل من حادث بهذا الحجم في خطره « محطة » نسترجع عندها بعض شؤون المرحلة السابقة من رحلتنا الكفاحية ، بطريقة عقلانية متحررة – قدر المستطاع – من اثار التهييج العاطفي وانفعالاته .

كان غياب المناضل الثوري الكبير جمال عبدالناصر غيابا مفاجئا ، عن مكانه العريض في قيادة الركب العربي التحرري ، هو ذلك الحادث المروع الخطير الذي نشير اليه . وهو نفسه الحادث الذي يحاول الان نفر من الكتّاب والباحثين العرب ان يقفوا عنده ، في هذا الجزء من « الآداب » ، وقفة متأنية يلتفتون بها الى مرحلة من تاريخ الحركة التحررية العربية اقترنت باسم جمال عبدالناصر وشخصيته اقتران فعل وتأثير متبادلين على اكثر من صعيد واحد ، وفي اكثر من وجه واحد من وجوه هذه المرحلة .

– ١ –

.. على ان الشرط الاهم لتحقيق ما سميناه الطريقة **العقلانية** في معالجة هذه المرحلة ، على هذا الصعيد او ذاك ، وفي هذا الوجه او ذاك من وجوهها ، هو شرط النظرة **التكاملية** في كل مسألة تخضع للمعالجة من موضوعنا . فان اكثر ما كانت تتعرض له معالجاتنا ، في

الاغلب ، من نقص او تشوه او خطأ او انحراف،هو طابع التجزيء ، اي قطع الاحداث او القضايا بعضها عن بعض، وعزل كل واحدة منها في اطار « الخاص » وحده منفصلة بذلك عن مكانها الطبيعي والمنطقي والتاريخي في اطار «العام» الذي من شأنه ان يضفي على الحادثة او القضية الخاصة او المنفردة قيمتها الحقيقية وجوهر دلالتها وحرارة حيويتها ..

فاذا كان موضوع المعالجة هنا ، في هذا المقال ، هو « ثورة ٢٣ يوليو والادب العربي » ، فان النظرة التكاملية التي اعني تقتضي النظر الى «ثورة ٢٣ يوليو» من حيث هي حلقة في سلسلة الثورات العربية ، اي من حيث هي ذات اطار تاريخي عام ، لا من حيث هي قائمة بذاتها في اطار خاص مستقل منعزل وجد في فراغ .. فان النظرة اليها على الوجه الاخير تؤدي الى قطع الامتداد الطبيعي لموضوع المعالجة نفسه ، وهذا يؤدي بنا ، اخر الامر ، الى فقدان رؤية التأثير المتبادل او التفاعل الواقعي بين هذه الثورة والادب العربي .. ذلك بان هذا التفاعل لا تمكن رؤية اثاره وظاهراته الا انطلاقا من تلك النظرة التكاملية الى المجرى التاريخي العام لحركة التحرر العربية الذي انبثقت منه « ثورة ٢٣ يوليو » ثم صارت رافدا كبيرا من روافده ، فهي تصب – بنهاية المطاف – في مصبه .. واعني بكل ذلك اننا اذ نرجع الى كثير من نصوص الادب العربي التي ظهرت خلال المرحلة التي قطعتها ثورة ٢٣ يوليو منذ قيامها حتى غياب قائدها المناضل جمال عبدالناصر ، لا نجد هذه الثورة تنعكس في تلك النصوص انعكاسا مباشرا يدل عليها بصورتها الخاصة او بوجهها المنفرد .. فاذا نحن نظرنا الى الثورة هذه نظرة تجزيئية تفصلها عن مجراها التحرري والثوري العربي وتعزلها عنه ، ثم نظرنا الى تلك النصوص الادبية ، خيل لنا ان لم يكن هناك من تأثير متبادل بين الثورة المصرية هذه او نصوص الادب العربي تلك .. في حين ان ذلك غير صحيح ، لان هذا التأثير المتبادل امر واقع دون شك ، ولكنه يخفى عن الرؤية حين تكون الرؤية محدودة بذلك الاطار الجزئي .. ولو اننا تجاوزنا حدود هذا الاطار الى ما هو اوسع واشمل لكان من اليسير على الناقد والباحث ان يجد في تلك النصوص الادبية ذاتها صورة ثورة ٢٣ يوليو ذاتها، ولكنها ليست الصورة الخاصة المباشرة لها ، بل صورتها الثورية الفاعلة المتطورة خلال صيرورتها في مجرى تطور الثورة العربية « الكل » وصيرورتها المستمرة .

سأذكر نصا شعريا ظهر عام ١٩٥٧ ، اي بعد خمس سنوات منذ ظهور ثورة ٢٣ يوليو . هذا النص للشاعر السوداني **جيلي عبد الرحمن** نشر بعنوان « اشواق الكفاح » (١) يقول فيه :

.. ويا طالما حدثتنا هناك
عن الطالبات ، وذكرى عرابي
حديثا كذوب الندى في الروابي
تضيء السذاجة فيه الكلام
وتسألني عن فتى اسمر
بخط النضال على جبهته
شواظا من النار في غضبته
وما عب من سائل احمر
وأحكي لها عن صلاح (٢)
تحدى ، مع الثائرين ، الملك
وجيش الغزاة الدخيل
فمات !
ولكنه لم يزل اغنيه
ترددها ، كاللظى ، امسيه

. . . .

هذا النص الشعري نموذج يقاس به كثير من النصوص الادبية في الشعر والقصة والرواية والمسرحية – من الادب العربي في الخمسينات والستينات . . فهنا ثورة ٢٣ يوليو حاضرة بفعلها ، لا بصورتها . لان الشاعر هنا يستعرض ذكريات الكفاح الشعبي في مصر قبل الثورة هذه ، ونحن نرى في هذه الذكريات صورا من العهد الظلامي ، عهد « الملك ، وجيش الغزاة الدخيل » ، اذ الثائرون يتحدون عتاة ذلك العهد، ويكافحون ويستشهدون هذه الذكريات ما كان لها ان تكون « ذكريات » لولا ان ذلك العهد الظلامي قد انقشع عن وادي النيل ، وانهار ظل الملك ، وجلا جيش الغزاة الدخيل .. ذلك بفعل ثورة ٢٣ يوليو ذاتها ، وبفعل النضالات الشعبية التي سبقتها وهيأت الارض والبذور التي انطلقت منها .. فهل يصح القول اذن ان مثل هذا النص الشعري يخلو من علاقة التأثر بثورة ٢٣ يوليو ، لكونه يخلو من الصورة الواضحة المباشرة لهذه الثورة ؟.

ويحضرني مثال اخر لعله يضع الفكرة في اطار اوسع من ذلك ، ولكنه لا يخرج بها عن الاطار الواقعي الذي تدور فيه :

نقرأ لبدر شاكر السياب قصائد كتبها في الخمسينات ، مستوحيا اياها من كفاح شعوب المغرب العربي للتحرر الوطني (٣) ، فنجد فيها صورا حية مخضوضرة لانبعاث العرب من ظلمة التاريخ ومن كهوف الاساطير ، اساطير القدر والاستسلام وعبودية اصنام الوهم من كل نوع.. ونجد فيها من وهج الثورات العربية كلها ، في المغرب والمشرق ، ميلاد تاريخ جديد للعرب يتصل نبضه الحار بنبض تاريخنا القديم الذي ولدبثورة

(١) « الثقافة الوطنية » :١٩٥٧ ج ٩ ص ٢٣ .

(٢) طالب سوداني اغتالته حكومة ابراهيم عبدالهادي في سجن مصر

(٣) ديوانه « انشودة المطر » – دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠ ص ٦٩ – ٨٩ .

النبي محمد منذ اربعة عشر قرنا.:

. . . .
... واليوم ولى محفل الالهة
اليوم يفدي ثائر بالدماء
الشيب والشبان، يفدي النساء،
يفدي زروع الحقل، يفدي النماء،
يفدي دموع الايّم الوالهه
بالامس دوىّ في ثرى يثرب
صوت قوي من فقير نبي،
الوى ببغي الصخر .. لم يضرب،
وحطم التيجان . اي انطلاق
في مصر، في سورية، في العراق!
بالامس وارى قومك الالهة (١)

. . . .
. . . .

صحيح ان هذا المقطع مجتزأ من قصيدة ذات بناء ملحمي متماسك شديد الاحكام، ولكنه يستطيع بذاته ان يستوعب الفكرة التي اقصد .. فاننا نسأل هنا: هل لهذا النموذج الشعري صلة من صلات التفاعل مع ثورة ٢٣ يوليو، بالرغم من ان وحي القصيدة وسياقهاالخاص متصلان بثورة الجزائر بخصوصها ؟.

أقول: نعم . ولكن الصلة هنا تنبع من الصلةالقائمة بين ثورة الجزائر وثورة ٢٣ يوليو المصرية، وهي صلة جزء بجزء اخر ينتظمهما معا ذلك الكل الواحد الشامل، هو الثورة العربية التحررية المتكاملة تكاملا عضويا على مدى المرحلة الثورية العربية في الخمسينات والستينات وهذه الثورة العربية في مرحلتها هذه نفسها متكاملة تكاملا عضويا كذلك مع الثورات والانتفاضات العربية على مدى المراحل التي سبقت المرحلة الاخيرة هذه . والتفاعل الذي حدث بالفعل بين الادب العربي والحركة الثورية العربية التحررية في مختلف مراحلها ينحل - اخر الامر - الى تفاعل مع كل جزء من هذا الكل الواحد الشامل . ولكن القصد ان اقول، في هذا المجال، ان كل نص ادبي من ادبنا العربي ظهر في الخمسينات بالاخص، ثم في الستينات، متأثرا بلهب المعركة العربية الدائرة على هذه الجبهة او تلك من جبهاتها المتعددة، لم يكن بعيدا عن التأثر باحداث ثورة ٢٣ يوليو اما مباشرة او بعلاقة اخرى من علاقات المعركة بهذه الثورة .. ذلك بان كثيرا من الاحداث الكبرى والخطيرة التي واجهتها المعركة العربية، خلال المرحلة الاخيرة هذه، كانت اما من احداث ثورة ٢٣ يوليو، او ذات علاقة بها مباشرة او غير مباشرة .

(١) من قصيدة «الى جميلة بوحيرد» انشودة المطر - ص ٧٣ .

اننا، بمراجعة تفصيلية دقيقة للاعمال الادبية، التي انعكست فيها تلك الاحداث انعكاسا ايجابيا ام سلبيا - ولا سيما ذلك الحدث الزلزال في٥ حزيران ١٩٦٧ - سنجد المسألة مفهومة على هذا الاساس بوضوح .. اي اننا سنجد ثورة ٢٣ يوليو، بسلوكها مع تلك الاحداث وبفعلها فيها وبمواقفها منها وبعلاقاتها بها، قداثبتت حضورها في هذه الاعمال الادبية نفسها باشكال من الحضور مختلفة متنوعة:

- فمنها اشكال الرمز والايماء، والالماح، تمجيدا للثورة هذه او تعريضا بها ..

- ومنها اشكال الانفعال بوهجها الثوري، والتأثر باتجاهاتها النضالية وخطاها التحررية، او بسلوكها المبدئي المتطور في مجال العلاقات الدولية والعالمية .اي في **انسجامها** الثوري مع الدول الاشتراكية وقوتها الاساسية المتمثلة بالاتحاد السوفياتي ومع سائر قوى التقدم والتحرر في العالم كله، وفي **تناقضها** الثوري كذلك مع الدول الامبريالية وقوتها الاساسية المتمثلة باميركا ومع سائر قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية في العالم كله ايضا ..

- ومنها اشكال التعبير عن المعركة العربيةبوجهها، الاعم، سواء كان ذلك تعبيرا عن حركة تطورها وافاق هذا التطور، ام كان تعبيرا عن سلبياتها وعناصرالتمزق في صفوفها وحسب .. وفي هذه الاشكال، بنوعيها: الايجابي والسلبي، تبدو الجمهورية العربية المتحدة بلد ثورة ٢٣يوليو، وقيادتها، انها الهاجس الاول او الاهم لدى صانعي هذه الاشكال الادبية (٢) ..

- ومنها تلك الاشكال **التركيبية** التي ترمي الى استيحاء التاريخ الكفاحي العربي، قديمه وحديثه، لخلق بطولات نموذجية، لها من المعاصرة دم وحياة وحركة، ولها من التاريخ وجه عرين الملامح، وقضية تتصارع مع الزمن .. (٣) وليس يحتاج احدنا الى تعمق كثير لهذه الاشكال كي يستخلص الصلة بينها وبين الاوضاع والمشكلات والقضايا التي تدخل في معاناة الانسان العربي المعاصرخلال تجربات الحركات الكفاحية التحررية الجديدة منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

- ومنها، اخيرا، تلك الاشكال الادبية الصريحة في تعبيرها عن الانفعال المباشر بكبريات الاحداث والمواقف والمنجزات التي تنتسب الى ثورة ٢٣ يوليو بخصوصها وتفردها .. وهذه الاشكال الادبية من الوفرة حيث

(٢) راجع، مثلا، مجلة «الاداب»: العددين ٧ و٨ سنة ١٩٦٧
(٣) مثلا: ادونيس في «كتاب التحولات ..» - الصقر، ص ٢٧ وصلاح عبدالصبور في «مأساة الحلاج»، وبعض قصائد محمود درويش وسميح القاسم .

لا يستطاع احصاؤها، ولا نحتاج الى تعداد مراجعها(١)..

نخلص من الاشارة الى هذه الأشكال الادبية المختلفة المتنوعة ، ومن الاشارة الى ما بينها وبين ثورة ٢٣ يوليو من علاقات التأثر والتفاعل ـ نخلص من ذلك كله الى القول باننا من هنا نرى ان النظرة **التكاملية** في موضوع الصلة بين هذه الثورة والادب العربي ،هي الطريقة الاكثر واقعية والاكثر دقة للاهتداء الى حقيقة هذه الصلة ومواقعها الظاهرة والخفية من مختلف النصوص الادبية واشكالها، ولاكتشاف الصورة الفنية والفاعلية الحقيقية لهذه الثورة في الادب العربي خلال الثمانية عشر عاما المنقضية من عمرها حتى الان .. ففي رأيي انه يتعذر رؤية هذه الصورة وهذه الفاعلية في كثير من تلك النصوص لو اننا اتبعنا النظرة **التجزيئية** في هذا الموضوع .. اي النظرة الى ثورة ٢٣ يوليو بذاتها وبخصوصها منفصلة ومنعزلة عن اطارها التاريخي العام الذي هو حركة التحرر العربية بجملتها ككل .

ـ ٢ ـ

.. ولكي نمضي مع منطق هذا المنهج الى نهايته ،في موضوعنا ، ارى ان تكون النظرة الى ثورة ٢٣ يوليو نظرة تكاملية من حيث علاعتها بـ « الناصرية » ايضا . ولهذا فضلت ان يكون حديثي ، هنا ، عن هذه الثورة ، مرتبطا باسمها التاريخي ، لا باسم « الناصرية » وحسب .. وانا أزعم ان هذه الطريقة اقرب الى النظرة التكاملية ، وان الكلام على « الناصرية » بخصوصها اقرب الى النظرة التجزيئية .. وذلك ان اصطلاح « الناصرية » صار يعني احدى دلالتين : اما **الدلالة** على المفهوم الشائع في الاذهان اليوم ، وهو مفهوم الاطار الايديولوجي او الاطار التنظيمي السياسي، المستخدم في معظم الاقطار العربية في السنوات الاخيرة .. واما الدلالة على نسبة هذه الثورة الى قائدها العظيم المناضل جمال عبدالناصر .

في رأيي ان كلتا الدلالتين تؤدي الى الحكم على ثورة ٢٣ يوليو بالتجزيء والحصر، وتقصر عن استيعاب محتواها الثوري الاعم المتصل عضويا وتاريخيا وموضوعيا بتطور حركة التحرر العربية من حيث هي حركة جماهيرية شعبية منطلقة من مطامح الشعوب العربية كافة الى التحرر الوطني ثم التحرر الاجتماعي ، ومن مراحل كفاحية متنوعة ومتعددة ومتلاحقة زمنيا ..

وبذلك يصبح تعبير « الناصرية » ابعادا لثورة ٢٣ يوليو عن هذا الرابط العضوي التاريخي الموضوعي، وحصرا لها اما في اطارها الايديولوجي او التنظيمي السياسي الضيق ، واما في اطارها « الشخصي » الذي طالما جهد الفقيد العظيم جمال عبدالناصر نفسه في تبديد صورته من الاذهان ، وفي توكيد ان الثورة التي يقودها ، هي ثورة الشعب ، وهي مرحلة من مراحل ثوراته وانتفاضاته السابقة ، وهي ـ الى ذلك ـ جزء من الثورة العربية بكاملها وتعبير عن الصلة الواقعية الموضوعية التي تنتظم جبهات التحرك القومي العربي كلها في معركة الحرية والوحدة والتقدم ، بقدر ما هي تعبير ـ كذلك ـ عن الارتباط العضوي التاريخي بين الحركة الثورية العربية والحركة الثورية العالمية الواسعة .

لصحيح ان انتقال القيادة الفعلية المباشرة لثورة ٢٣ يوليو ، الى جمال عبدالناصر ، قد انقذها مما اوشكت ان تقع فيه ، اوائل عهدها ، من تعثرات وترددات ومساومات كادت تحرفها عن الاتجاه التحرري الثوري الذي انبثقت منه .. فقد صحح جمال مسارها ، وعمق ارتباطها ـ كظاهرة ـ بجوهرها الذي هو انبثاق من صميم حركة التطور التاريخي لنضال الشعوب العربية . وبذلك دفعها جمال بزخم شديد الى مكانها القيادي العريض في مسيرة النضال العربي ، وحقق لها تلك المنجزات الكبيرة والقفزات التاريخية في مجالات التحدي الشجاع حيال التآمر الامبريالي والصهيوني على مطامح شعوبنا ومصائر معركتنا القومية التقدمية ـ اقول : صحيح ان تولي جمال عبدالناصر بنفسه قيادة هذه الثورة قد فعل كل ذلك ،ولكن هذا لم يغير شيئا من الحقيقة التي قلنا ، وهي ان ثورة ٢٣ يوليو انما كانت ظاهرة من ظاهرات التفجر الطبيعي لارادة الشعب في اللحظات التي تأذن بالتفجر .. بل ينبغي ان نقول ان قيادة جمال عبدالناصر للثورة زاد هذه الحقيقة وضوحا وتألقا ، اذ كانت قيادته لها نمطا جديدا من القيادات اختلف اختلافا اساسيا عما الفته الحركات التحررية العربية قبل ذلك من انماط القيادة . فهو قد ابرز العلاقة الجوهرية بين الثورة والشعب ، وهو هدم الحواجز التقليدية التي كان يقيمها القادة البرجوازيون الاقطاعيون والملوك والرؤساء بينهم وبين الشعب ، بل هو اقام اشكالا من العلاقات الحميمة بين القيادة والشعب ، كعلاقة المصارحة والمكاشفة واعلان الحقائق عارية للجماهير ببساطة وجراءة وطمأنينة ، وجعل الثقة المتبادلة بينه وبينها اساسا صلبا للاقدام على ما كان يقدم عليه من مواقف مثيرة وحاسمة ، كموقف كسر احتكار السلاح وموقف تحرير قناة السويس ، ومن اعمال بناءة ، ومن خطوات سديدة في المعارك المتواصلة مع اعداء الثورة واعداء الشعب ، الخارجيين والداخليين .

ولا شك ان هذا النمط الجديد من القيادة هو الذي

---

(١) من هذه المراجع ، مثلا ، مجموعات مجلات : «الاداب» في الخمسينات والستينات كلها ، و« الثقافة الوطنية » في الخمسينات و« الطريق » في الستينات بخاصة ، خارج مصر . عدا الكتب والروايات والمسرحيات والدواوين الشعرية .

أحاط اسم القائد باطار متوهج من الحب والاعجاب . ولكن ذلك لا يعني ان هذا الحب وهذا الاعجاب يرجعان الى اسلوب القيادة وشخصية القائد وحسب ، بل الواقع انهما يرجعان – بالاساس والجوهر – الى المحتوى الثوري الذي التزم به القائد وارتبطت به شخصيته القيادية ومنه انبثق اسلوبه .

ومن هنا ينبغي للباحثين والنقاد والكتّاب والشعراء العرب الثوريين ان لا يصرفهم هذا التوهج لاسم جمال عبد الناصر – وان استحقه بجدارة فائقة – عن ذلك المحتوى الذي اصبحت ثورة ٢٣ يوليو واصبح قائدها عبدالناصر يعبران عنه . يدلنا على ذلك ان اسم هذا القائد الثوري المناضل لم يكن معروفا قط للجماهير العربية ، وانما هو قفز فجأة من المجهول الى ذروة التألق في اذهان هذه الجماهير وفي قلوبها ، لحظة قفز بالثورة اول مرة من مناخها الذي كان ملفعا بشيء من الابهام بادىء الامر الى مناخ جديد تبدد فيه كل ابهام والتمع فيه وجهها الثوري مترعا بالعافية . منذ ذاك اخذ اسم عبد الناصر يزداد توهجا كلما ارتقى بالثورة الى موقف جديد يزيد محتواها ثورية ورسوخا في مواجهة المهمات الكبرى ، من بناء الاقتصاد الوطني المستقل وتطويره ، الى مجابهة اعداء حركة التحرر العربية بالمواقف الحاسمة الجريئة مدعومة بالتدابير والخطط الجادة المدروسة .

ان الموقف الثوري حيال « الناصرية » ، في ظروفنا الحاضرة بالاخص ، ان نردّها الى جذورها الاصيلة ، الى مصدرها الحقيقي ، الى مكانها التاريخي ، وان تتوجه رؤيتنا فيها الى المقومات الاساسية لوجود الثورة وبقائها وصيرورتها . وهذه المقومات ستبقى بنضرتها وجدتها ما بقي الشعب الذي ظهرت منه الثورة ، وما بقيت لهذه الثورة اسباب وجودها وظروف بقائها وصيرورتها . ولقد كان جمال عبدالناصر نفسه اول من التزم هذا الموقف الذي ندعو اليه . اذ كان من اصالة ثوريته وصلابة كفاحيته ان كان يأبى على اصدقائه واعدائه معا اخفاءهم وجه الثورة واهدافها ، عن اخلاص ساذج او عن سوء نية ، بستار من اسمه هو وشخصه .. وهذه احدى اظهر مزايا ثوريته وكفاحيته طوال مرحلة قيادته لثورة ٢٣ يوليو .

فاذا نحن نظرنا الى « الناصرية » هذه النظرة ، اي بوصف كونها ظاهرة لجوهر ، لا بوصف كونها جوهرا بذاتها ، كان يسيرا علينا ان نتلمس اثارها في الادب العربي بمختلف قطاعاته الاقليمية ، حيث لا نجد لها بعينها صورة او انعكاسا خاصا . فنحن ، في هذه الحال ، سنجد في نصوص هذا الادب ملامح وارتسامات قوية وعميقة وشفافة معا يتلامع فيها ذلك الجوهر نفسه الذي قلنا ان « الناصرية » لم تكن سوى احدى ظاهراته . نعني به ثورة ٢٣ يوليو بوجهيها : الخاص ، والعام . اي وجهها المصري ، ووجهها العربي بعلاقاتهما الداخلية الجدلية المتكاملة .

– ٣ –

في ضوء هذا المنهج التكاملي ، بكل شموله ، ننتقل بالبحث الى الادب العربي ذاته ، لنرى كيف ارتسمت فيه هذه الثورة خلال مرحلتها التي امتدت من بدء عهدها بقيادة جمال عبدالناصر الى هذه الايام التي افتقدت فيها وجهه وقيادته الفعلية .

ليس بامكان هذا البحث ، في ظروفي الحاضرة ، ان يأتي بدراسة تفصيلية تشمل مختلف فنون الادب العربي ومختلف الاعمال الادبية التي صدرت في كل واحد من هذه الفنون خلال تلك المرحلة بطولها ، ليخرج من ذلك برؤية شاملة تحدد ، بدقة ، نوعية تأثر كل فن وكل عمل ادبي بثورة ٢٣ يولو ، ونوعية التفاعل معها ، ثم نوعية القيم الفنية لهذا التأثر والتفاعل . واني لأرى ان دراسة من هذا النوع اصبحت ضرورة ملحة لادبنا العربي المعاصر في اخصب مرحلة من مراحل تطوره ، اعني مرحلة الخمسينات والستينات التي حفلت بتغيرات نوعية في اشكال هذا الادب ومضامينه معا ، وقد شملت هذه التغيرات كلا من الشعر والقصة والرواية والمسرحية والنقد الادبي والدراسة الادبية والمقالة الادبية . بل لقد شملت هذه التغيرات كذلك مفاهيم « النظرية الادبية » ومقولاتها الاساسية حتى لقد ماتت مذاهب فنية وولدت مذاهب .. والواقع ان دراسة جادة شاملة محددة كهذه لا بد ان تسلط اضواء جديدة على مفهوم « المعاصرة » في ادبنا العربي من حيث علاقته بـ « المعاصرة الفكرية والايديولوجية » ، ومن حيث تفاعلاته الانسانية والقومية والطبقية . ولذا اصبح واجبا ان يتصدى لمثل هذه الدراسة الباحثون والنقاد المؤهلون لها في البلاد العربية ، المتمكنون من منهجية البحث الموضوعي ، بالمفهوم العلمي للموضوعية .

قلت : ليس بامكان بحثي هذا ان يأتي بدراسة تفصيلية شاملة على النحو الذي وصفت . ولكن هذا القول لا يعفيني من المحاولة مهما تكن المحاولة . فقد استطيع بها ان ارسم – بالاقل – بعض الخطوط العريضة لمثل تلك الدراسة تمهيدا للفرصة التي ارجو ان تتاح لي ، في ظروف ميسرة ، كي استكمل الدراسة كما اتصور الان خطوطها التفصيلية في ضوء المنهج التكاملي الذي آخذ به :

* * *

● يبدأ الخط الاول لهذه المحاولة من النقطة التي بدأت عندها اولى ردود الفعل للنكبة العربية في فلسطين ، اعني نكبة ١٩٤٨ . وليس القصد هنا بردود الفعل انعكاسات النكبة في نفوس الجماهير العربية ، وفي نتاج الادب العربي . فأن هذه الانعكاسات رافقت النكبة خطوة

خطوة ، وحركة حركة منذ الحرب ـ المؤامرة التي دبرت لجعل النكبة واقعا متجسدا بقيام « دولة » اسرائيل في فلسطين . بل القصد بردود الفعل ، هنا، تلك المتفجرات التي أخذت تهز الانظمة السياسية والاجتماعية هنا وهناك في بلاد العرب بعد سنوات قليلة من عام النكبة . وقدكانت ثورة ٢٣يوليو عام١٩٥٢ اول رد فعل قوي من هذا النوع. اذ كانت مصر الملكية احدى الدول العربية التي شاركت في الحرب ـ المؤامرة، وكانت فضيحة الاسلحة الفاسدة، التي استخدمتها مصر الملكية هذه في تلك الحرب ، من ابشع وجوه المؤامرة وابرز فضيحة كشفت اولى عناصر التآمر الرجعي العربي مع الامبريالية والصهيونية على مصير فلسطين وشعبها العربي .

كانت المفاجأة ، صباح ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، زلزالا ضخما اطاح باقوى نظام رجعي ملكي اقطاعي استبدادي في البلاد العربية حينذاك . . فقد سقط الطاغية فاروق ، وانهار نظامه الملكي . . وقد كان واضحا ، منذ ظهرت المفاجأة ، انها جاءت رد فعل انفجاري على صعيد الانظمة السياسية العربية لمؤامرة « حرب » فلسطين ، ولفضيحة الاسلحة الفاسدة وفضيحة « ماكو اوامر » خلال هذه الحرب . . لذلك استقبلت الجماهير العربية هذا الانفجار العظيم بانفجار انفعالي حماسي دافق ملء ارض العرب كلها . . وسريعا ما ارتسمت موجة الحماسة للحدث الضخم ، تلقائيا ، في اكثر انواع الادب العربي سرعة تأثر وانفعال بالموجة العارمة ، اعني الشعر والمقالة الادبية . . اما القصة وامثالها من الادب ذي البنيةالمركبة المعقدة ، فكانت ما تزال تختمر في داخلها «اشياء»النكبة الكبرى ، فلم تستطع الانتقال سريعا الى اختمار جديد بالحادث الجديد .

كان الادب العربي ،قبل صباح ٢٣ تموز ١٩٥٢ ، لا يزال يلعق نزف جراح النكبة الكبرى، مستظلا عتمةالكآبة بكل كثافتها ، مسورا رؤاه بجدر مقفلة من اليأس لا منفذ فيها لشعاع امل . . وعلى حين فجأة انشق السورالمغلق عن امر جديد . . وكان لهذا الامر الجديد الهائل انيكون ارهاصا اول ، بعد النكبة ، بما سيحدث في اواسط الخمسينات من بدء التحول في اتجاهات الادب العربيوفي طبيعة رؤياه الفنية بوجه عام متصلة بطبيعة رؤيته الاجتماعية الجديدة . . ولكن القيادة الاولى لثورة ٢٣ يوليو،قيادة محمد نجيب ، ابعدت عن الثورة حينذاكموجة الامل العربي ، فابعدت الثورة بذلك عن ان تقوم بدور الارهاص هذا في الادب العربي ، وكاد السور الذيانشق فيه عمود من الصبح ان يعود الى الانغلاق ، لولا انه كانت هناك مشاعل نضالية تؤج وتضيء بين الحين والحين في هذا البلد وذاك من بلادنا العربية .

* * *

وجاء عام ١٩٥٤ ، فبدا واضحا ان ادبنا لم ينقطع عن الارض العربية المتحركة لانفجارات جديدة . . وعلينا هنا ان نعترف ان ثورة ٢٣ يوليو ، بالرغم من الترددات التي اصابتها في عهد قيادتها الاولى تلك ، ستظل ـتاريخيا ـ اول اشارة خضراء لظهور ردود فعل اخرى من نوعها ، اما على صعيد الانظمة السياسية العربية ، واما على صعيد الكفاح الجماهيري الشعبي ، واما على صعيد الفكر والادب ذاتيهما ارتباطا بما يتحرك من ذلك كله في اعماق الارض العربية . . وهذا ما حصل بالفعل. فقد رأينا منذ عام ١٩٥٤ احداثا متلاحقة على هذه الصعد كلها تحمل اشكالا من التحرك الكفاحي ، وحتى التحرك الثوري . . ففي المغرب العربي اخذت تنضج عوامل الثورة الشاملة حتى انفجرت ثورة الجزائر ، بالاضافة الى الكفاح المستعر في تونس والمغرب . . وفي المشرق العربي حدثت الوثبة الشعبية الاردنية التي قذفت «بغلوب باشا» من مركزه الاستعماري ـ العسكري الخطير كأداة فاعلة من ادوات الاستعمار في قمع الحركة الشعبية التحررية العربية ، وأقامت حكومة وطنية في الاردن فرضتها جبهة وطنية تقدمية . واذا لم تكن ظروف تلك المرحلة قد اطالت عمر هذه الحكومة وهذه الجبهة ، فان الوثبة ـ على كل حال ـ اظهرت للشعب مدى قدرته على الفعل والتحدي والتغيير متى توحدت صفوفه وتواجدت قواه الوطنية والتقدمية في صعيد كفاحي مشترك لهدف تحرري مشترك . .

وفي هذه الظروف العربية ذاتها قضت سورية على طغيان الديكتاتورية الشيشكلية ، فنهضت على انقاضها حركة وطنية ذات طابع ديموقراطي متطور . . وكانت توثبات الشعب العراقي لا تزال تواصل محاولاتها الجاهدة للخلاص من كابوس النظام الملكي ـ السعيدي ومن جلاّدي هذا النظام وارتباطاتهم الاستعمارية المباشرة . .

وفي الظروف هذه ذاتها كانت ثورة ٢٣ يوليو المصرية قد اطلعت الى مركز قيادتها الاولى المناضل جمال عبد الناصر ، وأخذ يضرب ضرباته الثورية التاريخية المتلاحقة ، من صفقة الاسلحة الاشتراكية الى تحرير قناة السويس فالى اتفاقية السد العالي مع الاتحاد السوفياتي ، وأخذ يتقدم بخطى سريعة للتأثير الفعال في مجرى حركة التحرر العربية جملة . . واخذ كذلك يقوم بدوره الكبير في وضع هذه الحركة التحررية بموضعها الطبيعي من حركة التضامن الاسيوي ـ الافريقي الناشئة يومئذ ، اي ربط حركة التحرر العربية بحركة التحرر العالمية ، ثم بالحركة الثورية العالمية . .

* * *

اما على الصعيد **الادبي** فقد كان لهذه الظروف والاحداث كلها ، جملة وتفصيلا ، فعلها الخفي والظاهر وارتساماتها المباشرة وغير المباشرة ، بحيث تمازجت في هذا الفعل وهذه الارتسامات علاقات الحركة الادبية ، من

ـ التتمة في الصفحة ـ ٨١ ـ



على رقعة الوطن العربي كله تبدو ثورة التعليم قضية ملحة .. ولا تكاد تهدأ المناقشات حولها حتى تثور من جديد .. وعلى خريطة هذا الوطن تبدو مفارقات ، ودرجات وطبقات بين العلم والامية .. ولكن الوطن كله.. يجمعه عطش ، هو بعض عطش صحارينا الى العلم والمعرفة .. حتى تتحول الى حقول مزهرة .. وترتفع في آفاقها قوة العمل المنتج .

وليس موضوعنا قضية التعليم في العالم العربي . ولكننا سنحاول ان نقدم بعض ملامح التعليم في مصر منذ ثورة يوليو ، نموذج وتجربة هامة تحمل دلالات تتخطى في حقيقتها حدودنا الاقليمية،وتعبرها الى الوطن الكبير.. وبل والى كل بلدان وشعوب العالم الثالث التي تخوض معركتها المريرة ضد الامبريالية .. وضد كابوس التخلف والفقر .

لسنا اذن بازاء نظام تعليمي بعينه يقوم في مصر ،بل تجربة من لحم ودم العالم الثالث كله .. وملامحها برغم السمات الخاصة ، هي ملامح الثورة وابعادها في هذا العالم المضطرب .ولقد كان التعليم دائما اداة ثورة وتغيير، كما كان ايضا اداة انتكاس وجمود ، ومن هنا فالصراعات حوله : حول اهدافه ونظرياته ونظمه وتطبيقاته هي بعض اوجه الصراع الاجتماعي المحتدم ، صراع الفلسفات والنظم . فالتعليم كأداة بشرية ، ليس من قبيل الالات ذاتية الحركة ، ولا يستمد قيمه وقيمته من ذاته ابدا ، ولا من نظامه كما يحلو للبعض ان يتوهم ،بل من اليد التي تصنعه وتحركه : يد الثورة او اليد المعادية لها ، وستظل اسباب النجاح والفشل ، التقدم او التخلف كامنة في طبيعة القوة المحركة من ورائه ، القوة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ..

واذا كان الوطن العربي ، في كل ربوعه ، من الجزائر حتى بغداد ، قد خاض على الدوام معركته من اجل التعليم والثقافة القومية ، كجزء لا يتجزأ عن معركته ضد الامبريالية والاستعمار في مختلف صوره .. واذا كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، قد شهدت جهودا صادقة من جانب القوميين والوطنيين - ولعل من ابرزهم ساطع الحصري - لتحقيق تقارب وتعاون اوثق بين شعوبنا في مجال التعليم .. فان معركتنا الراهنة ، وهي بطبيعتها معركة صمود وشعوب ونفس طويل ، تفرض على الثوريين شحذ كل اسلحة الثقافة والعلم والتعليم .. وهي اسلحة تعبئة وحشد للقوى وقتال بالدرجة الاولى .

ولا شك ان الناصرية ، كتيار عربي وطني وتقدمي ، قد جسدت أهداف ثورتها في تطبيقات وانجازات هامة في الميدان التعليمي .. حجم هذه الانجازات ليس بالهين كما سنراه بالارقام ، ومع ذلك فقد صاحب الاصلاح التعليمي منذ بداية الثورة ، وانعكس في ميدانه صراع تيارات ، اجتماعي وطبقي حاد : في المثل والاهداف ،وفي القيم المسيطرة ، وفي ابعاد الاصلاح ومداه ،وفي مواقع الطبقات المختلفة منه واستفادتها به ولا يزال هذا الصراع قويا نشطا في مصر يفصح عن نفسه في صورة الجدل الذي لا يهدأ حول مسائل التعليم ، والضجة والقلق الشديدين اللذين يسيطران على الاباء والابناء عادة في بداية كل عام دراسي وفي منتهاه ، ويشدان الاهتمام القومي حتى في احرج الاوقات .

والواقع ان قضية التعليم اكتسبت اهمية خاصة وطابعا مميزا بعد هزيمة يونيو بوجه خاص ، لالتحامها بالجدل حول اسباب الهزيمة ومقتضيات المواجهة الجديدة مع العدو ، وقد بدت هذه الهزيمة في بعض اوجهها ،

هزيمة للتخلف امام التفوق الساحق للعدو الامبريالي والصهيوني في العلم والتكنولوجيا ، كما بدا شرطا من شروط النصر عبور هوة التخلف وامتلاك وسائل العلم والتقدم .

وبصرف النظر عن قضية العلم والتكنولوجيا التي رأى فيها البعض العامل الحاسم سواء في الهزيمة او النصر على العدو ـ وهو رأي بعيد تماما عن الصواب ، يحجب الاسباب الحقيقية ، ومع ذلك فلا شك ان التعليم في عالم اليوم اضحى صناعة ثقيلة واستراتيجية ، يقع في صميم قضايا الثورة والتقدم ، ومن ثم كل هذا الصراع حوله في بلدان العالم الثالث . وهو صراع يدور بين مجموع الطبقات الوطنية من جانب ، والطبقات القديمة المخلوعة وجيوب الامبريالية ، كما يقع ايضا بين الاجنحة المختلفة في الثورات الوطنية التحريرية ، خاصة ضد الاجنحة اليمينية والطبقات الجديدة والبيروقراطية والتنكوقراطية والاغنياء الجدد التي اصبحت وباء في العالم الثالث .

وما نحتاج اليه هو حوار صادق بين مختلف قوى الثورةالعربية الوطنية التقدمية، على امتداد تياراتاليسار المعادي للامبريالية، داخل كلبلد عربي، وعلىصعيد الوطن العربي في التعليم (١)،كماهو في الفكر والثقافة والسياسة من اجل لقاء اعمق ووحدة بين هذه القوى ، وهو ما نراه شرطا لازما للنصر .

الدولة العصرية

منذ ان اعلنتالثورة سنة ٥٢ مبادئها الستة ، وهي في الاساس معادية للاستعمار والاقطاع والرأسمالية العميلة ، كانت تعني في المضمون محاولة اقامة الدولة العصرية المتقدمة مكان الدولة التابعة والاقطاعية المتخلفة .

وقد كان مطلب التعليم ، وهو مطلب عريق لدى الجماهير الشعبية ، يجمع كل الطبقات الوطنية ابتداء من البورجوازية المصرية النامية حتى الفلاحين . كان حلم محمد علي واداته الاولى في خلق دولته الحديثة كما ارادها . وظل مطلبا اساسيا واداة في يد البورجوازية المصرية في كل مراحل ثورتها . كان كذلك عند الثوريين العرابيين في النصف الثاني من القرن الماضي ، ثم الحزب الوطني وقادته مصطفى كامل ومحمد فريد في مطلع القرن العشرين امتدادا الى ثورة ١٩ وما تلاها من سنين حتى صياغته الليبرالية الواضحة على يد طه حسين « التعليم كالماء والهواء » . وجماهير الطبقة العاملة لم تكن نقل نزوعا ولا الحافا في هذا المطلب ، حتى ان كرومر نفسه يعترف بعد جولاته في قرى مصر وربوعها ، انه ليسهناك مطلب اكثر ترددا على السنة الفلاحين المصريين من مطلب التعليم كافة طبقات الثورة المصرية المعادية للاستعمار يجمعها هذا المطلب،

وكان حلم الدولة العصرية ، المتقدمة والنامية ، والقضاء على التخلف هو السمة البارزة في ثورة يوليو منذ بدايتها ، عبر عنه بوضوح كتاب « فلسفة الثورة » وهو تأملات في عناصر الضعف والهزيمة والتخلف، وبحث عن اسباب القوة وطريق الافلات من هذا التخلف .

اما الميثاق فهو يقدم صورة اكثر تحديدا .. كما يبلور اهداف التعليم لبناء الدولة الحديثة بصورة اكثر وضوحا :

« ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر لقنت ان بلادها لا تصلح للصناعة ولا تقدر عليها .

« ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت تاريخها الوطني على غير حقيقته ، وصور لها الابطال في تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض ، بينما وضعت هالات التمجيد والاكبار من حول من خانوا كفاحها .

« ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر انتظمت في سلك المدارس والجامعات والهدف من التعليم كله لا يزيد عن تخريج موظفين يعملون للانظمة القائمة وتحت قوانينها ولوائحها التي لا تأبه لمصالح الشعب دون اي وعي لضرورة تغييرها من جذورها وتمزيقها اصلا واساسا.

« ان التعليم لم تعد غايته تخريج موظفين للعمل في مكاتب الحكومة . ومن هنا فان مناهج التعليم في جميع الفروع ينبغي ان تعاد دراستها ثوريا لكي يكون هدفها هو تمكين الانسان الفرد من القدرة على اعادة تشكيل الحياة .

« ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية ، ومن هنا الدور العظيم الذي لا بد للجامعات ومراكز العلم على مستوياتها المختلفة ان تقوم به .

« العلم هو السلاح الذي يحقق النصر الثوري .

« ان مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمي في صنعالمستقبل لا تقل عن مسئوليات السلطات الشعبية المختلفة .

« ومن هذا التصور فان الجامعات ليست ابراجا عاجية ، ولكنها طلائع متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

« ان قدرتنا على التمكين من فروع العلم المختلفة هي الطريق الوحيد امامنا لتعويض التخلف .

« ان الامم التي ارغمت على التخلف ، اذا ما استطاعت ان تبدأ الان معتمدة على العلم المتقدم ، تضمن لنفسها نقطة بداية تفوق النقطة التي بدأ منها الذين سبقوها الى المستقبل .

« ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي يتصدىشعبنا اليوم لمواجهتها لا بد لها من حلول علمية » .

هذه هي اهداف بناء الدولة العصرية كما بسطها الميثاق ، بقي ان نرى ماذا تم في التطبيق ؟!

الانجازات والابعاد الكمية

نعتذر للقارىء بداية عن كثرة الارقام ، ولكن لا حيلة لنا في الامر . فعلينا ان نتتبع الصورة الرقمية في شمولها ، وفي تفاصيلها ايضا . ونبدأ بجدوليين تطور اعداد التلاميذ والطلاب في جميع مراحل التعليم خلال سني الثورة . وقد اخترنا السنوات ذات الدلالة . فحتى سنة ٦٠ سجلنا التطور سنويا تقريبا ،ثم ما بين ٦٠ ـ ٦١ و٦٥ ـ ٦٦ وهي سنوات الخطة الخمسية الاولى للتنمية ذات الاهمية الخاصة ، ثم التطور حتى نهاية سنة ٩٦٩ .

---

(١) راجع بعض هذه التيارات والافكار التربوية والتعليميةفي :
ـ معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الاخيرة ـ الفكر العربي في مائة عام ـ بيروت
ـ مستقبل التربية في العالم العربي ـ جميل صليبا ـ بيروت

المراحل	٥١-٥٢	٥٣-٥٤	٥٤-٥٥	٥٦-٥٧	٥٧-٥٨	٥٨-٥٩	٦٠-٦١	٦٥-٦٦	٦٨-٦٩ (١)
الابتدائي	١٤٤٩١٤٤٥٧	١٤٣٩٢٤٧٤١	١٤٥٨٠٤٠٨٩	١٤٩٧٥٤٨٧٤	٢٤٠٨٦٤٧٠٤	٢٤٢٨٦٤٠٦٧	٢٤٦١٠٤١٦٩	٣٤٤١٧٤٧٠٣	٣ر٥٥٠٤١١٩
الاعدادي		٣٤٨ر٥٧٤	٣٤٦ر٣٣٦	٣١٨ر٢٤٣	٢٧٩ر٣٨٥	٢٤٩ر٠٤٢	٢٥٥ر٨٣٢	٥٧٤ر٤٢٠	٧٧٥ر٣٠٦
القانون العام	١٥٩ر٧٩٧	٩٥ر٢١٠	١٠٩ر٧١١	١١٣ر٧٣٩	١١٥ر٠٣١	١٢١ر٨٤٥	١٤٠ر٥٢٤	٢٠٨ر٩٩١	٢٧٦ر٠٧٥
القانون الفني	٢٢ر١٨٦	١٥ر٥٦٦	١٤ر٠٢٦	٢٤ر٨٥٢	٣٤٤٥٩٩	٤٣ر٧٧٥	٦٧ر١٨٦	١٠١٤٢٠٤	١٩٧ر٠٥٤
الجامعي	٣٥ر٠١٦	٥٠ر٤٩٥	٥٤ر٩٧٨	٦٣ر٤٥٤	٧٢ر٨٧٠	٧٦ر٦٣٨	٨٦ر٥٣٩	١٤٠ر١٤٣	١٤١ر١٦٠ سنة ٦٧-٦٨
معاهد عليا	١٥٢٠	٤٨٧١	٦١٢٥	٦٤٤٥	٧٤٤٧	٩٧٨٥	١٥ر٥٢٠	٣٢ر٢٨٣	٢٩ر٩٧٣ سنة ٦٧-٦٨

وحسب تقديرات الجهاز المركزي للاحصاء فان معدل الزيادة في مختلف المراحل التعليمية بين بداية الثورة ونهاية الخطة الخمسية الاولى كالاتي : (٢)

مرحلة التعليم	عدد التلاميذ في عام ٥٣-٥٤ (بالالف)	عدد التلاميذ في عام ٦٥-٦٦ (بالالف)	معدل الزيادة٪ خلال الفترة
التعليم الابتدائي	١٣٩٣	٣٤١٨	١٤٥
التعليم الاعدادي العام	٣٤٩	٥٧٤	٦٤
التعليم الثانوي العام	٩٢	٢٠٩	١٢٧
التعليم الثانوي الفني	١٩	١٠١	٤٣٢
الكليات الجامعية	٥٤	١٢٤	١٣٠
الجملة	١٩٣٤	٤٥٠٢	١٣٢

ومعنى ذلك زيادة عدد التلاميذ في جميع المراحل بمعدل ١٣٢ ٪ في حوالي اثني عشر عاما .

ومما له دلالة هامة تطور نسبة الاستيعاب في التعليم الابتدائي الاجباري بالقياس الى من هم في سن الالزام . وتسجل التقديرات الرسمية التطورات التالية : (٣)

(الارقام بالالف)

السنوات	عدد الاطفال في سن الالزام	عدد المقيدين في المدارس	النسبة ٪	نسبة الاستيعاب للبنات
٥٣-٥٤	٣٢٥٣	١٥٠٢٤٤	٤٦٤٠	٣٤٤٧
٥٤-٥٥	٣٣٢٣	١٧٥٤٤٥	٥٢٤٧	٣٩٤٠
٥٥-٥٦	٣٣٩٣	٢٠١٥٤١	٥٩٤٣	٤٣٤٦
٥٦-٥٧	٣٥٤٠	٢١٢٥٤٠	٦٠٤٠	٤٤٤٨
٥٧-٥٨	٣٦١٤	٢١٩٩٤٧	٦٠٤٩	٤٥٤٨
٥٨-٥٩	٣٦٨٩	٢٢٨٦٤١	٦٢٤٠	٤٧٤٤
٥٩-٦٠	٣٧٥٤	٢٤٥٢٤٤	٦٥٤٣	٥٠٤١
٦٠-٦١	٤٣٠٠	٢٦١٠٤٢	٦٠٤٧	٤٦٤٧
٦٥-٦٦	٤٩٠٧	٣٤١٧٤٨	٦٩٤٧	٥٥٤٧

ولا شك ان من ابرز سمات التطور التعليمي ارتباط التعليم بخطة التنمية وببرامج اعداد القوى العاملة المدربة ، وهو ما يخرج بالتعليم عن حيز المفهوم الليبرالي، باعتباره مجرد ثقافة وتنوير مناحي الثقافة الى ان يصبح قوة انتاجية وجزءا لا يتجزأ عن بناء الدولة النامية المتقدمة في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية . وبصرف النظر عن الايديولوجية والفكر الذي قام عليه صرح التخطيط في التعليم وفي اعداد القوى العاملة ، كما قامت عليه خطة التنمية كلها ، وسنعود اليه بعد قليل ، فان مجرد الاخذ بمفاهيم التخطيط والبرمجة ومحاولات ربط التعليم بميادين الانتاج وحقوله ، كان يعني انتقالا من مفاهيم البورجوازية الليبرالية التقليدية في الثقافة والفكر والتعليم . وقد انعكس هذا واضحا في اتجاهات التوسع التعليمي والجهود التي بذلت من اجل توفير القوى العاملة الفنية والعلمية في مختلف المستويات ابتداء من العامل الماهر الى مستوى الفنيين والعلميين وكان هذا وجها بلا شك لاحتدام المعركة مع الاستعمار ، واتجاهات التحرر الاقتصادي والتمصير وبناء الاقتصاد الوطني المستقل خاصة بعد هزيمة عدوان ٥٦ .

ويكفي ان نتتبع اتجاهات التوسع الكمي في مختلف مستويات التعليم الفني الثانوي ومراكز التدريب المهني ، وفي اتجاهات توزيع الطلاب في المستوى الجامعي والعالي بين الكليات والمعاهد النظرية والعملية . فقد بلغت الزيادة في تلاميذ التعليم الفني بوجه خاص في ٦٥ - ٦٦ ستة امثال ما كان عليه العدد ٥٣ - ٥٤ كما ارتفعت نسبة التلاميذ في التعليم الفني الى مجموع التلاميذ من ٤٤٧ بالمئة عام ٥٣ - ٥٤ الى ١٦٤٣ بالمئة عام ٦٥ - ٦٦ (٤) . هذا الى جانب التخصصات والاقسام الفنية العديدة التي ادخلت في خطط هذه المدارس وبرامجها .

وكان التطور في الجامعات على الوجه التالي : (٥)

عدد الطلاب

السنوات	في الكليات النظرية	في الكليات العملية
٥٣ - ٥٤	٣٦٤٣٦٧	١٧٤٧٢٢
٦٠ - ٦١	٥٨٤٢٧٥	٣٤٤٠١٧
٦٥ - ٦٦	٧١٤٦٢٩	٦٥٤٢٥١
٦٧ - ٦٨	٦٨٤٥٧٣	٧٠٤٠٤٥

الخريجين

السنوات	الكليات النظرية	الكليات العملية
٥٣ - ٥٤	٣١٢٩	١٨٢٠
٦٠ - ٦١	٦٧٨٧	٣٤٦٣
٦٥ - ٦٦	١٠٤٣٥٠	٧٦٢٣
٦٧ - ٦٨	١١٤٤٧٩	٩٢٦٠

(١) مرجعنا احصاءات وزارة التربية والتعليم والجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء

(٢) زيادة السكان في ج.ع.م وتحدياتها للتنمية . الجهاز المركزي للاحصاء سنة ١٩٦٦ .

(٣) زيادة السكان في ج.ع.م وتحدياتها للتنمية - الجهاز المركزي للاحصاء ١٩٦٦ .

(٤) زيادة السكان في ج.ع.م - الجهاز المركزي للاحصاء ١٩٦٦

(٥) الكتاب السنوي للاحصاءات - الجهاز المركزي ١٠٦٧

وحتى تكتمل صورة الانجازات والتطورات الكمية في التعليم نختم بالميزانيات وتطور الانفاق على التعليم :

ويقدر الانتاج المحقق في الخدمات التعليمية في سنة الاساس ٥٩ ـ ٦٠ في الخطة الخمسية الاولى ٦٤،٠ مليون جنيه ، ارتفع الى ١٥٠،٦ مليون جنيه في السنة الخامسة من الخطة بزيادة حسب هذا التقدير نسبتها ٦٤،٧ بالمئة (١) .

السنة	ميزانية وزارة التربية والتعليم	نسبة ميزانية الوزارة(٢) الى ميزانية الدولة
٥٢ ـ ٥٣	٢٥،٢١٧،٧٠٠	١٢،٢٤ بالمئة
٥٧ ـ ٥٨	٣٨،٥٥٠،٠٠٠	١٤ بالمئة
٥٩ ـ ٦٠	٤١،٤٢٣،٠٠٠	١٣،٣ بالمئة
٦٥ ـ ٦٦	١٠٦،٤	

وتطور ميزانية الجامعات له دلالته الخاصة (٣)

السنة	ميزانية الجامعات	النسبة المئوية الى ميزانية الدولة
٥١ ـ ٥٢	٣،٩٨٢،٤٦٢	١،٧٢ بالمئة
٥٧ ـ ٥٨	٧،٨٠٨،٥٠٠	٢،٧٧ بالمئة
٥٩ ـ ٦٠	٨،٧٦٩،٠٠٠	٢،٥٣ بالمئة
٦٣ ـ ٦٤	١٤،٩٧٠،٣٠٠	١،٦٥ بالمئة

الخدمة التعليمية لمن ؟.. التوزيع الطبقي

قياس حجم التعليم ، وتطوره الكمي له اهميته الكبيرة في كل بلدان العالم الثالث التي تقاتل ضد تراث التخلف والجمود . والتطور الكمي في ذاته له دلالته الاجتماعية والطبقية والسياسية ، لان الاستعمار والطبقات الرجعية القديمة والرأسمالية العميلة ، كانت تقيم كل السدود في وجه انتشار الثقافة والتعليم في كافة مستوياته. والمكاسب المحدودة التي تحققت بعد الحرب العالمية الثانية في بعض البلدان التابعة انتزعت بشق الانفس وبضغوط وبصراع مرير من جانب الطبقات الشعبية والوطنية ، وكجزء من حركتها الوطنية التحريرية . اما التقدم الملموس الذي تحقق في البلدان الوطنية الفتية في العالم الثالث ، فقد تحقق على يد طبقات اخرى ثورية وتقدمية . ولكن مستقبل الثورة في هذه البلدان ، وتأمين مسيرتها وتقدمها في مواجهة الامبريالية والثورة المضادة ، رهن بمقرطة الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية فيها ، وحصول الجماهير الشعبية على نصيبها العادل المعبر عن دورها الحاسم في بناء الدولة العصرية ذات المضمون الثوري والتقدمي .

ومن هنا فلا يكفي ابدا ان نتابع حركة الكم في التعليم او في اي ميدان اخر ، كما تفعل اجهزة الاعلام عادة في هذه البلدان ، بل يتعين فحص المضمون الطبقي لهذه الخدمة واتجاهات توزيعها .. ذلك هو المعيار الحقيقي لتطور الحركة الثورية في اي بلد من البلدان. وحتى يصبح التعليم اداة تغيير وثورة حقيقية ، فلا بد ان يوضع في يد طبقات صاحبة المصلحة ، والقادرة على التصدي للجمود والتخلف ، وهو المضمون الحقيقي لديموقراطية التعليم ، ولتكافؤ الفرص ، ولكل الشعارات التي تسعى الطبقات الرجعية القديمة والجديدة الى تفريغها من كل مضمون طبقي .

والامر الطبيعي ان البيانات والاحصاءات ، وحتى البحوث الاكاديمية التي تتابع هذا التطور والتوزيع الطبقي واتجاه الخدمة التعليمية ، تكاد تكون معدومة ، بل ولا تخطر للساسة والدارسين والباحثين على بال . ومع ذلك فسنلجأ الى بعض المؤشرات التي تنبيء عن الاتجاه وتعطي بعض الدلالات .

ونبدأ بتوزيع الشهادات الدراسية والتأهيل الفني على السكان كما تدل عليه الاحصاءات الواردة بتعداد ١٩٦٠ وهو اخر ما لدينا في هذا الشأن ، على الاقل من ناحية المنشور والمذاع .

توزيع السكان حسب الحالة التعليمية والنوع في تعداد ١٩٦٠
(للافراد ١٠ سنوات فأكثر)
(بالالف) (٤)

الحالة التعليمية	ذكور	اناث	جملة
امـي	٥٠٤٩	٧٥٣٩	١٢٥٨٨
يقرأ فقط	٨٩	٤٢	١٣١
يقرأ ويكتب	٢٨٣٩	١٠٨٤	٣٩٢٣
مؤهل أقل من المتوسط	٢٠٠	١٠٢	٣٠٢
مؤهل فوق المتوسط وأقل من الدرجة الجامعية	١٧	٧	٢٤
الدرجة الجامعية الاولى او ما يعادلها	١١٥	١٥	١٣٠
دبلوم ممتاز	٩	١	١٠
ماجستير	٢	اقل من ٥٠٠	٢
دكتــوراه	٣	ـ	٣
غير معين	٦٢	٧٧	١٣٩
جملـة	٨٩٨٥	٩٠٦٨	١٨٠٥٣

ولا شك ان الصورة اليوم ، وبعد مضي عشر سنوات على هذا الاحصاء تختلف كثيرا ، خاصة بعد تقرير المجانية سنة ٦٢ ، ووصول الخدمة التعليمية وفي اعلى المستويات الى الاقاليم ، والى فئات فقيرة ، وأحيانا حتى الى ابناء بعض المعدمين في القرية والمدينة. ومع ذلك ، فهذا الاحصاء لا يفقد قيمته او دلالته ، حتى لو اخذ على انه الارضية والتركة التي ورثناها من الماضي ، ونقطة البداية في قياس حركة الحاضر .

ولا يصعب تحديد الدلالة الطبقية لهذا التوزيع في مستويات التعليم والتأهيل ، كما لا يصعب تحديد ابناء من هم الاميون ؟ او الذين يقفون عند حدود الالمام بالقراءة والكتابة ؟ او حملة المؤهلات الجامعية او ما فوقها ، ونصيب ابناء العمال والفلاحين والطبقات الشعبية من هذا كله .

والحقيقة ان دلالة هذه الاحصائية على مستوى الاعداد والتأهيل العلمي والفني للكثرة الغالبة من القوى العاملة المنتجة ، في الريف والمدينة ، قد يكون هو الامر الاخطر ، وأي مقارنة بين هذا الاعداد ومستواه ومثيله في الطبقات العامله والمنتجة في البلدان المتقدمة ، يكشف عن مدى هوة التخلف ، وما تعنيه بالنسبة للانتاج ، ولقضية تطوير القوى الانتاجية ، وهي بعينها قضية الثورة في البلـــدان المتخلفة .

والان فان متابعة حركة التعليم والتأهيل في مستوياته المختلفة، بعد هذا التاريخ في الريف والمدينة ، والمقارنة بين المدن الكبرى والصغرى ، والمحافظات الغنية والفقيرة يكشف لنا في الحقيقة عن اتجاه الخدمة التعليمية ، ومدى وصولها الى الكتلة الكبيرة من الشعب المنتج من العمال والفلاحين والفئات الصغيرة ، ومدى ما تحقق لكتلة الشعب العامل من المعرفة والعلم في المستوى الذي يستحيل بدونه انجاز الثورة العلمية والتكنولوجية وعبور هـــوة التخلـف .

١ ـ سنوات التحول الاشتراكي وتقييم الخطة الخمسية الاولى ـ علي صبري .

٢ ـ تاريخ ونظام التعليم في ج.ع.م تأليف د. رشدي لبيب وزملائه . زيادة السكان في ج.ع.م ـ الجهاز المركزي .

٣ ـ التعليم العالي في ١٢ سنة ج.ع.م ـ وزارة التعليم العالى

٤ ـ الاحصاء السنوي للجيب ١٠٦٢

احصاء مقارن لعدد التلاميذ بالابتدائي لكل الف من السكان (١)
بالمحافظات المختلفة (اخترنا بعض المحافظات ذات الدلالة)

المحافظات	عدد الاطفال الملزمين من ٦-١٢ المقابل لكل الف من السكان	عام ١٩٦٢ - ٦٣ عدد التلاميذ لكل الف	نسبتهم من عدد الملزمين	٦٣-٦٤
القاهرة	١٦٦	١٤٠٫٤	٨٤٫٦	١٤٦
الاسكندرية	١٧٣	١٤٣٫٣	٨٢٫٨	١٥٠
طنطا	١٧٢	١٢٠٫٢	٦٩٫٩	١٢٥
كفر الشيخ	١٨٠	٧٦٫٣	٤٢٫٤	٨٧
الزقازيق	١٦٩	٩٩٫٠	٥٨٫٦	١٠٣
المنيـا	١٤٩	٨٣٫٧	٥٦٫٢	٨٩
اسيوط	١٥٩	٨٨٫٣	٥٥٫٥	٩٣
سوهاج	١٦٠	٧٣٫٠	٤٥٫٦	٧٩
قنـا	١٥٥	٦٥٫٩	٤٢٫٥	٦٩

فاذا تابعنا السلم التعليمي كانت هذه الفروق اكثر وضوحا :
توزيع التلاميذ بمراحل التعليم وأنواعه بالمحافظات

عدد التلاميذ لكل الف من السكان ٦٣ - ٦٤ (٢)

		الاعدادي العام	الثانوي العام	الثانوي الفني
القاهرة		٢٧	١١	٥٫٥
الاسكندرية		٢١	١٠	٥٫١
دمنهور		١٠	٢	١٫٨
طنطـا		١٤	٤	٣٫٥
كفر الشيخ		٩	٢	١٫٢
الزقازيق		١٤	٤	٢٫١
الجيزة	١٥	١٥	٧	٢٫٩
الفيوم		٨	٢	٢٫١
بني سويف		١٠	٣	٢٫٧
المنيا		٨	٢	١٫٩
اسيوط		١٠	٣	٢٫٢
سوهاج		٧	٢	١٫٦
قنـا		٧	١	١٫٠
اسوان		٧	٣	٣٫٧
المتوسط العام		١٤	٥	٣٫٠

ودلالة هذه الارقام ليست مجرد فروق بين القرية والمدينة او بين المحافظات الحضرية والريفية كما تصور الاحصاءات التقليدية، بل هي دلالة طبقية في الاساس . فلا شك ان هيمنة القاهـــرة والاسكندرية وفوزهما بنصيب الاسد من الخدمة التعليمية ، خاصة اعلاها ، والفروق الشاسعة بين المحافظات الحضرية والريفية ، الغنية والفقيرة ، يكشف عن حقيقة الطبقات المنتفعة بالتعليم . فالفائز بكل الفرص في المدينة هم ابناء البورجوازية في الاساس كبيرهـــا وصغيرها . اما الطبقة العاملة وأبناؤها فتشق طريقها بشق الانفس، اما الكتلة الساحقة من الفلاحين فلا زالت كما هي الى حد كبيـــر مهضومة الحق .

ويؤكد هذه الحقيقة تركيب الهرم التعليمي ، والقمة الضيقة جدا بالقياس الى القاعدة . ففي ظل الاوضاع السائدة في التعليم ، والتدهور الشديد في مستوى التعليم الابتدائي ، ووجود حواجز قوية بين مراحل التعليم ، تتمثل في الامتحانات العسيرة ، والتي يتعذر النجاح فيها والتفوق الا عن طريق الدروس الخصوصية الباهظـــة التكاليف ، فان اجتياز هذه الحواجز ومواصلة التعليم حتى مستوياته الرفيعة ، يكاد يكون متعذرا الا في القليل لغير ابناء القادرين مـــن البورجوازية وابناء الطبقات الجديدة بالأخص .

وتزيد الصورة اكتمالا بالتعليم الخاص والدور الذي يقوم به في التعليم ، وهو لا يخرج عن كونه في بعض قطاعاته انتهاكا صارخا لمبدأ المجانية وتكافؤ الفرص ، وتأكيدا للتمايز الطبقي وتعميقا له وتكريسا.

والواقع ان التعليـم الخاص بمصروفـات فـي مصر يشمل ثلاثة انواع : نوع يقوم به الاتحاد الاشتراكي عن طريق فتح فصول مسائية ملحقة بالمدارس في مقابل اجر زهيد ، وهو نوع مفيد حقا ، يساهم في توسيع فرص التعليم ، ويستفيد منه في الاغلب ابناء الفئات المتوسطة الصغيرة والعمال في المدن ، وهو نموذج للخدمة الطيبـــة والمفيدة وان كانت تحتاج الى تحسين وتطوير ، وهي تتيح فرصـــا للطبقات الشعبية قد تقصر عنها امكانيات الدولة والوضع السائد في التعليم .

ونوع ثان من هذا التعليم ، هو ضرب من التجارة الرخيصة ، ضحاياه عادة من ابناء الفئات السابقة في الاغلب ، وهو نوع رديء ومنحط من التعليم ، عائده تافه ، وضرره كبير ، لانه يقوم علـــى استغلال المعلمين والطلاب ، لا يتيح فرصا حقيقية للنجاح او التقدم في التعليم ، ولكن الفئات البورجوازية الصغيرة واحيانا العمـــال تضطر الى الالتجاء اليه بعد ان تضيق في وجه ابنائهم فرص التعليم.

اما النوع الثالث فهو اخطرها ، وهو قطاع طبقي صارخ علـى رأسه مدارس اللغات ، التي تصل المصروفات في بعضها الى حوالي ١٠٠ جنيه ، والمدارس القومية ، وكلاهما يتبع للأسف نقابة المعلمين!!. ومدارس اللغات هي في الحقيقة وريثة كليات فكتوريـــا والمدارس الاجنبية المميزة الملغاة التي كانت تعد ابناء الطبقات القديمة لأرفع المناصب ، وقد استولت عليها في الحقيقة الطبقات الجديدة المسيطرة وحولتها الى تعليم مميز مترف يؤدي نفس الغرض القديم ، ينيـــح لابنائها فرصا تقصر عنها مدارس الدولة عادة .

وتطور نسب الالتحاق بمدارس التعليم الخاص بمصروفـــات بالمرحلتين الاعدادية والثانوية خاصة فـي الستينات يكشف عن تمسك فئات البورجوازية كبيرها وصغيرها بالتعليم كوسيلة للامتياز الطبقي وذعرها من اي محاولات لتضييق فرص القبول خاصة بانواع التعليم النظري الراقي ورفضها محاولات توجيه التعليم وجهة عملية فـــي التعليم الفني الذي لا زالت تنظر اليه نظرة احتقار . وارتفاع نسبة الالتحاق بمدارس اللغات والمعاهد القومية المميزة التابعة للنقابة ، وعلى وجه الخصوص في الستينات يتمشى مـع ازدهـــار الطبقـــة الجديدة وفئات الفنيين والتكنوقراط التي تولت مراكز السلطـــة والتوجيه في القطاع العام وأرادت ان تضمن لابنائها افضل الفرص، وأجود تعليم .

نسبة المقيدين بالتعليم الخاص بمصروفات الى جملة المقيدين بالمرحلة

السنة الدراسية	النسبة المئوية للمقيدين بالتعليم الاعدادي الخاص بمصروفات	النسبة المئوية للمقيدين (٣) بالتعليم الثانوي الخاص بمصروفات
٥٦ - ٥٧	٤٫٦ بالمئة	١٫٥ بالمئة
٥٧ - ٥٨	٧٫٢ بالمئة	٤٫٦ بالمئة
٥٨ - ٥٩	١٢٫٣ بالمئة	٦٫١ بالمئة
٥٩ - ٦٠	١٦٫١ بالمئة	٧٫٤ بالمئة
٦٠ - ٦١	٢١٫٠ بالمئة	١٠٫٢ بالمئة
٦١ - ٦٢	٢١٫٩ بالمئة	٩٫٨ بالمئة
٦٢ - ٦٣	٢٣٫٦ بالمئة	١٠٫٥ بالمئة
٦٣ - ٦٤	٢٥٫٢ بالمئة	١٢٫٩ بالمئة

١ - دراسات وبحوث احصائية ١٩٦٥ ج.ع.م وزارة التربية والتعليم
٢ - المرجع السابق
٣ - دراسات وبحوث احصائية - ج.ع.م وزارة التربية والتعليم ١٩٦٥

ان الصورة العامة لتوزيع الخدمة التعليمية واتجاهاتها ، في كل مستويات التعليم وأنواعه ، ليست الى تقريب الفوارق بين الطبقات ، ولا تقريب الفوارق بين القرية والمدينة ، ولا الى الارتفاع بثقافة الشعب العامل في الحقل والمصنع الى مستوى متطلبات الانتاج الحديث ، واطلاق طاقاته الخلاقة ، وهو شرط تحقيق الثورة في القوى الانتاجية . الاتجاه على العكس يخدم تكريس الفروق الطبقية ، وتأكيد التمايز الطبقي عن طريق التعليم لابناء البورجوازية وبالأخص فئاتها الجديدة من الفنيين والتكنوقراط والبيروقراطيين والاغنياء الجدد .

الصراع في التعليم

لقد كان التعليم دائما ابدا محلا لصراع لا يهدأ ، ويحتل حيزا ليس بالقليل في الصراع الوطني والاجتماعي والسياسي منذ فجر الثورة المصرية . لقد اراده كرومر سلاحا في يده لتوطيد السلطة البريطانية ، وحجب المعرفة عن الكتلة الساحقة من الفلاحين والعمال، وخلق فئة من الموظفين محدودي الأفق والتابعين ، اما البورجوازية المصرية الثورية فقد جعلت منه سلاحا في يدها ضد المستعمر، ولتأكيد قيادتها للحركة الشعبية الثورية ، وتطلعت اليه البورجوازية الصغيرة بالذات في ظل حكم الاستعمار والاقطاع والرأسمالية ، وسيلة ليس غيرها وسيلة للصعود في السلم الاجتماعي ، وللامتياز عن طريق الشهادات والاوراق ، حيث تعز وسيلة الارض والمال والثروة . ومن هنا التقى في الحقيقة هدفان متعارضان ، هدف الاستعمار في خلق فئة الموظفين المميزة والتابعة من حملة الشهادات ، وهي اوراق توسع الهوة بينهم وبين جماهير الشعب الواسعة ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى هدف فئات واسعة من البورجوازية التي لم تكن ترى وسيلة اخرى للامتياز وللحصول على العمل والجاه سوى هذه الاوراق والشهادات .. كل ذلك على حساب القيمة الحقيقية ، قيمة العمل المنتج . بهذا تعمقت في تراثنا وقويت قيمة الشهادات والمؤهلات باعتبارها وسيلة تصنيف الطبقات الى جانب الثروة .

وبرغم هذه القيمة المتخلفة فقد ظل التعليم مسرحا للصراع ، وسلاحا قويا في يد الوطنيين ضد سلطة الاستعمار والاقطاع .. كان هدف الوطنيين دائما توسيع الفرص حيث يضيق الاستعمار على التعليم ، ونشره واذاعته بكل السبل ، وتأكيد مكانة اللغة القومية والمناهج القومية ضد طغيان اللغة الانجليزية والمناهج الاستعمارية .. ولا زالت مقالات طه حسين على صفحات جريدة السياسة في العشرينيات ، وغيره كثيرين ، وكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» صفحات مشرقة في تاريخ الكفاح التعليمي والفكري ضد المستعمر .

ولكن المعركة في العشرينيات والثلاثينيات كانت سافرة بين الاستعمار والوطنيين ، محورها نشر التعليم او تضييقه ؟ اللغة الانجليزية ام العربية ؟ الثقافة الوطنية ام الثقافة الاستعمارية ؟ .. اما بعد الحرب العالمية الثانية ، واحتدام الصراع الطبقي ، وبروز دور الطبقة العاملة في الثورة المصرية ، وتعاظم دور الجماهير الشعبية، ومن الجانب الاخر اشتداد مقاومة الطبقات الرجعية العميلة، والاجنحة اليمينية المعادية للحركة الجماهيريه ، فقد استقطب تياران متمايزان في التعليم : احدهما تبنته البورجوازية الوطنية المصرية الثورية ، ومعها كل الطبقات الشعبية ، وجسده طه حسين في شعاره المعروف ، ووضعه في التطبيق بمجانية التعليم الثانوي ، وفتح ابواب التعليم على مصاريعها .. وكان هدفا تلتقي عنده العديد من المصالح والطبقات .. فهو هدف البورجوازية الوطنية التي تريد الاستقلال والتحرر وبناء دولتها واقتصادها الوطني ، كما انه هدف تلك الفئات من البورجوازية الصغيرة التي لا زالت تسعى الى الشهادات باي ثمن ، ولا ترى غيرها للحصول على الاعتبار الاجتماعي ، وكذلك هو هدف اصيل للطبقات العاملة المنتجة المتعطشة الى النور والمعرفة والتي تحس بوطأة الامية والجهل .. ومن هنا التف حول هذا الشعار بالذات اوسع الجماهير .

اما التيار الاخر فقد صاغ نظريته مرب له تاريخه الثوري في التعليم ابان ثورة ١٩ وفي العشرينيات ، وله مساهماته الاصلاحية المتقدمة في تلك الفترة في ميدان الفن التربوي وتطبيقاته وطرقه ووسائله الحديثة ، ونعني به اسماعيل القباني . ولكن هذا المربي كان ينتمي الى تلك الفئة من المثقفين والموظفين المصريين ، التي انعزلت عن تيار الحركة السياسية الوطنية ، وانغلقت على فنها وممارساتها التربوية ، وتجاربها التي تخيلت ان فيها علاجا لكل ادواء التخلف . هذا التيار لعزلته وبعده عن المعترك السياسي وانحصاره داخل اطار فنه التربوي خطف ابصاره الوافد الجديد الامريكي بمبادئه التي تقدم بها الى الشعوب بعد الحرب الثانية ، وقبل كل شيء بنظرياته وتطبيقاته التربوية المتقدمة ، وسطوة فلسفة جون ديوي بالذات البراجماتية في الميدان التربوي . ارتبط فكره وفنه بقوة بهذا الوافد الجديد ، وتبنى بالكامل النظريات البراجماتية في الفلسفة والتربية ، بعيدا عن الاهتمام او الوعي الواضح بالاهداف القومية ، ومتطلبات الثورة الوطنية . ومن هنا كون هذا التيار نواة الفنيين والتكنوقراط التربويين المنعزلين ، وسقط هو ومدرسته فريسة سهلة في يد الطبقات الرجعية العميلة وأحزاب السراي التي لم يكن في مقدورها في الاربعينيات والخمسينيات ابان تصاعد المد الوطني ان تعبر عن آرائها التعليمية بصراحة . ولذلك وجدت في فلسفة القباني واتجاهاته مطية سهلة . كانت شعاراته : الكيف قبل الكم ، والطرق والوسائل التربوية والتجارب الجديدة بدل السياسة .. واصبح هذا التيار اليميني هو القطب المقابل لطه حسين الوطني والتقدمي والشعبي ، وتلخصت المعركة بينهما في : الكم ام الكيف في التعليم .. وكانت في حقيقتها تعني : هل التعليم للشعب، ام للصفوة الممتازة .. هل هو اداة ديموقراطية ، ام اداة تكريس للامتيازات الطبقية ؟

كان هذا وجه المعركة في التعليم عندما قامت ثورة يوليو . وقد تولى اسماعيل القباني وزارة التربية والتعليم في سبتمبر سنة ١٩٥٢، بعد الثورة بشهور ، وظل بها حتى يناير سنة ١٩٥٤ ، ولعل توليه كان لاكثر من سبب : فبرغم اهداف الثورة الوطنية والمعادية للاستعمار والاقطاع منذ البداية ، الا انها لم تكن تملك ايديولوجية وفكرا واضح المعالم ، ولا نظرة اجتماعية مستقطبة ، بل كان يسود بعض قادتها اتجاهات فكرية يمينية قوية خاصة في ميدان الفكر والتطبيق الاجتماعي ، وفي النظر الى حركة الجماهير الشعبية ، مما يلتقي واتجاهات القباني ، ولعل من ابرز المعبرين عن هذا الفكر اليميني والمحافظ كمال الدين حسين الذي تولى هذه الوزارة فيما بعد ، وخلف تراثا رجعيا عميقا داخل الوزارة يحتاج اقتلاعه الى جهد كبير . ولعل الصعوبات الاقتصادية والمشاكل في بداية الثورة ، كانت مما لا يتحمل اتجاهات طه حسين وسياسته الشعبية الليبرالية في التعليم ، وكانت افكار القباني واتجاهاته للحد من التوسع في التعليم اقرب منالا .

لم يكد اسماعيل القباني يتولى الوزارة حتى شرع فورا في محاولة ازالة كل آثار سياسة طه حسين ، وفي وضع القوانين واللوائح والنظم التي جسدت كل فلسفته : (1)

في قانون سنة ١٩٥٣ وحد القباني المدرسة الابتدائية الالزامية لجميع الاطفال ، وهو شرط ضروري من شروط ديموقراطية التعليم ،

---

1 ـ راجع مقالنا عن التعليم والثورة ـ مجلة الكاتب العدد ٦٨ نوفمبر سنة ١٩٦٦

ولكنه وحدها في الحقيقة على الورق ، وبدلا من ان يكمل الخطوات التي كان قد اتخذها طه حسين في اتجاه توحيد المدرستين الابتدائية والالزامية ، انتكس بها ، ووضع قانونا ظاهره التوحيد وحقيقته الازدواجية في النظام التعليمي : فقد قسم مراحل التعليم الى ثلاث، ابتدائية واعدادية وثانوية ، ووحد المدرسة للجميع حتى السنة الرابعة الابتدائية ، وبعد الرابعة ابتدع نظام امتحان القبول العسير للمرحلة الاعدادية ، وبذلك اصبح ابناء الامة في سن الالزام من ١٠-١٢ يتوزعون بين مدرستين : الابتدائية وهي في حقيقتها المدرسة الالزامية القديمة وتنتهي الى لا شيء ، حتى ولا ورقة ، والاخرى الاعدادية وهي في حقيقتها المدرسة الابتدائية القديمة الممتازة بلغة . الاولى تضم الاغلبية الساحقة من الابناء تعدهم بلغة القباني للحياة العملية في الحقول والمصانع ، ولكنها طريق مسدود تماما لا يسمح بمواصلة الدراسة في اي مرحلة ارقى ، والاخرى للقلة الممتازة بلغته ايضا ، وهي الطريق الواسع الى انواع التعاليم الراقية . وحقيقة الامر ان الاولى لابناء العمال والفلاحين الذين حكم عليهم بالعمل مدى الحياة دون ادنى حق في مواصلة الدراسة والاخرى لابناء الطبقات الممتازة، للصفوة . ولتبرير سياستها راحت هذه المدرسة الرجعيةتثير الضجيج حول الكيف المتدهور في التعليم نتيجة سياسة الباب المفتوح ، ونادت بحق التعليم ومواصلته للقلة من الاذكياء ، وقدمت اختبارات الذكاء وروجت لها ، ولم يكن هذا يعني في التطبيق سوى حرمان ابناء الشعب العامل ، من فرص التعليم الراقي ، والوقوف بكتلة العاملين عند اولى درجات السلم الفكري والثقافي والاجتماعي ايضا .

هذا الفكر وضع في التطبيق وادت القوانين الجديدة الى تقلص واضح ، وتضييق في كل مراحل التعليم وانواعه ، وبالاخص مستوياته ومراحله الرفيعة ، والتي تبدأ بالمرحلة الاعدادية . وقد اصبحت هذه المرحلة بالذات ، والمفروض ان تكون تتمة لمرحلة الالزام وامتدادا لها ، اصبحت هي وامتحانات القبول العسيرة على ابوابها بمثابة صمام الامان ، و((المحبس)) الذي يوقف تدفق الجماهير الغفيرة صوب انواع التعليم الراقية . وعلى سبيل المثال فقد اصبح بالمدارس الاعدادية الجديدة (٥٣/٥٤) ٣٤٨٬٥٧٤ تلميذا بينما كانت قاعدة التعليم في الابتدائي في نفس العام تضم ١٬٣٩٢٬٧٤١ تلميذا، وفي ٥٤-٥٥ هبط العدد بالاعدادي الى ٣٤٦٬٣٧٦ تلميذا بالمقارنة بالقاعدة في الابتدائي وهي ١٬٥٨٠٬٠٨٩ تلميذا وفي ٥٥/٥٦ اصبح بالاعدادي ٣٢٨٬٤٤٧ بينما كان بالابتدائي ١٬٨٦٠٬٩٤٢ تلميذا وهو ما يكشف عن نوعية هذه المصفاة الطبقية التي اقيمت على ابواب التعليم، كما يكشف عن مدى ضيق القمة التعليمية التي ترتبت على تطبيق هذا النظام ، هذه القمة التي تعد الفنيين والعلميين والمتخصصين والمثقفين من كل نوع ، هذا في بلد متخلف ، يشكو من امية غالبة ، ولا يملك اكثر من صناعة ناشئة ، واقتصاد تابع لا يزال يكافح من اجل الخلاص من السيطرة الاستعمارية . كان يعني هذا في التطبيق الاخذ بمبدأ كرومر في فتح الكتاتيب بدل الجامعات !!

ولكن احداث سنة ٥٦ الكبرى ، والمعركة المجيدة التي خاضها الشعب ، وبالتحديد جماهيره العاملة ، جاءت لتكتسح مثل هذه السياسات . كان من المستحيل ان تصمد هذه السياسة الرجعية في الوقت الذي تسترد فيه البلاد سيطرتها على امورها ، وتمصر المصالح الاجنبية ، وترسي اساس اقتصاد وطني مستقل ومتقدم ونام ، وتخطط للتوسع في استغلال الثروات القومية .

ففي اعقاب النصر سنة ٥٦ قضي على جوانب هامة من القوانين القبانية : توحدت المدرسة الابتدائية لجميع الاطفال من سن ٦ - ١٢ وقضي على مظاهر الازدواجية والثنائية في التعليم بالصورة الصارخة. وبدأت الحياة تدب من جديد في النظام التعليمي المجمد ، وتتكسر العديد من القيود والسدود : تفتح التعليم الثانوي من جديد لاعداد اكبر ، وتفتحت الجامعات ، وانشئت جامعة اسيوط ، وبدأ العمل في كلياتها العملية في اكتوبر سنة ١٩٥٧ .

ومع بدء خطط التنمية ومشروع السنوات الخمس الاول ، وصدور قوانين التأميم ١٩٦١ ، والاندفاع في طريق بناء الاقتصاد الوطني والصناعة الوطنية المتقدمة ، حدثت طفرة جديدة وكبيرة في التعليم، وكان الانعكاس المباشر لها في حقل التعليم المجانية الشاملة التي اعلنت في عيد الثورة العاشر . واقترنت هذه الفترة ايضا بدفعة كبيرة في اتجاه تعميم الالزام ، فتقررت الدراسة على فترتين في الابتدائي للتغلب على مشاكل العجز في الابنية وهيئات التدريس . كما قفزت ارقام ميزانية التعليم وعدد الطلاب في جميع المراحل . ومراجعة الارقام في صدد هذا المقال وتطورها في هذه السنوات ، يكشف عن الارتباط الوثيق بين الانجازات الهامة في التعليم وانتهاج سياسة وطنية وتقدمية ، وبناء صناعة وطنية ، والمضي في خطط التنمية ، وبناء الاقتصاد الوطني .

ولكن اسماعيل القباني لم يخلف نظاما تعليميا بعينه ، اكتسحه انتصار ٥٦ ، بل خلف مدرسة كاملة من المفكرين الفنيين والتكنوقراط التربويين والخبراء التي سيطر على كل اجهزة التعليم . هذه المدرسة التي سقطت في الماضي في قبضة السراي والرجعية ، اصبحت فيما بعد مطية للاجنحة اليمينية في الثورة التي لا تثق بحركة الجماهير الشعبية ، وتؤمن بافكار الصفوة ، وكان المعبر الصادق عنها داخل وزارة التربية والتعليم الوزير كمال الدين حسين التي استظلت بظله هذه السياسة الرجعية سنوات طويلة . هذه السياسة تخدم في الاساس الطبقات الجديدة من الفنيين والتكنوقراط والبيروقراطيين والاغنياء الجدد ، الذين يخشون حركة الجماهير ويريدون التعليم اداة لتكريس امتيازاتهم الطبقية . هذا التيار استمر هو المسيطر والمهيمن على رسم سياسة التعليم ، ولذلك طلع علينا سنة ١٩٦٦ تقرير خطير عن سياسة التعليم ، صدر عن اللجنة الوزارية للقوى العاملة . والمفروض ان يرسي التقرير مبادىء اعداد القوى العاملة والتخطيط لها ، القوى الفنية المدربة والضرورية لبناء دولة عصريةذات مضمون تقدمي في عصر الثورة العلميةو التكنولوجية، ولكنه في الواقع لم يخرج عن كونه تجسيدا جديدا و((تنفيرا)) للفلسفة اليمينية والرجعية التي صاغها في الاصل القباني ومدرسته .

والتقرير يقوم على اساس الحد من تدفق الكتلة الكبيرة من العاملين في اتجاه انواع التعليم الراقية ، ويحدد نسبا للقبول بمختلف المراحل طابعها التوقف والكف ، ويفهم التخطيط في القوى العاملة ، لا باعتباره اعادة توجيه للقوى بما يتفق واحتياجات اقتصاد نام ومتطور ، بل على انه اقامة قيود وسدود في وجه التوسع في التعليم .

والتقرير يستند الى المزاعم القديمة ، والتي ظلت تتردد منذ قبل الثورة عن فيوض الخريجين عندنا في المستويات العليا ، ويسجل جداول وهمية تثبت زيادة الفنيين في كثير من التخصصات ، وحتى في العلميين وخريجي كليات العلوم !! هذا في بلد متخلف ، يشكو اول ما يشكو من ندرة العلم والعقلية العلمية . وقد اثبتت الاحصاءات والاحتياجات العملية فيما بعد فساد الحسابات التي يستند اليها .

واكثر من هذا اهمية انه لا يرى في التخطيط سوى اعداد جداول وارقام من البشر لسوق العمل على اساس قيمة واحدة هي العرض والطلب ، ولا يرى على الاطلاق دور الثقافة والتعليم ، وضرورة نشره على اوسع نطاق لاعداد القاعدة البشرية العريضة على مستوى حضاري وفكري يلبي احتياجات الثمرة العلمية والتكنولوجية .

هذا الفكر لا يزال عميقا قوي الجذور ، تدعمه الفئات والطبقات الجديدة ، وكبار الفنيين والساسة الرجعيين .

في المحتوى والمضمون

الناصرية كثورة وطنية تقدمية ، تعادي الاستعمار وتؤمن بالتغيير الاجتماعي وتهدف الى بناء الدولة الوطنية العصرية .. انعكست بوضوح في مناهج التعليم .. ولا شك ان الكثير من التغييرات التي طرأت على المناهج في سنة ١٩٥٧ عقب هزيمة العدوان ، وفي ٦١/٦٢ ثم المناهج المطورة ٦٧/٦٨ كلها تعكس المفاهيم الوطنية المعادية للامبريالية وسياسة التحرر والسلام والتطلع الى التغيير الاجتماعي والعدالة الاجتماعية ، والعداء الطبقات القديمة الافطاعية والرأسمالية العميلة ، كما تعكس الطموح العلمي ومحاولات ادخال الفكر العلمي والنظرة العلمية في المدارس .

ولا شك ايضا ان تطوير الازهر وانشاء الكليات العلمية بالجامعة الازهرية خطوة هامة في هذا الانجاه .

ولكن مفهوم الدولة العصرية ، ومستقبل الحركة الثورية ، كان ولا يزال محل صراع حاد وضار ، هو صورة من الصراع الذي لا يهدأ في كل بلدان العالم الثالث في الحقيقة ، وبالاخص في الدول الوطنية الثورية ، صراع بين تيارين في الحركة الوطنية : تيار تقدمي يعبر عن المصالح الحقيقية للشعب العامل والمثقفين الثوريين وقطاعات واسعة من البورجوازية الصغيرة الثورية ، وهو يرى بوضوح ان طريق الرأسمالية والنمو الرأسمالي في الدول النامية طريق مسدود تماما ، كما يرى حتمية التحول في الطريق الاشتراكي اذا ارادت هذه الدول ان تسير بخطاها الى الامام وأن تحقق حلمها في الدولة العصرية المتقدمة .. ومن هنا فمفهوم هذا التيار عن الدولة العصرية وعن التقدم هو مفهوم اشتراكي في الاساس ، ومضمون الدولة التي تتطلع اليها والتقدم هو مضمون ثوري اشتراكي .

اما التيار الثاني فهو المعبر عن القوى والاجنحة اليمينية الرجعية والمصالح الرأسمالية النامية والطبقات الجديدة بوجه خاص ، والتي تعادي حركة الجماهير الشعبية ، والديموقراطية ، وتغلف هذا العداء وتستره تحت مظاهر العداء للشيوعية ، وهي في الحقيقة تعادي الاشتراكية العلمية ، وتعادي التقدم الاجتماعي ، وتسعى الى عرقلة الحركة الثورية والوقوف بها عند حدود مصالحها الطبقية الضيقة ، فتنزع الى الجمود والمحافظة ، وتتطلع على الدوام الى النموذج الغربي الرأسمالي والامريكي على وجه الخصوص في بناء دولتها العصرية ، ولا تتصور هذه الدولة الا في الاطار الرأسمالي . ولذلك فهذا التيار مهادن ، يتحلب ريقه الى المصالحة والاتفاق مع الاستعمار الجديد . سمة هذا التيار الاساسية التهادن والعداء الشديد للحركة الجماهيرية ، ومن ثم يعادي النظرة الاجتماعية العلمية ، التي تعمق وعي الجماهير الشعبية بحركتها التاريخية .

هذا الصراع المحتدم بين التيارين في كل سني الثورة ، اعطانا ايضا تيارات وسطا ، ومحاولات للتوفيق وتهدئة الصراع ، وسياسات سمتها التذبذب والغموض وفقدان الاتجاه .

هذا الصراع الاجتماعي كله ينعكس في الحقيقة وبعمق في محتوى التعليم ومضمونه ، في المناهج والخطط الدراسية : ولكن السيطرة الحقيقية داخل اجهزة التعليم كانت على الدوام للاجنحة اليمينية ، وفكرها دائما اكثر سيطرة على الفنيين والتكنوقراط التربويين ، وذلك بتاثير النفوذ العميق لفكر القباني ومدرسته المعبر عن التيار الاميركي في التربية ، وبالتأثير الاشد للتراث الرجعي المحافظ والذي ظل مسيطرا على هذه الوزارة في اكثر تاريخها وقد ارسى دعائمه بعناية ووعي كرومر ودنلوب والمدرسة الانجليزية والاحزاب الرجعية القديمة .

اما مناهج المدرسة المصرية فهي انعكاس ومرآة لهذا الصراع كله ، وهي تتمزق تحت وطأته ، ويفقد واضعو المناهج والكتب الدراسية ، وهم في جملتهم وطنيون مخلصون ، ومهنيون امناء على مهنتهم ، الانجاه . ونتيجة العزلة الشديدة المضروبة على حركة المعلمين ، وارهاب العداء للشيوعية ، ووطأة النقابة الرجعية التي حرص على تكوينها برسم وتخطيط الوزير الرجعي كمال الدين حسين، وحشدها بكل صنوف التخلف والجمود الفكري ، بل وببعض العناصر التي خدمت احزاب السراي ، لهذه الاسباب كلها فالفكر اليميني خاصة في الحقل الاجتماعي ، وفي النظرة الاجتماعية هو الغالب على واضعي ومخططي المناهج وكذلك على مؤلفي الكتب .

فالمناهج ينعكس فيها بلا شك الفكر الوطني المعادي للامبريالية، وسياسات التحرر الوطني والسلام ، ولكن الفكر الاخر المعادي للاشتراكية ، تحت رداء العداء للشيوعية ، يجد طريقه ايضا الى نفس الصفحات ، ويجمع المنهج الواحد ، والكتاب الواحد بين معاداة الاستعمار والدعوة الى معاداة الشرق والغرب كليهما معا ، ذم الاستعمار والامبريالية ، وذم الشيوعية ايضا ، فضح السياسة الامريكية الاستعمارية ، وتمجيد نموذجها وفكرها في نفس الآن .. الدعوة الى الفكر العلمي والاخذ بالمنهج العلمي وسيطرة الغيبيات والفكر المتخلف من الناحية الاخرى . ونحيل القارىء على مناهج وكتب اللغة العربية والمواد القومية والاجتماعية ، والفلسفة والاجتماع ...

ونستطيع ان نتبين بوضوح ، بمراجعة سريعة لمناهج وكتب اللغة القومية والمواد القومية وبالأخص التاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع الطابع الوطني المحدود الذي يسيطر عليها ، والذي يقف عند حدود مفهوم الثورات الوطنية في القرن الماضي او بداية القرن العشرين على اكثر تقدير ، ويحتبس داخل الاطار البورجوازي ولا يستطيع ان يعبره الى فكر القرن العشرين ، الفكر الثوري التقدمي والعلمي ، والذي يلاحم بين الفهم الوطني والتحليل الاجتماعي والطبقي. لا زال فكر العشرينيات والثلاثينيات بالأخص الاجتماعي هو المنظور الغالب في الادب العربي والمواد الانسانية والاجتماعية .

وهذه في الحقيقة هي العلة في عزلة هذه المناهج وفشلها وضعفها وانصراف الطلاب عنها ، وعجزهم عن التجاوب معها ، تلك الظواهر التي يعترف بها ويشكو الجميع .

اما التربويون ، والفنيون ، والتكنوقراط داخل الوزارة فلا يرون العلة الا في عجز الوسائل التربوية الحديثة ، ويضعون العلاج دائما لربط المناهج بالحياة في استخدام اساليب التربية الحديثة وطرقها ، والتقنيات الحديثة في الميدان التربوي بالتوسع في استخدام السينما والاذاعة والتلفزيون والوسائل والاجهزة السمعية والبصرية ، وكلها بلا شك مطلوبة ومفيدة . ولكن الشيء الذي لا يستطيعون ان يروه لعزلتهم السياسية والاجتماعية .. ان وسائلهم الحديثة هذه كلها لا تجدي ولن تجدي مع المناهج والكتب في وضعها الراهن . لان كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والمجتمع العربي تقف عند مفاهيم القرن الماضي ، وعند الثورة الفرنسية والانجليزية والاميركية وتقدمها نموذجا للثورات في العالم !! فلا تستطيع ان تقدم للتلاميذ الاجابات على تساؤلات العصر وقضاياه التي تطرحها اليوم ثورات آسيا وافريقيا وعالمنا المعاصر ، ومن ثم لا تستطيع ان تحرك عقولهم او قلوبهم ، او ترتبط في قليل او كثير بدوافع حياتهم وشواغلهم . هذا هو الجذر الدفين لعزلة المناهج عن الحياة ، وليست هي عزلة عن وسائل التربية الحديثة او قصورا في استخدامها ،كما يتخيل التربويون والفنيون .. نفس القضية بالضبط التي تواجهها ايضا في الحقل الثقافي ، في الكتاب والصحافة وعلى خشبة المسرح، وشاشة السينما . الاعمال التي تعجز عن شد انتباه الجمهور ،او اثارة اهتمامه وفكره هي الاعمال التي تقصر عن طرح قضايا العصر او تفهم ابعادها الحقيقية . العلة في الاساس في المضمون رغم اهمية

الشكـل .. وسيظل الفكر المعزول والمتخلف عن العصر لا يحرك عقلا ولا قلبـا ، لا في الكبار ولا في الصغـار .

وتحت تأثير الفكر المتخلف والبراجماتي على وجه الخصوص الذي يريد العلم بلا فلسفة ، والتجريب بلا نظرية ، وهو الفكر الـــذي اشاعته المدرسة القبانية البراجماتية ، تحت هذا التأثير تتراجع المواد الانسانيـة الى الوراء ، ولا تحتل الدور الذي ينبغي ان تقوم به فـي بناء وعي المواطـن ونظرته . ولذلك فمـن السمات الاساسية في خطط الدراسـة سواء في التعليم العام او الفني ، قلة الدروس المخصصة للعلوم الانسانيـة . ففي خطـة الدراسـة في التعليم الثانوي العـام تقف مناهج العلوم الانسانيـة عند الصف الاول لتستمر فقط بالقسـم الادبي ، وتستبعـد تمامـا من القسم العلمي ، فيمـا عدا درس واحد للتربية القومية ، وحتى هذه المادة بدأت تتناهبها الانواء .. ولا مكـان في قسم العلوم الذي يضـم الاغلبية الساحقـة من الطلاب لمواد التاريخ او الجغرافيا او الفلسفة .. وبذلك يعزل التكويـن العلمي للطالب،عن تكوينه الانساني ،وبناء وعيه ، ممـا يضعف تكوينه العلمي نفسه .

وفي المدارس الثانويـة الفنيـة تشمل الخطـة المواد الثقافيـة العامـة في حدود الصف الاول فحسب .

المناهج بهذا الوضع تعبير عن الفهم التكنوقراطي المتخلف ،وعقلية الفنيين المتخصصين المعزولين عن العمل السياسي والحركة الاجتماعية. ونكتفي بهـذا القدر في هذا الموضوع الخطير الذي يحتاج الى التمعن حتى في التفاصيـل . (١)

ولكـن قضية محتوى التعليم ومضمونه ، يجب ان ينظر اليها مـن زاويـة اخرى ، فـان صياغـة العقليـة العلمية والنظرة العلمية التـى ينبغي ان تكـون هدف التعليم والمناهج لا تأتي من المدرسة وحدهـــا بالطبع ، بل تأثير البيئة والوسط المحيط ابعد اثرا وقد يلغى دور المدرسـة الغاء . فمـاذا اذا كانت اجهزة اعلامنـا وصحافتنا تروج للغيبيـات والاوهام ، وبعض صحفنا تفرد صفحات كاملـة للعـــلاج بالبندول وبالارواح ولتنبوءات المنجمين ، تفتش عن مصير معـركتنـا مع العدو المدجج بالعلم والتكنولوجيـا .. ان نفس الفئـات اليمينية الرجعيـة والمعاديـة للاشتراكية والتي تسيطر على القرية وعلى مراكز الفكر والثقافـة الحساسة في المدينة ، لا تشيع جوا ملبدا بالاوهـام والغيبيات . ان ازاحة نفوذ هذه الطبقات المعاديـة وضرب سيطرتها ، شرط لازم لنجاح المدرسة في ارساء تقاليـد الفكر العلمي والتقدمي .

الاصلاح ام الثورة في التعليم (٢)

قضايا التعليم تلح الحاحا شديدا ، وهناك شعور عام بالفشل، واحساس بالتدهور الشديد في مستوى التعليم ونوعيته .. والحلول التي تقدم لمشاكل التعليم وقضاياه لا تحصى ، ومحاولات الاقتبـــاس والنقل من النظم التعليمية في البلدان الاخرى لا تتوقف .. ومع ذلك فهذه الاحاسيس والمشاعر لا تكف .

والحقيقة ان الاوضاع التعليمية في مصر بعـد كل الرحلـة التي قطعتهـا تثير بقوة قضيـة الاصلاحات الجزئية وجدواها .. وقضيـة الثورة في التعليم وما نعنيه ؟

ولناخذ على سبيل المثال قضيتين ، قوميتين بحق ، ويقعان في جذر كل القضايا الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية وهما : قضيـة تعميم الالزام ، وقضيـة محو الامية .. والقضيتان مرتبطتان اشــد الارتبـاط .

الجهود التي تبذل للانتهاء من تعميم الالزام ، والاموال التي تنفق كبيرة حقا ، وكان المخطط في الاصل ان يتم الانتهاء من هذه القضيـة تمامـا في عام ١٩٧٠ ومع ذلك فان الهدف لم يتحقق بعد ، ولا زالت نسبة الاستيعاب بالمدارس الابتدائيـة لا تتعدى ٨٠ بالمئة في المـدن الكبرى . هذا على الورق ، وهي في حقيقة الامر اقل من ذلك بكثيـر خاصـة في الريف . ويزيدهـا ضعفـا ما يسمى بظاهرة التسرب ،ويقصد بهـا تبدد تلاميذ المدرسـة الابتدائيـة خلال سني الدراسة ، وهجرانهم لصفوفهـا بعد تسجيلهم رسميا بهـا على الورق . وتقدر بعض التقارير الرسمية نسبة المتسربين والذيـن لا يواصلون الدراسـة حتى نهايـة الالزام بمـا يصل الى ٩ بالمئـة وهـو في الحقيقـة تقدير متفائل ، اما بعض التقارير الاخرى ، فتؤكـد أن الفصل المسجل بقوائمه رسميا اربعيـن تلميذا لا يتعدى الحضور فيه العشرين تلميذا في الكثير من القرى .

ولا شك ان القصور في استيعاب كل الملزمين ، الى جانب هـذه النسبة الكبيرة المتسربة ، تخلق مباشرة موارد متجددة للامية . والامية بدورهـا رغم كل الجهـود التي تبذل ، وكل القوانين التـي تصدر ، واخرهـا قانـون جديد لمحو الاميـة صدر اخيرا ، لا زالت ثابتة عند نسبة ٧٠ بالمئـة وقد تصل الى ٨٠ بالمئة بيـن النساء ، وهـو واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي خطير ، لا يجوز السكوت عليه . ذلك مـا يطرح اسئلـة ملحـة تضغط على العقول ضغطا شديدا :

لماذا هذا الفشل بازاء مسائل قوميـة بهذا الخطر .. وما العلاج اذن ؟ ويبحث البعض عن الحل في تجارب البلدان المتقدمة .. ويرجعه البعض الى قصور فينا .. والواقع ان الاسباب والعلاج أعمق وابعد .. ويكمـن في فهمنـا دائمـا لقضيـة التعليم في ارتباط لا ينفصم عـن حركـة الثورة .. وعـن الطريق الذي اختارته لمسارها .

ونترك جانبا الاسباب المباشرة في تفاقم قضية الالزام في البلدان المتخلفة عمومـا ، وهي الانفجار السكاني الى جانب ارتفاع نسبة الاطفال في سـن الالزام من ٥ ـ ١٤ بالقياس الى من هم في سن العمل ،وذلك كظاهرة عامة في كل البلدان المتخلفة ،وهو الامر الذي يزيـد من فداحـة الحمل على هذه البلدان . نترك هذه الاسباب ونتفحص الاوضــــاع الاجتماعيـة والاقتصادية الراهنـة في الريف لمزيد من الفهم لابعاد

(١) للقارىء الذي يرغب في المزيد ان يعود الى الدراسة المقدمـة الى المركز العربي للدراسات السياسية والاقتصادية عن « قضيـة التعليم والثورة » والذي نشر بمجلة الطليعة اكتوبر سنة ١٩٦٨ ـ وكذلك « تهافت الفلسفة الرجعية » مجلة الكاتب فبراير سنة ١٩٧٠ .

(٢) راجع مقالنا « الاصلاح او الثورة في التعليم » مجلة الكاتب نوفمبـر سنـة ١٩٦٨ .

المشكلة . ونبدأ بخريطة توزيع الملكية قبل قوانيـــن الاصلاح الزراعي وبعـــده :

	قبل صدور قانون الاصلاح عام ٥٢			بعد صدور قانـــون الاصلاح عام ٥٢			بعد صدور قانون الاصلاح ٦١ (١)		
حجم الملكيات	عددالملاك (بالالف)	النسبة المئوية للملاك	النسبة المئوية للمساحة	عدد الملاك(بالالف)	النسبة المئوية للملاك	النسبة المئوية للمساحة	عددالملاكبالالف	النسبة المئويةلعدد الملاك	النسبة المئوية للمساحة
اقل من٥فدان	٢٦٤٢	٪٩٤،٣	٪٣٥،٤	٢٨٤١	٪ ٩٤،٦	٪ ٤٦،٤	٢٩١٩	٪٩٤،١	٪٥٢،١
٥ فـدان	٧٩	٪٢،٨	٪٨،٨	٧٩	٪ ٢،٦	٪ ٨،٨	٨٠	٪ ٢،٦	٪ ٨،٦
١٠ فدان	٤٧	٪ ١،٧	٪١٠،٧	٤٧	٪ ١،٦	٪١٠،٧	٦٥	٪ ٢،١	٪١٠،٧
٢٠ فـدان	٢٢	٪ ٠،٨	٪١٠،٩	٣٠	٪ ١،٠	٪١٣،٦	٢٦	٪ ٠،٨	٪١٣،٤
٥٠ فـدان	٦	٪ ٢٠،٢	٪ ٧،٢	٦	٪ ٠،٢	٪ ٧،٢	٦	٪ ٠،٢	٪ ٧،٠
١٠٠ فدان	٣	٪ ٠،١	٪ ٧،٣	٣	٪ ٠،١	٪ ٧،٢	٥	٪ ٠،٢	٪ ٨،٢
٢٠٠ فدانفاكثر	٢	٪ ٠،١	٪١٩،٧	٢	٪ ٠،١	٪ ٥،٩			

من الواضح انه برغم الضربات البعيدة التي وجهها الاصلاح الزراعي للاقطاع ، فلا زالت الكتلة الكبيرة هي من فقراء الفلاحيـن الذيـن يملكـون اقل من ٥ افدنة ، وهم يمثلون في الريف ٩٤،١ بالمئة من الملاك ، ولم تزد ملكيتهم من الارض بعـد الاصلاح الزراعي الاخير في ٦١ عن ١،٠٩ من الفدان في المتوسط . ونستطيع ان نتخيل بالطبع حال الفلاح الذي تدور ملكيته حول الفدان الواحد ، فالغالبية الكبيرة من هؤلاء يضطرون الى بيع قوة عملهم وعمل اولادهم للاخرين .. فاذا اضفنا الى الصورة ١٦٣٠،١٦٩٤٥ من الاجراء المعدميـن ، حسب احصاء ١٩٦٠ وهؤلاء يعتمدون اعتمادا كاملا على قوة سواعدهم ، وعلى بيـع قوة عمل ابنائهم بالذات ، كمصدر اساس للرزق ، عندئذ تتكامل لدينا الصورة عن عدد الاطفال الذيـن لن يخضعـوا للالزام مهما كانت العقوبات ، ومهمـا وفرنا لهم من امكنة ، طالما تعارض الالزام ولقمة العيش الضروريـة .

فاذا فحصنا نسبة قوة العمل الى جملة السكان موزعة حسبفئات السن لعثرنـا على هذه الحقيقـة مجسدة :

نسبة قوة العمال الى جملـة السكان في كل فئة من فئات السن

فئات السـن	٦ـ١٤	١٥ـ١٩
المحافظات الحضرية	٦،٧	٣٠،٧
جملـة الحضر	٥،٣	٢٤،٣
الريف	٢٠،٧	٤٩،٢
جملة الجمهوريـة	١٤،٧	٣٩،٣

فالجدول السابق يوضح ان نسبة الاطفال الذين تضطرهم ظروفهم الى بيع قوة عملهم بيـن سـن ٦ـ١٤ لا تقل عـن ٥ بالمئة واكثر من ٢٠ بالمئة من اطفال الريف . هؤلاء سينقطعون عن المدرســة بالضرورة او يتسربـون ، ومقضى عليهم في الاغلب بالامية . ولا تجدي في هـذا لا القوانيـن ولا العقوبات ولا الغرامـات .

واذا اخذنا في الاعتبار ايضا ان متوسط الاجر للمشتغـل بالزراعة هو ٤٤،١ اي ما يقرب من ٣،٦٥ جنيه شهريـا لادركنا استحالة تطبيـق الالزام في الريف بحالته الراهنـة .

قضية الالزام اذن هي بعينها قضية انجاز مهام الثورة فيالريف، بمعنى تغيير علاقات الانتاج القائمة، وتقل مستوى الفلاح الفقير والمعدم واخراجه من الوضع الراهـن .

فاذا نظرنـا الى الوجه الاخر من الصورة ، الى قضية الاميــة لتأكدت لدينـا نفس الحقيقـة .

فعلى الرغم من تراجع نسب الاميـة بيـن احصاءات ٣٧ و٤٧ و٦٠ الا ان كتلـة الاميين في الحقيقـة تزيـد بسبب الزيادة السكانيـه

هذه الاميـة المتفشية ليست مجرد وصمة عار في عصرنا ،بل هي ايضا ثقل خطير بضغط على الانتاج . فالتجارب التي اجريت فـي مركز تنمية المجتمع العربي بسرس الليـان (٢) فضـلا عـن الحقـائق القاطعـة التي تثبتهـا الدراسات العالميـة ، تدل على ان التعليـم البسيط الذي يحصل عليه العامل خلال عام واحد يزيد من نتـاجيته بنسبة ٣٠ بالمئة واذا اخذنا متوسط الانتاجيـة للمشتغل كما تدلعليه احصاءات ١٩٦٥ وهي كالاتي :

الزراعـة	١٩٦،٥	جنيه
الصناعة	١٦٨،٥	جنيه
الكهرباء	٢١٧٢،٢	جنيه
التشييد	٥٢٤،٩	جنيه
الخدمـات	٤١٨،٤	جنيه

واذا قدرنا عدد المشتغلينفي العام المذكور ب ٧٠٣٣٣٠،٠٠٠ منهم حوالي ٦٠ بالمئة اميين ، فبعمليـة حسابية يتضح ان الانتاجيــــة الضائعـة بسبب الاميـة لدى اكثر من نصف المشتغلين تزيد علىمائة مليـون جنيه سنويـا (٣)

هذا الواقع المؤلم للقوى العاملـة في بلادنا ينعكس مباشرة في الانتاج وتكشف عنه الارقام التاليـة :

في عام ١٩٦٦ ـ ٦٧ لم يزد معدل نمو انتاجية العمل في القطاع الصناعي على ٢،١ بالمئة وهذا المعدل يقل عـن مثيله في الدولالاخرى في الشرق والغرب . فانتاجية العمل في الـدول الاشتراكية زادت بمعدل ٦،٨ بالمئة سنويـا وذلك في الفترة مـا بين ٥٨ ـ ٦٣ وفـي الدول الناميـة في شرق وجنوب اسيـا معدل الزيادة في انتاجيـة العمل ٣،٤٪ (٤) في الفترة ذاتها . ولا شك ان هبوط انتاجية العمـل عندنـا تتدخل فيه العديد من العوامل والاسباب . ولكن يقف على رأسهـا الاميـة ، ونقص الخبرة والعجز في الكوادر الفنية المدربة المطلوبة على مختلف المستويـات .

وحسب تقديرات الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء نقرأ التقديرات التالية عن زيادة انتاجية العمل خلال الخطة الخمسية الاولى بالقياس الى سنـة الاساس ٥٩ـ٦٠.

(١) الكتاب السنوي للاحصاءات العامة ج.ع.م ١٩٥٢ ـ ١٩٦٦ الجهاز المركزي للاحصاء

٢ ـ « الامية والاشتراكية وخريجو الجامعات » الاهرام الاقتصادي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٨.

٣ ـ الاهرام الاقتصادي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٨

٤ ـ الاهرام الاقتصادي ١٥ مايـو سنة ١٩٦٨ .

تطور متوسط الانتاجية للمشتغل خلال الخطة الخمسية الاولى
٥٩ - ٦٠ الى ٦٤ - ٦٥

القطاع	نسبة الزيادة في السنة الخامسة عن نسبة الاساس
الزراعـة	٩٦٧٪
الصناعة	٩٦٠٪
الكهرباء	٢٩٦٤٪
التشييد .	٤٦٩٪

كل هذه الارقام تصب في حقيقة واحدة ، هي استحالة احـداث الثورة الانتاجية ، ومن ثم انتصار الثورة الاجتماعيـة والسياسيـة والفكرية ، دون تحول اساسي في حالة القـوى العاملـة التعليميـة والثقافية ، وبالاخص في مستوى القاعدة العريضة من قوة العمل .

والوجه الاخر للعملة الذي انبتناه ، ان اي تغيير اساسي في حالة القوة العاملـة التعليمية والقضاء الحقيقي على الامية يستحيل ايضا دون المضي في نفس الوقت في تحقيق الثورة الاجتماعية في الريف . فكـلا العامليـن يشد احدهمـا الاخر ، ومجرد الرجوع الى الجدول السـابق عـن توزيع الملكيـة في الريف يكشف لنـا عـن هذا الاثـر المتبـادل .

فالاحصائية تثبت ان نسبة من يملكون اقل مـن ٥ فدادين في ريفنا لم تتغيـر قبل تطبيق الاصلاح الزراعي وبعده ، وعدد المعدمين يزيـد بسبب معـدلات الزيادة في السكان ، مع عدم تزايـد مساحـة الارض بنفس النسبة ،ومعنى ذلك ان كتلة الفلاحيـن الفقراء في القرية لازالت على حالهـا وانساعها . هذا من ناحيـة ، ولكن ضرب الاقطاب لازمتـه حقيقـة اخرى هامة هي ارتفاع نسب الملاك بيـن ١٠ و ١٠٠ فـدان ، وكذلك في مساحات الارض التي يملكونهـا . ومعنى ذلك ان حـزب الاقطاع لم يضعف ، بل على العكس قوي ودعم مراكز اغنياء الفلاحين. وقد تكـون هذه الفئات وطنية بالمقارنة بالاقطاعيين ، ولكنهـا بحكـم اوضاعهـا الاجتماعيـة وتراثها ، هي فئات نهمة ! استغلالية ،شديدة الرجعية اجتماعيا وفكريا . وهي في حقيقـة الامر الفئة القابضـــة والمسيطرة على الريف ، وعلى اقتصادنا الزراعي منذ الثورة .. وهـي بعينهـا التي تسيطر على التعاونيات وتحزبها وتحولهـا الى حسابها، وهي تمارس نفـوذا وسطوة شديدة في الريف ..

كيف نتصور اذن امكانيـة تنظيم ونجاح حملات محو الامية ؟ مع بقاء سيطرة هذه الفئات التي تعادي حركـة الفلاحيـن عداء شديدا، وتخشى كل الخشية من هذه الحركة ، ومن تسرب الوعي الى صفوف الفلاحيـن .

الصورة المقابلة هي التي حدثت في البلدان الاشتراكية .. فمحو الاميـة تم بنجاح تحت نفس الشعار الذي حرر الفلاحين ، شعار الارض لمن يفلحها .. ولان الفلاح المعدم اصبح هـو سيد الارض ، وهو صاحب المصلحـة في تطوير انتاجيته على اسس علمية .. فليس بغريب ان يقبل على محـو الامية ، بل ويشارك بحماس في تنظيم حملاتها ويقودها .. والانتظام في صفوف الدراسة بالنسبة لهذا الفلاح ليس ترفا زائـدا ولا عبئا ثقيلا يضاف الى عبء عمله واستغلاله وانهاكه من قبل الاخرين.

ان قضيـة محـو الاميـة في الريف ، ليست قضية تعليميـة بالدرجة الاولى ، ولا قضيـة وسائل تقنيـة في التعليم او قوانين ،بل هي قضيـة الثورة وتقدمها .. تلك الثورة التي لـم تصل بعد الـى حيـاة ريفنـا .

وحتى تزاح سلطـة الفئات الاجتماعية الرجعيـة المسيطرة ، واجهزتهـا المنفذة ، والتي تعوق اي حركـة حقيقيـة تجـــاه تنوير الفلاحين ، وحتى تتقدم الثورة في الفلاحين الى مواقع ابعد ،ويخرج الفلاحـون من اكواخ الطين ، وتتغير اساليب عملهم وحياتهم ، التي لا تتطلب اليوم علمـا ولا معرفة بل يكفي فيهـا الموروث ، ولا تتحـدى فيهم شعورا ، ولا تثير احساسا بالعجز امـام الجديد ، حتى يتم ذلك التغيير ويتحول محـو الامية الى جزء منه ، سيظل كل الجهود محدودة الثمرات .. وسينظر الفلاح الى محـو الامية كترف لا يطلبه ولا يقوى عليه ، هو ثقل يضاف الى اثقال حياته الراهنه .

لقـد نجح الاتحاد السوفياتي ، كمـا نجحت الصين وكوبا .. وحققت هذه البلدان نتائج باهرة في محـو الاميـة .. لانهـا نظمت حملات قويـة ، وبذلت جهودا مضنية قادتها احزابها الشيوعية .. هذا صحيح .. ولكنهـا نجحت اولا واخيرا لانهـا احدثت ثورة ..ولان محو الاميـة فيهـا اصبح وجها لانتصار الثورة الاشتراكية .. تلـك هي القضيـة .

قضايـا .. ومشكـلات

قضيـة التعليم في بلدان العالم الثالث اصبحت هي قضية التقدم، وهي اختيار طريق الثورة ، وقطع الطريق على كل محاولات السير في طرق الرأسماليـة المسدود .. والمشكلات الرئيسية التي تطرح اليوم.

- مشكلات المستوى والعائد من العملية التعليمية ونوعية التعليم
- ومشكلات القبول في مراحل التعليم والهرم التعليمي
- ومشكلـة هيكـل البناء التنظيمي للتعليـم
- ومشكلـة المحتوى والمضمون في التعليم
- ومشكلات المعلم وحركـة المعلميـن .

كلها مشكلات تتشابك ، ولا تنفصل عـن قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وهي عصب مشاكل التنمية وبناء الدولة العصرية المتقدمة والصراع الدائر حولها ، ليس صراعا فنيـا ولا هـو صراع بين اهـل الاختصاص ، بل هو صراع في حقيقة الامر حول مفهوم هذه الدولـة وطريقهـا ، بيـن تيارات الحركـة الاجتماعية في اسماعها واجنحتهـا داخل حركـة الثورة في هذه البلدان .

- ولناخذ اخطـر هذه المشكلات ، او ما يبدو اخطرها ، والتي تفرض نفسها فرضا وبالحاح ، وهي مشكلات الكيف في التعليم كمـا يحلو للبعض تسميتها وضعف العائد والنوعية الهابطة التـي يشكـو منهـا الجميـع .

والامر الذي لا جدال فيه ان نوعية التعليم قد هبطت بالفعـــل وبشكل ملحوظ في السنوات الاخيرة ، الى الحد الـذي يخرج معـه التلميذ بعد سني الالزام لا يكـاد يقرأ او يكتب . وفي مراحـــل التعليم الاخرى تدل نتائج الامتحانات على فاقــــد كبير ، والدروس الخصوصية اصبحت هي الوسيلـة الوحيدة التي يملكهـا الاباء لضمان النجاح او المرور في اي مرحلـة ، والكتلة الكبيرة لا يمكـن ان تملك هذا السـلاح الباهظ التكاليف ، فمصيرهـا في الاغلب متروك للقدر. والجامعات ايضـا تشكـو من ضعف مستـوى الثانوية والمؤسسات بدورهـا ومواقع العمل تشكـو بدورهـا من خريجي الجامعات !!
ما هـي الاسباب ؟ ومـا هـو العلاج ؟

اما الفنيون ، والتكنوقراط التربويون فتقف الرؤيـة عندهم عند حدود الفـن التربوي ، ومن ثم ينخرطون في تغييرات لا تكف في المناهج والكتب ، ما بيـن حذف واضافة ، وهكذا دواليك ..!! وبحث فـي طرق التدريس ووسائله التقنيـة !! ثم القاء اللوم اخـر الامر على المعلميـن والمعلمات بشكل اخص . والاهم الدعوة الى الحد من التعليم، بدعـوى تضخم الكم ، وضرورة توجيه العنايـة الى الكيف

لمـاذا ؟

لا شك ان للاسباب والوسائل الفنية دورها ، والتربية علم وفن له مبادئه واصوله ما في ذلك شك ، وعلاج النواحي الفنية ضرورة ..

ومع ذلك فلماذا يفشل العلاج دائما ؟

لان الاسباب ابعد ، والقضية اعمق ترتبط بالكيان الاجتماعي كله، وقد نجملها في كلمات :

– لان الفصول مكدسة تصل احيانا الى ٦٠ طفلا في الفصل

– والمعلم يعمل عدد ساعات مضنية وبأجر لا يذكر ، ويتحمل ما هو فوق الطاقة .. يلقى به في اقصى القرى حتى وبلا مأوى !!

– ولان الاباء من العمال والفلاحين وصغار الوظفين لا زالوا يعيشون في الظروف المادية والفكرية والثقافية ، التي تلغي دور المدرسة ان كان لها دور ، وتجعل التحصيل والدرس ، استحالة في بعض الاحيان .

– ولان الاطفال الجمهرة العظمى من الفلاحين تضطر الى معاونة ابائها في الحقل ، ولا يترك لها بقية من جهد ، هذا اذا لم تنقطع عن الدراسة تماما ..

ونستطيع ان نمضي في ذكر هذه الاسباب وغيرها كثير ، وكلها معروفة ، وكلها تصب في حقيقة واحدة هي الاحوال التي يعيشها الشعب العامل وابناؤه ، والتي تجعل التحصيل احيانا شبه استحالة.

نقطة البدء فيالتغيير ليست هي المدرسة ، بل هي احوال الشعب العامل المادية والروحية ، ويصبح اصلاح المدرسة ورفع مستوى الاداء فيها جزءا لا يتجزأ عن احداث هذا التغيير ، ولو خطوة بخطوة.

لا يعني هذا ابدا ان تقف مكتوفي الابدي ، وان ننتظر حتى تتغير الاحوال .. بل معناه ان تعتدل القضية وتوضع على قوائمها الصحيحة، وتأخذ طريقها الى الحل .. وان يتحدد الهدف ، ويتم الاصلاحالمدرسي داخل هذا الاطار .. اما الاصلاحات الجزئية واليومية ، فهي لا تقف ، ولا يجوز ان تقف ، ويجب ان يقوم بها الاباء والمعلمون وكل مسئول .. وتستطيع التنظيمات الشعبية والسياسية ان تفعل الكثير نحو توفير ظروف التحصيل للفقراء ، والمأوى للمعلمين ، والتقوية للضعفاء من التلاميذ ، وحتى الغذاء لمن يحتاجونه .. وهذه مجرد امثلة .. ولكن الاصلاح وهو ضرورة لا يجب ان يحجب الثورة ..

● ولنتأمل الهرم التعليمي لنرى ما وراءه . توزيع طلابنا على مراحل التعليم سنة ١٩٦٨ كان على الوجه التالي :

المرحلة	عدد تلاميذ المرحلة ١٩٦٨	النسبة الى القاعدة بالابتدائي
الابتدائي	٣،٦٥٥،٠١١٩	
الاعدادي	٧٧٥،٣٠٦	٢١،٨ ٪
الثانوي العام	٢٧٦،٠٧٥	٧،٧ ٪
الثانوي الفني	١٩٧،٠٥٤	٥،٥ ٪
الجامعات والمعاهد العليا	١٧١،١٣٣	٤،٨ ٪

هذا الضيق في القمة يقف على قاعدة هي اصلا ضيقة نتيجة الامية والعجز عن استيعاب كل الملزمين . وبالطبع فان القلةالتي تصل الى القمم الرفيعة من المعروف انتماؤها الطبقي .. فهي في الظروف السائدة لا يمكن الا ان تكون من ابناء البورجوازية في الاساس .

وتقدم احصاءات اليونسكو عدد الطلاب بالتعليم العالي لكل ١٠٠،٠٠٠ من السكان في بلدان العالم ما يكشف عن الهوة بين التقدم والتخلف : (١) .

ج.ع.م ٥٦٥ كندا ٢٢٠١ الولايات المتحدة ٣٤٧١

اسرائيل ١٤٨٨ اليابان ١٣٩٨ تشيكوسلوفاكيا ٩٦١

فرنسا ١٢٣٩ المملكة المتحدة ٧١٦ يوغوسلافيا ١٠٥٧

الاتحاد السوفياتي ١٦٦٠

ومع ذلك فان تقرير اللجنة الوزارية للقوى العاملة عن سياسة التعليم يرى كما ذكرنا ان الخريجين عندنا حتى منالعلميين قد زادوا ، وركز عديد من اجهزة الاعلام على تشجيع هجرة حتى المهندسين والاطباء والفنيين تحت نفس المزاعم .

هذا الهرم الضيق في القمة افترن بظواهر خطرة تكشف عن حقيقة القيم السائدة في التعليم ، فقد اصبح من الظواهر المألوفة في نهاية كل عام وقوع العديد من الانهيارات وحوادث الانتحار (٢) خصوصا على ابواب الجامعات . والظاهرة فيالحقيقة طبيعية تماما في ظل القيم السائدة ، حيث تحول التعليم الىاداة للامتياز الطبقي ولتعميق الفروق الاجتماعية . واي مراجعة ولو سطحية لسلم الاجور يعطي العذر للمنهارين والمنتحرين الذين تسد في وجوههم سبل التعليم العالي . ففي اعلى القمة الوظيفية تصل المرتبات الى ١٨٠٠ – ٢٠٠٠ جنيه غير بدلات التمثيل حتى بعد تخفيضها ، وفي ادناها الدرجة المالية الثانية عشرة بين ٦٠ – ١٨٠ جنها ، فاذا اضفنا المتوسط العام لدخل الفرد الذي لا يزال في حدود ٥٩،٨ جنيه حسب التقديرات في اخر سني الخطة الخمسية ٦٤–٦٥ (٣)فان الجامعيالذي يبدأ حياته بالعمل بالدرجة السابعة بمرتب ٢٤٠ – ٤٨٠ جنيها ، رغم ضآلة مرتبه فانه يبدو خيالا بالقياس الى قاع السلم . لقد تعمقت قيمة الشهادات والاوراق على يد الفئات والطبقات الجديدة ، التي لا زالت ترفض قيمة العمل ، كقيمة اساسية .

● اما هيكل النظام والبناء التعليمي فهو يعكس بجلاء تصور الطبقات الجديدة لاداة التعليم ولاهدافه . فقد ظل النظام التعليمي كما كان مغلقا معزولا عن مواقع العمل والانتاج . وبالاضافة الى القيود بين المراحل التعليمية والتي تعوق كما رأينا في الظروف السائدة ابناء الشعب العامل عن مواصلة الدراسة ، فان امكانية دخول غير حملة الشهادات وخريجي التعليم النظامي تكاد تكون مستحيلة . وقد قرر نظام الانتساب في الجامعات في بداية الثورة تحت ضغوط شديدة ، وقصر على الكليات النظرية فحسب ولم يلبث حتى ضيق عليه حتى اصبح في حكم الملغى .

اما البلدان الاشتراكية التي بدأت ثورانها من تخلف شديد ، فقد صنعت بنظامها التعليمي العكس ، اصبح اساسة الانفتاح لا الانغلاقعلى قوة العمل بالمصانع والحقول ، ولم يعد هناك فاصل بين التعليم النظامي ، والتعليم عن طريق المراسلة ، والفصول المسائية ، ومدارس بعض الوقت وغيرها . واصبحت السياسة الثابتة هي تشجيع الجمع بين العمل والتعليم بكل الوسائل وانواع التيسيرات ؟ بذلك تحول التعليم الى اداة في يد الطبقات المنتجة ، اداة ديموقراطية لتصفية الامتيازات القديمة ، ولنقل كتلة العاملين من مستوى الامية الىمراكز القيادة والتوجيه والسلطة .

● المعلم ... لم يعد هناك حيز لاستطراد .. ومع ذلك فنحنبازاء القضية الرئيسية .. فان تصور أي تغيير حقيقي في التعليم دون تغيير بعيد في حياة المعلم واوضاعه لا يخرج عن دائرة الوهم .

فالانسان على اي حال ، قبل الآلة ،وقبل النظم ، وقبل السلاح في الحرب.هو الفصل ، وهو العنصر الحاسم. والمعلمالمصري باوضاعه المادية والادبية يقع في قاع الطبقة المتوسطة الصغيرة ، واكثر من هذا فقد اصبحت نقابة المعلمين اداة ضغط وتجميد لحركة المعلمين وحشدت لها كل الكفايات النقابية الصفراء ، وفي بيئتها تفرخ كل افكار التخلف والجمود والرجعية . ان حل قضية المعلم ونقابته جزء لا ينفصل عن قضية القرطة الشاملة في الاقتصاد وفي النقابات

(١) الكتاب السنوي الدولي للتربية ١٩٦٩

(٢) راجع مقالنا لماذا ينتحرون مجلة الكاتب اغسطس ١٩٦٨

(٣) سنوات التحول : علي صبري

العماليـة والمهنيـة .

● النظرية التربوية .. الكلام عن المعلم وتغيير اوضاعه غير بعيد عن النظريـة التربويـة التي يصاغ بهـا عقله وفهمه المهنـي والسياسـي . وقد ركز الاستعمار الاميركي بوجه خاص (١) على ميـدان التربيـة والتعليم في مصر وفي كل بلدان العالم الثالث . وقد قامت مؤسسات خاصة فرانكلين بعمليـة اغراق للسوق العربية بكتبهـا التربويـة ، واختارت ادواتهـا في هذه العملية من مدرسة اسماعيل القباني ، مدرسة التكنوقراط التربويين ، وهو امر طبيعي فهناك التقاء فكري كامل . ولا زالت تصفية آثار النظرية التربوية البراجماتية ، نظريـة الاستعمار الجديد ، واحلال النظريـة الثورية في مكانها تحتاج الى كل جهود المثقفيـن الثورييـن .

الطريـق .. والمستقبـل .

ان عبء التعليم الى جانب عبء التنمية وهو شقها الاخر ، عبء بالغ الثقل في كل بلدان العالم الثالث ،يحتاج الى تعبئـة موارد وقوى مادية وروحية هائلة ، تعجز عنها تمامـا اي دولة تابعـة تربط مصيرهـا بالامبريالية ، وبطريق النمو الرأسمالي .. وتصبح الدولة العصريـة المتوهمة بالمعونات الاميركية وتحت المظلة الاميركيـة التي تلهث وراءها الطبقات الجديدة اليمينية سراب لا طائـل وراءه . ان حسم طريق التحول الاشتراكي ، في هـذه البلدان هو نقطـة البدء وشرط كل اصلاح جذري لقضايا التعليم وغير التعليم .. وهو شرط قيام الدولة العصرية الديموقراطية المضمون بالضرورة .. دولـة الطبقـات الوطنيـة الثوريـة .

والناصرية كحركة تاريخية ثورية وتقدمية ، من خلق حركات التحرير الوطني الثورية جمعت فـي مسارهـا العديد من الطبقات الوطنيـة والتقدميـة التي تعادي الاستعمار وترغب في التقدم ، والاصلاح الاجتماعي وتحلم بالرخاء وباشكال من الاشتراكية قد يطبعها الخيال في كثير من الاحيان . ولانها مثلت حلفا واسعا بين العديد مـن التيارات على الاساس الوطني ، فقد صاحب حركتها صراع شديد ، وانسلاخ فئات طبقية كانت ترى في تقدم الثـورة خطرا على مصالحها ، كمـا سادها في الاغلب ايديولوجية الوسط والتوفيق . ولكن دروس العالم الثالث كله ، تثبت بمـا لا يـدع مجالا للشك ، ان الخطر على هـذه النظم والثورات يأتي من داخلها في الاساس ، وان عدوهـا الرئيسي وهو الاستعمار الجديد يركب على وجه التحديد الأجنحة اليمينية فيها ، ويستفيد مـن سياسات التردد والضعف . ان تقدم هذه الثورات وامنها وحمايتها ، رهن بهزيمة سياسة الوسط وتصفية مواقع اليمين ، وحسم طريـق التحـول .

ان الناصرية كحركة تاريخية ثورية وتقدمية مدعوة الى ان تتخطى ذاتها ، هذا اذا جاز التعبير اصلا وقبله القاموس السياسي ، ونعني به هزيمة اليمين بـداخلها ، وتصفيـة مواقع الطبقات الجديدة التي اغتنت واثرت بعد ازاحـة مواقع الاستعمار والطبقات القديمة، والتي تخفي انتماءها الحقيقي وعداءها لحركة الجماهير الشعبيـة تحت اقنعـة العداء للشيوعية .

ان التحالف الثوري بين قوى اليسار على نطاق العالم العربي كله ، بين اليسار الشيوعي واحزابه واحزاب الطبقة العاملـة واليسار العربي والناصري الوطني هو وحـده القادر اليوم على تخطي المرحلـة الراهنة التي يمر بهـا الوطـن العربي ، وتوفير الشروط الاولية للانتصار علـى العـدو في اخطر تحد يواجهه هذا الوطن منذ المغول .

اما التعليم فهو اداة من الادوات التي ينبغي ان توضع في يـد الشعب العامل ، في اطار من المقرطة الشاملـة ، لبروز دوره وقيادته .. ذلك الدور الذي اثبت في كـل الازمـات التي مرت بشعوبنا انه العنصر الحاسم .

القاهـرة **اديب ديمتري**

---

(١) راجع كتابنا « وجه اميركا القبيح في التربية » ـ دار الكاتب العربي ـ سلسلة في المعركـة ١٩٦٨ .

متى يطلع الفجر يا رفيق ؟

قصة الثورة الروسية

بقلم جان بول أوليفيه

ترجمة جورج طرابيشي

صدر حديثا عن دار الاداب **٧٠٠ ق . ل .**

ناصر والعمّال

بقلم
محمد طه محمد

من الغريب ان يلاحظ المرء ان كل المؤرخين لثورة يوليو ، يتناولون المراحل المبكرة لها بشكل عام ، بل ان الدراسات الثلاث الاخيرة التي صدرت عن الحركة العمالية قد فضلت ان تقف ، في التفصيل ، عند عام ١٩٥٢ !

وعلى اي حال فمن الواجب ان انبه الى ان التاريخ المعاصر ، وبالذات لحركة الطبقة العاملة ، لم يعالج بعد بصورة علمية كاملة وبدقة ، ولا زال التأثير العام للتحليل البورجوازي ، متمثلا في اسلوب الرواة ، له اثره ، وان خفف منه ، قدرة هذا المؤلف او ذاك على تقديم وثائق مثيرة .

ولست ادعي اني بريء من هذا التأثير رغم المحاولة، فلا زلت ، شأن غيري ، اسيرا لاختبارات محسوبة ، ولا زلت ، وذلك امر مؤسف ، اقدم ممارسة فردية في هذا المجال الهام بالذات ! ومعذرة لاني ابتعدت عن عنوان المقال .

الطبقة العاملة تحضر للثورة

١ ــ علاقة ثورة يوليو في تطورها ، بالطبقة العاملة لا تبدأ بصباح الثالث والعشرين من يوليو .

ذلك ان الفترة السابقة على هذا وبالذات منذ يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . لقد كان حريق القاهرة تعبيرا عن وضع كيفي جديد في علاقات القوى الاجتماعية ، ذلك الوضع الذي لم يعد فيه الحاكمون بقادرين على الاستمرار في الحكم بالاساليب القديمة كما لم يعد باستطاعة المحكومين قبول استمرار الحكم بنفس تلك الاساليب . وفي ظل هذا الوضع الجديد ، كان دور الطبقة العاملة بارزا وأساسيا ، بل وقياديا فشعارات طلائعها اصبحت مع الوقت شعارات القسم الاوسع من الشعب وهي في النضال اليومي عصب المعارك الجماهيرية .

فضلا عن هذا فلقد كان الاتجاه الحاكم داخل حركة الطبقة العاملة هو الاتجاه نحو اليسار ، وبرز هذا في الشعارات وفي القيادات المحركة لها .

لهذا لم يكن صدفة كما يقول بالم ذات (مجلة وورلد نيوز اند نيوز في مطلع عام ١٩٥٢) ان احد الاسباب الجوهرية لحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير كان منع المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات المقرر عقده في اليوم التالي .

ونستطيع ان نسرد امثلة عدة توضح انه منذ هذا اليوم كان باستطاعة المحكومين ان يقرروا اشياء لا يرضى عنها الحاكمون ، على ان هذا تفصيل ليس هنا محله .

وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، هي الحل لهذا التناقض الذي بلغ ذروته ، جاءت وكان ذلك موقع الطبقة العاملة بين مختلف الطبقات .

احيانا ينجح الاعداء

في وجه صعوبات داخلية وخارجية ، استطاعت الطلائع النقابية ان تقرر منذ اليوم وقوفها الى جوار الثورة . ولا شك ان هذا كان خطا ناجحا واعتبرت ان مهمتها هي تأكيد وحدة «الجيش والشعب» .

واذا كانت هناك اقسام معادية لهذا الخط ، فلقد كان هناك ايضا حول الثورة وداخلها ، في تلك المرحلة، من يكره هذا المنطلق .

التاريخ لم يوضح لنا بعد تفاصيل مأساة عمال كفر الدوار في اغسطس سنة ١٩٥٢ . على ان الوقائع التي توفرت لي ، وكنت حينئذ في موقع قيادي للحركة العمالية ، تكاد تقطع بانها كانت ثمرة تدبير رجعي . واستغلت تلك الحادثة من جانب العناصر الاكثر يمينية المحيطة بالثورة وداخلها ، لاثارة الشكوك في نوايا الطبقة العاملة وطلائعها ولدفع الثورة للاستمرار في هذا الاتجاه، وكادت ان تقع بالفعل مأساة اخرى ، لم يكشف التاريخ عنها بعد .

على ان هذه الحادثة كانت سلاحا في يد كل الاقسام التي ترفض منطق «وحدة الجيش والشعب» فاشتد ساعدها وأنهار في النهاية القسم الاهم المدافع عن هذا الشعار ، تحت تأثير تلك الحادثة وغيرها من التطورات ذات الطابع السلبي ، ومنها تعطيل المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات ، مرة اخرى في سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

هكذا يمكن ان نقول «لقد نجح الاعداء» وبدأت فترة انفصام بين القسم الاكثر طليعية والاكثر ثورية داخل الحركة النقابية وبين الثورة . وسمح هذا التطور لتفاقم

ونمو الاتجاهات «الثوروية» داخل الحركة النقابية وانتهى الامر بصدام استمر سنوات .

من جانب اخر ، كانت الثورة تحاول ان تخلق لها انصارا داخل الحركة النقابية ، ولقد كانت تلك فرصة لاقصى اليمين ، لولا انه لحسن الحظ ، كان يفتقر للوجود الجماهيري والكادر داخل الحركة النقابية . ومن ثم فلم تجد امامها الا عناصر نقابية ليبرالية، واعدادا من النقابيين الجدد غالبيتهم ذوو ميول انتهازية .

على ان جوهر موقف الثورة كان لا يزال هو موقف «الشك» من الحركة النقابية ، وابرز دليل على هذا انه على الرغم من ان قانون العمل الجديد بعد تعديله عام ١٩٥٢ اصبح يعترف بوجود الاتحاد العام للنقابات ، الا انه لم يجر تكوينه طوال الفترة موضع المناقشة .

وعلى المستوى الدولي والوطني ، كانت الممارسة تنضج الثورة ، وتكشف لها عن معالم اعدائها الحقيقيين، وتوج هذا بمؤتمر باندونج ، ثم العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

ومع تطور هذا النضج ، في الملامح العامة لخريطة العالم والوطن ، ومع الصدام الذي جرى داخليا مع الفئات الاكثر يمينية ، بدأت مرحلة جديدة . فالاتحاد العام للعمال يتكون ، وكذلك الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ، ويجري انفتاح جزئي على القوى المتقدمة داخل الحركة العمالية داخليا ودوليا .

على ان الصدام مع حكم عبد الكريم قاسم بالعراق واصداءه الدولية ، يعطل من نضج هذا التطور ونموه ، ولكن سرعان ما تؤدي تجربة التعامل مع اليمن العربي في تجربة الانفصال السوري الى مرحلة مختلفة كيفيا عن المراحل السابقة .

من التجربة .. الى الوعي ..

فالثورة تصورت في المراحل السابقة ان للاستغلال اوطانا ، فركزت ضرباتها في الاساس الى قوى الاستغلال الاجنبي ... لكنها ادركت في النهاية ان الاستغلال موحد ، وكانت قرارات يوليو الشهيرة للتأميم ، ثم الميثاق الذي عكس مرحلة مختلة كيفيا ، مرحلة لم تعد تهديها الممارسة وانما اصبحت تدرك بوضوح خريطة العالم والخريطة الطبقية للمجتمع العربي ، والمصري .

فمكانة الطبقة العاملة ودورها ، ودور حلفائها اصبح محددا ، واستنهضت لتلعب دورها ، ليس فقط على المستوى الجماهيري ، وانما في البناء الفوقي وفي الرقابة على السلطة من مواقع مؤثرة (المجلس التشريعي ، وزير عمالي للعمل ، ومجالس ادارات المؤسسات) .

والى جانب هذا تحصل الطبقة العاملة على مكاسب اجتماعية وثقافية هامة وجذرية ، وارتبط بهذا انفتاح دولي للطبقة العاملة على الفئات المتقدمة من الطبقة العاملة ، وبالذات في البلدان الاشتراكية .

الاعداء لا يخطئون وحدهم

اخطأت الادبيات التقدمية كثيرا في تفهم الواقع المصري الخاص. ولتوضيح هذا دعونا نأخذ مثلين اخرين.

في عدوان يونيه ١٩٦٧ ، دبرت مؤامرة العدوان ونجحت بالكامل لولا انها اغفلت عنصرا واحدا . وراهنت القوى الاستعمارية طوال حيانها على رقبة الرئيس باختباره نهاية لمتاعبهم ، وفجعت الجماهير بوفاة الرئيس وظل البناء والموقف المصري ثابتا صامدا ، لان الاعداء اغفلوا نفس هذا العنصر .

لكن ليس الاعداء وحدهم هم الذين يخطئون فالادبيات التقدمية كثيرا ما تقع في نفس هذا الخطأ وتغفل نفس هذا العنصر ، فالجميع ينطلقون في دراسة وتقييم وتحديد خططهم وتحليلاتهم من تتبع نشاط البناء الفوقي للمجتمع المصري ، يتابعون المقالات والمطبوعات ، انشطة المنظمات العامة وجوهرها ، وهي في كثير من الاحيان لا تعكس حقيقة التغيير الذي يجري في القاع .

لهذا جرى تحليل ايام ٩ و١٠ يونيو المجيدة على اعتبار انها هبة تلقائية ثم سكت التحليل فلم يتحدث عن مسيرات الفقراء والشباب يوم وداع القائد والمعلم عبد الناصر .

ان الشيء الذي يجب التنبه له ان النضال اليومي للجماهير مدرسة كبيرة وهامة . وفي بلد مثل مصر ظلت جماهيره تعيش منذ الحرب العالمية الثانية وبصورة ثابتة ، تحت ظروف تتسم بالحدة والتوتر السياسي ، كان لهذه الاحداث كل الاثر في تثقيف وتربية الجماهير، وبالذات الفئات المتقدمة فيها .

ناصر .... ابن الشعب

ولقد كان القائد والمعلم عبد الناصر .... هو ابن الشعب الذي تفهم بعمق هذا الواقع ، والمعبر بالفعل عن تلك الجماهير . ان البناء الفوقي للمؤسسات لم يستطع ان يحجب عنه ادراك ما يجري في قاع المجتمع . ولم يستطع ان ينال من ثقته التي لا حد لها بالشعب وبالذات بالعمال والفلاحين الذين انحاز لصفهم بوضوح .

ان المشوار الذي ساره عبد الناصر ، ليس فقط ملحمة شعبية بل هو ملحمة طبقية .

ويفرض واجب الامانة ان اعترف بأن هذا العرض عام بدرجة كبيرة ، وأن البحث يحتاج الى وقت اطول والى جهد مشترك وليس مجرد اجتهاد فردي .

القاهرة — **احمد طه احمد**

الناصرّية والنضال ضدّ الاستعمار

بقلم جمال الشرقاوي

سيسجل التاريخ دائما ان الناصرية كانت في مجال النضال ضد الامبريالية والاستعمار بالذات واحدا من ابرز التيارات الوطنية في هذا العصر .. ان لم تكن ابرزها على الاطلاق .

ذلك ان النضال ضد الاستعمار ، باشكاله وظلاله ، كان هو الخط الاساسي في نشاطها طوال حياة مؤسسها الزعيم الخالد جمال عبدالناصر على مسرح السياسة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى وفاته في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. وهو لا يزال الخط الاساسي للقيادة التي خلفته بعد وفاته » .

كما ان قيمتها ـ كتيار وطني ـ لا تنحصر فيما افرزته من مواقف عملية كان لها قيمة عظمى وتاثيرات واسعة وعميقة .. وانما ايضا فيما صدرت عنه من فلسفة خاصة ، وما اتسمت به من ملامح خصوصية ، جعلتها ـ بحق ـ تيارا اصيلا ، واضافة غنية الى التراث الثوري للانسانية كلها .

واذا كان الحكم قد صدر لصالح الناصرية من جماهير شعبنا وقوى الامة العربية الوطنية .. ومن كل القوى المناضلة من اجل الحرية والتقدم في العالم على اختلاف اتجاهاتها .. بما لا يترك مجالا للاشادة او التقدير .. فان اقصى ما يمكن لكاتب يتصدى لهذا الجانب من الناصرية ، هو ان يحاول ابراز الملامح الخاصة بتجربتها في النضال ضد الاستعمار ..

وهو امر يحتاج ـ لا يزال ـ للكثير .. لكنني سأحاوله بتركيز شديد ..

* * *

١ ـ من الكلمات الاولى التي قالها جمال عبدالناصر، نستطيع ان نتبين على الفور الارضية الفكرية للموقف الناصري من الاستعمار ، والمفهومات التي انطلق منها نضاله ضده :

* فالاستعمار هو العدو الرئيسي لتعبئنا ، وهو السبب الاساسي من كل التخلف والمشكلات التي تعاني منها البلاد ..

* ولا خلاص لمصر ، او للعالم العربي ، الا بالتحرر الكامل من الاستعمار بكل صوره .. لانه هو في الحقيقة المتحكم في سياسة البلاد العربية ، وهو الذي « يضع لها المآزق ثم يحرمها من مواجهتها » وقد تجلى ذلك تماما في القضية الفلسطينية ابتداء من تسليم فلسطين للصهيونية، الى دفع الدول العربيه لحرب هزليه معها عام ١٩٤٨ .. والتحكم في السياسه العربية في كل بلد عربي في كل الاحوال ، بما يصيب العرب دائما بالخسران ـ « فلسفة الثورة » .

* ان الاستعمار قد لجأ ـ خاصة بعد ثورة ١٩١٩ في مصر ـ الى التخفي وراء لافتات وطنية مزيفة ، تتمثل في نظم حكم محلية ، وديمقراطية وهمية ، واحزاب رجعية .. اي تستتر وراء حلفائه من الطبقات الرجعية من اقطاعيين وكبار رأسماليين طفيليين .. وعروش فاسدة . والسبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار الان ـ قبيل وفي اعقاب الثورة عام ١٩٥٢ ـ لا يتأتى الا بضرب ركائزه الداخلية ، وطردها من مواقع السلطة ، ثم توجيه السلطة الوطنية بكل طاقاتها للنضال ضد الاستعمار ، الذي لا بد ان يقهر في النهاية طالما انه عزل دخليا وان الحركة الوطنية تخلصت من احتمالات الضرب من الخلف ..

« لقد وجدنا انه لا يمكن القضاء على الاستعمار الا بعد القضاء على اعوانه في الجبهة الداخلية ، وكانت لنا امثلة حدثت في الدول التي استطاعت ان تقضي على الاستعمار في بلادها ، فانها بدأت بالتخلص من اعوان المستعمر وتقوية جبهتها الداخلية لتستطيع ان تركز جهودها في اتجاه واحد ضد المحتل .. »

ـ من قصة الثورة ـ كتبها جمال عبدالناصر ونشرت في احدى الصحف الصباحية يوم ٢٢ يوليو سنة ٥٣

* والنضال ضد الاستعمار لا بد له ان ينطلق من موقف مبدئي الى جانب الحرية .. وليس من موقف

انتهازي او اناني يقوم على المساومة .. ولذلك فلا بد ان يكون الشعار واضحا : الحرية الكاملة غير المشروطة للوطن .. وفي نفس الوقت اتخاذ ذات الموقف بالنسبة للاخرين .

وفيما يتعلق بالحركة الوطنية المصرية ، فلقد كانت هناك مشكلة دائمة تسهم في افساد كل المحاولات التي تمت للوصول الى نتيجة بالنسبة لوجود الاحتلال الاجنبي ..

كانت بريطانيا تحتل مصر نفسها وتتحكم فيها بالكامل .. ومع ذلك ، فقد كان الساسة البرجوازيون في مصر يتصورون انهم شركاء لبريطانيا في السيادة على السودان . بل لقد ذهب بعضهم الى حد تصور ــ باسم فتوحات محمد علي واسماعيل ــ ان السيادة المصرية هي الاصل وان بريطانيا يجب ان تخرج .. وتترك السودان لمصر !

وكان موقفا غريبا ومضحكا. هؤلاء الذين لا يستطيعون امتلاك حرية بلدهم ، يريدون ان يكونوا مستعمرين لبلد اخر !

وهكذا ، في كل مفاوضات كانت بريطانيا الاستعمارية تضع موضوع السودان كالعقدة في المنشار .. وتجعل المفاوض المصري هو الذي يرفض في النهاية الوصول الى نتائج .. لانه كان يعلق اي اتفاق على تأكيد السيطرة المصرية على السودان ..

لكن ذلك المفاوض، الممثل للحلف البرجوازي الاقطاعي صاحب الاطماع الخاصة في مصر والسودان على السواء ... كان ، تحت شعارات مثل :« تقطع يدي ولا يقطع السودان » ، يعطى لبريطانيا فرصة البقاء في مصر والسودان معا ..

ثم جاءت ثورة يوليو .. وادركت ان قضية الحرية واحدة .. وان من يدافع عن حريته لا بد وان يدافع عن حرية الاخرين .. فهذا هو الموقف المبدئي الوحيد . فقدمت مذكرة لبريطانيا ــ نوفمبر ١٩٥٢ ــ تطالبها فيها بحسم الموقف بالنسبة للسودان ... **بان يكون للشعب السوداني نفسه حق تقرير مصيره على النحو الذي يريد.** واسقط في يد بريطانيا ، فوافقت . وانتهت مشكلة السودان تماما بتوقيع اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ .. واصبحت القضية واضحة بين مصر وبريطانيا : الجلاء عن مصر فورا .. وبالكامل .

★ والنضال ضد الاستعمار ليس مجرد نشاط من اجل التحرر من وجوده العسكري او قوات احتلاله .. انما هو نضال ضد كل مظاهر وجوده الاقتصادية والفكرية وقبلها السياسية .. . كما انه نضال ضد كل نظام الامبريالية كنظام عالمي استغلالي .. وليس هناك انخداع في نواياه تجاه الشعوب :

«الانجليز يعرفون تماما ان تقوية المواطن المصري فيها اضعاف لقوتهم ونفوذهم في هذا البلد ، انهم يدعون امام العالم بانهم يعملون على رفع مستوى الحياة في الامم التي يحتلون ارضها ، وهذا منطق يستحيل فهمه ولا يمكن ان يتفق مع العقل في قليل او كثير .. « وهذا هو **العالم الحر** ايضا يعلن بابواقه انه يساعد الشعوب الصغيرة على تقرير مصيرها واختيار الحكم الذي تراه ، وانه يساعد الامم المتخلفة على ان تنهض ..

« هذا كلام اعتبره المادة المعروفة ب « الافيون » يصدره عالم الغرب لتخدير الشعوب المستعبدة لكي تنام، ويظل هذا العالم الحر مسيطرا عليها حتى لا تقوى وحتى لا تقف في وجهه وحتى لا تسعى الى التخلص منه ..

« انهم يعتبروننا اسواقا لترويج منتجاتهم ، وانهم لينهبون ويسرقون ويقدمونها لاهليهم ولابنائهم ،ويعطوننا بدلا منها وعودا خلابة ، وكلاما كله ضلال وتضليل..

« **واليكم امريكا مثلا :** ان كل الصحف تقول انها ستعطينا قروضا . ستساعدنا على تنفيذ مشروعاتنا الانتاجية . انها تعمل على رفع المستوى الصحي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الامم التي تحتاج الى ذلك ..

« وها نحن اولاء بعد اربعة عشر شهرا من قيام الثورة لم نر شيئا ، ولم نصدق شيئا ، فانها كلها وعود وكلها خداع ، وكلها بهتان » ..

ــ من خطاب بمنيا القمح ــ ٢٠ نوفمبر ١٩٥٣ ــ

وهي كلمات واضحة ، يهمنا منها ان نركز على بعض النقط التي اثارت جدلا طويلا :

ــ فهي تكشف بجلاء عن ادراك عميق ومبكر لطبيعة المعركة ضد الاستعمار باعتبارها معركة شاملة ، ضد المعسكر الاستعماري كله . . « بريطانيا » ــ العدو المباشر عندئذ ــ و« **الغرب** » ، و« **العالم الحر** » ، و« **اميركا** » ..

ــ وهي تبين ان موقف الناصرية من الولايات المتحدة على وجه التحديد ليس جديدا .. كما ان **ليس متماشيا او مخدوعا** كما اشيع في فترة من حياة الثورة المصرية .. وانما هو موقف مضمر اعلن عنه في هذه الكلمات المبكرة ، ثم لم يلبث ان تطور مع تطور العلاقات والصدامات ..

ـ كما انها تثبت حقيقة هامة كثيرا ما اختلف حولها وهي : هل صدرت مواقف عبدالناصر من الاستعمار **كردود افعال** ترد على نشاط الاستعمار ، ام عن **موقف اصيل مسبق** .. نابع من وعي بالمعركة ، وتخطيط لابعادها .. فكلمات عبدالناصر الاولى تؤكد ان الخط المعادي للاستعمار لم يكن مجرد ردود فعل ، وانما هو خط ثابت .. فقط هو يعبر عن نفسه بمواقف محددة وفق ظروف محددة ..

٢ ـ ثم يجيء الحديث عن اتجاه السلوك الناصري في مواجهة الاستعمار ، او اسلوب العمل .

والحقيقة ان قيادة ثورة يوليو قد اتخذت لنفسها منذ البداية موقفا واضحا يتسم **بالمرونة والقوة .. بالصلابة في النضال ضد الاستعمار والاصرار على الدفاع عن مصالح الوطن ، لكن مع شيء من العملية ..**

ولقد كانت معركة هذه القيادة مع بريطانيا في اول عهد الثورة هي بداية النضال الفعلي ضد الاستعمار .. كما وهي ايضا المعركة النموذجية التي تعطي ابعاد السلوك الناصري في مواجهة الاستعمار .

فلقد اعلنت الثورة منذ البداية ان الهدف الاول لها ـ من بين الاهداف الستة التي اعلنت فجر ٢٣ يوليو ـ هو القضاء على الاستعمار . ثم لم يلبث جمال عبد الناصر ان حدد المسألة العملية المباشرة في هذا الشعار فقال في ١٥ ابريل ١٩٥٣ في معرض الرد على اللورد كيلرن السفير البريطاني الاسبق في مصر : « يجب ان تجلو القوات الاجنبية عن اراضينا جلاء كاملا ، وبدون اي قيد او شرط » .. وكان من قبل ـ ٢٣ فبراير ـ قد اعلن شعاره التاريخي : « على الاستعمار ان يحمل عصاه على كاهله ويرحل .. او يقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » .

على ان عبدالناصر قبل ان يدخل في مفاوضات مع بريطانيا بشأن الجلاء ، ولم يرفض اسلوب المفاوضة في حد ذاته .. وقد اثار ذلك كلاما كثيرا : كيف يقدم ثوري ، يريد الجلاء الكامل ، على مفاوضة محتلي بلاده .؟ وكانت هذه معركة قديمة في مصر ، بين كل الاحزاب المصرية التي كانت لا ترفض التفاوض بل تتهافت عليه ، وبين تيار اخر في مقدمة الحزب الوطني الذي رفع شعار « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ..

لم يرفض عبدالناصر المفاوضات من حيث المبدأ كما كان يفعل الحزب الوطني .. لكنه ايضا لم يدخلها متهافتا كما كان يفعل الساسة التقليديون .. ولكن دخلها وهو يؤكد ان لا مساومة على مبدأ الاستقلال الناجز .. وان كان يمكن البحث في التفاصيل ..

ثم .. عندما شعر ان البريطانيين يميعون المباحثات .. بادر الى قطع المفاوضات .. من جانب مصر ..

وعندئذ لجأ الى اسلوب الضغط العنيف : نشط حركة المقاومة المسلحة في منطقة القناة ، وبعث بضباطه الى هناك ينظمون حركة الفدائيين التي كانت موجودة من قبل ..

وتحت هذا الضغط الساخن اضطر الانجليز لان يطلبوا العودة الى المفاوضة ..

ومرة اخرى لم يرفض عبدالناصر .. وانما اكد اشتراطاته السابقة ..

هذا من حيث الشكل . اما من حيث المضمون ، فقد قبل عبدالناصر ان يوقع مع بريطانيا اتفاقية الجلاء في ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ . وكانت الاتفاقية تنص على جلاء قوات الاحتلال خلال عشرين شهرا .. جلاء تاما . لكن ان يبقى لبريطانيا حق العودة الى القناة في اي وقت اذا تعرضت هي او احدى حليفاتها للخطر .. وذلك خلال ٧ سنوات من توقيع الاتفاقية ..

وقد ووجهت الاتفاقية بمعارضة واسعة بسبب هذه النقطة .. بل ذهب بعض المعارضين الى حد اعتبارها ربطا اوثق لبلادنا بالاستعمار واحلافه وليس ببريطانيا وحدها ..

واستغلت جماعة الاخوان المسلمين الموقف في تبرير اغتيال جمال عبدالناصر ـ حادث المنشية ١٦ اكتوبر ١٩٥٤ ـ

ومن حيث ظواهر الامور، كان موقف المعارضة يبدو منطقيا .. لكن مواقف جمال عبدالناصر على المدى الطويل اثبتت ان المسألة ليست بهذه البساطة . كما اوضحت في الوقت نفسه المنهج الناصري في معالجة الصراعات الكبرى . .والنظرة البعيدة لجمال عبدالناصر في محاربة الاستعمار على وجه الخصوص ..

كان عبدالناصر يؤمن باستمرار بسياسة المراحل .. وكسب كل ما يمكن كسبه في كل منها ، ثم الانطلاق نحو المرحلة التالية لتحقيق كسب اخر سوف تتوفر الظروف لتحقيقه .. فالمهم الا تفقد القيادة الهدف او تساوم عليه .

وقد اعلن فعلا بعد توقيع اتفاقية الجلاء .. انها مجرد مرحلة .

وكانت خطة عبدالناصر تقوم على اساس ان وجود قوات احتلال للاستعمار هو ما يعطيه القوة المادية لعرقلة خطوات التحرير والثورة .. وكان همه الاكبر ان يتخلص

من هذه القوات لتصبح لديه حرية الحركة في تحقيق بقية المخطط ..

لكن ماذا وبريطانيا مصرة على ان تربط جلاءها بمثل هذا الشرط ، الذي عرضته مرة في صورة محالفة رباعية (تضم بريطانيا وفرنسا وتركيا الى جانب مصر) ومرة في صورة حلف للبحر الابيض .. ثم خففته امام اصرار الثورة الى حق العودة اذا تعرضت هي او تركيا للخطر.. وبمدة محددة هي ٧ سنوات ..؟

كان امام عبدالناصر اما ان يرفض ذلك الشرط ، ويدخل في صدام مسلح مع ٨٠،٠٠٠ جندي رابضين في القناة .. وطابور خامس من القوى الرجعية التي لا تزال لديها مصادر قوة كثيرة .. مع احتمالات ان تنهار الثورة نفسها .. واما ان يقبل هذا الشرط ، ويزيح كابوس الاحتلال ، ويكسب ارضا جديدة في الجبهة الداخلية .. ثم يتصرف في هذا الشرط .. ولديه امكانيات حقيقية لتجميده ..

وقد اخذ عبدالناصر بالثانية ..

وثارت المعارضة وهاجت .. لكن عبدالناصر صمد فقد كانت لديه خطة واضحة ..

على ان الاهم من ذلك هو الروح التي عالج بها عبدالناصر معركته الاولى الكبيرة مع الاستعمار . فمن الواضح ان قائد ثورة ٢٣ يوليو ، صاحب التاريخ الوطني القديم ، الذي عاش تجربة حرب فلسطين وتعمق في ابعادها ، والذي تأمل كثيرا في دراسة الظروف المحيطة ببلاده .. قد ادرك ان المعركة مع الاستعمار لن تكون جولة واحدة .. كما انها لن تحسم بسرعة .. ولن يكون وجهها الوحيد هو الوجه السياسي او العسكري .. بل ستكون ابعد من ذلك بكثير ..

ومن ثم فقد وطد العزم على معركة ذات نفس طويل .. هو في النهاية الثابت فيها .
ومضت الاحداث .

بعد جلاء قوات الاحتلال جاء التقدم بالثورة . وكان ابرز معالم التقدم هو تعزيز الاستقلال عسكريا واقتصاديا .. ولتعزيز الاستقلال عسكريا كان لا بد من بناء جيش وطني قوي ، وتسليحه .. اما تعزيز الاستقلال اقتصاديا واجتماعيا فكان معناه بناء قاعدة اقتصادية متينة ..

وبحث عبدالناصر عن السلاح عند المصادر التقليدية فرفضت وضغطت .. فاشترى السلاح من الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا .. وفتح اول جسر قوي مع المعسكر الاشتراكي ..

ثم اراد ان يخطو على طريق تعزيز الاستقلال وتنميته خطوة اكبر فصمم على بناء السد العالي . وكانت المعركة الكبرى مع الامبريالية العالمية مجتمعة ..
وامم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ..

ولم يكن تأميم قناة السويس مجرد رد على سحب عرض تمويل السد العالي من جانب الغرب .. كما لم يكن مجرد طريق للحصول على عائدها من الرسوم لتغطية بعض نفقات خطة التنمية .. ولكنه الى جانب كل ذلك وقبله كان تحقيقا لامل وطني قديم ظل يعتمل في ضمير جمال عبدالناصر ورفاقه منذ زمن طويل (ذكر جورج فوشيه في كتابه جمال عبدالناصر ورفاقه ان جمال عبدالناصر عندما كان يبحث عن حل لمشكلات المجتمع المصري استوقفه البرنامج الاجتماعي لحزب مصر الفتاة وبالذات نقطة تأميم قناة السويس . وكان يعتبر وجود هذه النقطة ميزة لذلك الحزب على غيره من الاحزاب القائمة ..) ، كما كان استجابة لمطلب شعبي رفعته القوى الوطنية والتقدمية قبل الثورة ..

على اي حال فقد رد الاستعمار على تأميم القناة - وعلى سياسة عبدالناصر الوطنية كلها - بالعدوان الثلاثي في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ . وكان ذلك ايذانا بالقطيعة بين الثورة وبين بريطانيا وفرنسا ..

وانتهت اتفاقية الجلاء . فقد اصدرت الثورة قرارا في اول يناير ١٩٥٧ بالغائها اعتبارا من ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ وهو اليوم الذي تدخلت فيه القوات البريطانية في العدوان ضد مصر ..

واعقب ذلك سلسلة من الاجراءات التصفوية للوجود الاستعماري البريطاني والفرنسي في البلاد ،كان من اهمها تمصير الشركات والبنوك البريطانية والفرنسية في مصر (١٥ يناير ١٩٥٧) ..

وماذا تفعل بريطانيا ، بعد ان جربت العدوان العسكري السافر ؟ هل يجدي بعد ذلك نص في اتفاقية يبيح لها « حق » العودة الى القناة بينما هي لم تستطع العودة بالقوة ؟

وهكذا اضطرت بريطانيا في ١٢ فبراير ١٩٥٧ لاعتبار اتفاقية الجلاء منتهية .

واصبحت المحصلة النهائية لاتفاقية ١٩٥٤ هي جلاء القوات البريطانية عن مصر بعد احتلال دام اكثر من ٧٠ سنة ، ولم تصبح قيدا على الحركة الوطنية ، ولا ربطا للبلاد بالاحلاف العسكرية .. وصارت - في التقييم الاخير - خطوة هامة على طريق النضال الصاعد والحازم ضد الاستعمار .

وهو امر تكرر كثيرا في المواقف الناصرية.. وربما يكون احدث استمرار له الموقف من مقترحات روجرز..

وقد آثرت ان اطيل فيه بعض الشيء للاهمية

القصوى في فهم المنهج الناصري وراء مواقف عبدالناصر .. وهو ما تحتاج القوى الوطنية العربية لاعادة النظر فيه بعمق .. حتى لا تتكرر المأساة !!

٣ – نستطيع ان نقول بدون ادنى مبالغة ان الناصرية مثلت من بين التيارات الوطنية المعاصرة **تيار المعارك الكبرى** التي ترتبط في حركة متلاحقة متصلة .

✶ خاضت المعارك الكبرى :

– معركة اجلاء جيوش الاحتلال البريطانية عن مصر (١٩٥٣ – ٥٦)

– معركة كسر احتكار السلاح (١٩٥٥)

– معركة حلف بغداد (١٩٥٥)

– معركة الاستقلال الاقتصادي والتنمية (من تمصير الشركات المساهمة في٧ يونيو ١٩٥٥ الى تمصير الشركات والبنوك الانجليزية في ١٥ يناير ١٩٥٧ الى تمصير بورصات الاوراق المالية في٢٩ يوليو ١٩٥٧ الى تمصير البنوك البلجيكية .. وتنفيذ خطط التنمية وبناء السد العالي .. الخ)

– معركة تأميم القناة (٢٦ يوليو ١٩٥٦)

– معركة التصدي للعدوان الثلاثي (اكتوبر – ديسمبر ١٩٥٦)

– معركة الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني ، ورفض وجود وتوسع القاعدة الاستعمارية الاستيطانية (اسرائيل) في المنطقة .. وهي معركة لا تزال مستمرة ..

– معركة النضال ضد كل القوى الموالية للاستعمار في المنطقة العربية .

✶ وتتميز معارك الناصرية ضد الاستعمار ايضا بانها **معارك ذات طابع شامل** . فهي لم تواجه استعمارا بعينه تخوض معه معركة ثم ينتهي الامر .. لكنها واجهت كل القوى الاستعمارية واحدة واحدة .. ومجتمعة . خاضت المعركة ضد بريطانيا من اجل تحرير مصر نفسها من احتلالها العسكري ، ومن اجل تحرير السودان .. ثم من اجل تحرير اليمن الشمالي والجنوبي .. وفي منطقة الخليج . وخاضت المعركة ضد فرنسا من اجل تحرير الاقتصاد المصري ، ومن اجل الجزائر ايضا . وخاضت المعركة ضد الاستعمار البلجيكي عندما اشتعلت ازمة الكونغو .. وخاضت المعركة ضد المانيا الغربية عندما انكشف دورها في العداء للحركات الوطنية وخاصة عندما ظهر تواطؤها مع اسرائيل في صفقات الاسلحة الخاصة .. وخاضت المعارك مع الولايات المتحدة بسبب السلاح . ثم بسبب ضغوطها الاقتصادية والسياسية التي توجت بسحب عرض تمويل السد العالي ، ثم بسبب مشروع ايزنهاور لملء الفراغ بعد هزيمة بريطانيا وفرنسا في السويس ، ثم بسبب موقفها المتواطىء العدواني الى جانب اسرائيل قبل واثناء وبعد عدوان يونيو ١٩٦٧ .. ولا تزال المعركة مع اميركا ، ذروة معارك الناصرية ضد الامبريالية العالمية – مستمرة حتى الان ..

✶ ولقد حاربت الناصرية الاستعمار **بكل اشكاله** .. سواء كان احتلالا عسكريا ، او انقلابات تآمرية ، او احلافا ، او اعمالا عدوانية حربية،او ضغوطا اقتصادية ضد العالم الثالث .. النامي .

وكان عبدالناصر ايجابيا الى اقصى حد في المبادرة الى دخول المعركة ضد الامبريالية في كل مكان .. ساهم بدور اساسي في كل مؤتمر للدفاع عن الشعوب .. وفي انشاء المنظمات المعادية للاستعمار : مؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي – مؤتمرات عدم الانحياز – التضامن بين القارات الثلاث ..

لكن التاريخ يؤكد ان الناصرية لم تكتف – في نشاطها ضد الاستعمار – بمجرد العمل السياسي او اي عمل اخر في مستواه .. وانما – **وهذه خاصيةناصرية صرفة** – قد قرنت موقفها السياسي دائما بموقف عملي فريد .

لقد تصدت قيادة ثورة يوليو للاستعمار بكل امكانياتها المادية والتي وصلت في كثير من الاحيان الى حد **استخدام القوات المسلحة** .

فتحت ثورة يوليو صدرها لكل المناضلين ضد الاستعمار ، سواء من العالم العربي ، او من افريقيا . سمحت بفتح المكاتب ، وتقديم العون المالي .. وساهمت في تدريب المتطوعين والمقاتلين ، وقدمت البرامج الموجهة ..

لكنها كثيرا ما خاضت المعركة المسلحة جنبا الى جنب مع المناضلين من اجل الحرية : مع ثوار الجزائر، والى جانب الثورة اليمنية في الشمال ، ومع ثوار الجنوب ، والى جانب الحكومة الاتحادية في نيجيريا .. وارسلت بقواتها النظامية تتصدى للمؤامرات الاستعمارية في اليمن والجزائر والعراق وليبيا وسوريا ..

ولعل هذا الموقف العملي الشجاع المقدام ، وما ترتب عليه من تضحيات ضخمة ، امتدت الى جبهات كثيرة ، هو ما أكد – الى جانب تأكيد دور مصر التاريخي – الدور القيادي القومي والعالمي للناصرية ،وما حماه من تهجمات مناوئية ، سواء من الجبهة الاستعمارية، او من الاتجاهات الوطنية الفجة ، ضيقة الافق ،كثيرة الكلام ، قليلة العمل !

٤ ـ على ان اهم خاصية في الناصرية كتيار وطني هي ادراكها العميق ـ والمبكر ـ لقومية نضالها ضد الاستعمار . فلم تحصر قيادة ثورة يوليو نضالها ضد الاستعمار في قيود الحدود المحلية الضيقة .. وانما امتد بصرها عبر سيناء ـ على عكس القيادات الوطنية السابقة ـ لترى انها جزء من امة واحدة مزقها الاستعمار وجزأها داخل حدود مصطنعة .. ومن ثم فقد ادركت ان نضالها ضد الاستعمار هو نضال ضدالتجزئة والتمزق في العالم العربي .. نضال قومي وحدوي .

بهذا الادراك نظرت للاجهزة العربية الرسمية . وتجاوبت مع الحركات التحريرية في الجزائر ـ من اواخر عام ١٩٥٣ ـ وفي سوريا ،ثم العراق ، واليمن.. واخيرا السودان وليبيا ..

لقد تبنت ثورة يوليو كل الثورات العربيةواصبحت بالنسبة لها الثورة الام .. فرعتها وساعدتها ، بقدر ما كانت قدوة ومثلا لها ..

وهكذا تجاوبت الناصرية مع اعمق متطلبات النضال العربي المعاصر .. كنضال قومي يتطلع الى تحقيقالحرية والوحدة والاشتراكية .. للامة العربية بأسرها ..وليس لمصر وحدها .

وبذلك لم تبق الناصرية تيارا وطنيامزدهرافحسب، وانما قامت بدور القابلة التي ولدت على يديها ثورات عربية شقيقة . . لم تلبث ان تجاوبت في تياروحدوي قوي اعطى الحركة الوطنية العربية دفعات جديدة .. مجددة .

٥ ـ ولم تكن الناصرية لتصبح قوة جذب قومية وانسانية ـ هائلة الا لانها امتلكت بالفعل مقومات الحياة والتجدد والارتقاء ..

فلقد استمرت في تصاعد دائم لاكثر من ١٨عاما، وهي لا تزال .. بينما لم تستطع اي تيارات اخرىسابقة او معاصرة لها ان تكتسب هذه الخاصية ، وانتهت تماما كما هو الحال بالنسبة للتجربة الاتاتوركية في تركيا ،او انتكست انتكاسة مريرة كما حدث في تجربة الرئيس الاندونيسي احمد سوكارنو .. او تميعت وتعرضت لهزات عنيفة ادت الى انكماشها وانحسار دورها العالمي وهو ما لا تزال تعاني منه التجربة الهندية بعد نهرو ..

وفي اعتقادنا ان الناصرية اكتسبت هذه الامكانية لسببين جوهريين ـ بالاضافة الى كل ما سبق :

الاول : هو انها استطاعت ان تلحم بشكل جدلي وثوري بين النضال الوطني والاجتماعي ، كانت ضرباتها للاستعمار مصحوبة بضربات موازية لنفوذ الطبقات المالكة المحلية . وكانت اجراءاتها الوطنية ضد النفوذ الاجنبي مرادفة لاجراءات اجتماعية جذرية تضرب الاستغلال وتفتح المجال لتطوير المجتمع على طريق الاشتراكية ..

وليس غريبا ان تكون الناصرية فعلا هي صاحبة المعارك الكبرى ضد الاستعمار .. وصاحبة المعارك الكبرى على الجبهة الداخلية ضد القوى التقليدية محليا وعربيا .. وان تكون هي نفسها اكثر النظم التيظهرت في عالم ما بعد الحرب ـ خارج المعسكر الاشتراكي ـ التي اخذت بنظام التغيير الاجتماعي ..

وهكذا لم تصبح ثورة يوليو مثلا في مجال معاداة الاستعمار ـ وهو الجانب السلبى من القضية الوطنية ـ فحسب .. وانما صارت ايضا مثلا في معالجة قضايا الاستقلال والتنمية ، والهياكل السياسية التي تخدم الشعب ..

والثاني : هو أن الناصرية استطاعت ـ دون بقية التيارات الاخرى التي وقفت عند مستوى اقل ـ ان تقيم اوثق علاقة بينثورة وطنية ـ ذات اتجاه اشتراكي بعد ذلك ـ وبين المعسكر الاشتراكي .

لقد ادركت الناصرية ان النضال ضد الاستعمار نضال عالمي . وان هذا النضال انما تخوضه جبهة عالمية عريضة من كل القوى المعادية للامبريالية . وان القوتين البارزتين في الجبهة هما حركة التحرر الوطني والمعسكر الاشتراكي ..

ومن ثم فقد اقام عبدالناصر نموذجا رائعا من التعاون والاخوة مع المعسكر الاشتراكي وبصفة خاصة مع قيادة ذلك المعسكر متمثلة فيالاتحاد السوفياتي..

واحدث هذه العلاقة الجبهة المعادية للامبريالية بقوة هائلة .. كما حمت الناصرية في مواقف كثيرة من الهجمات الشريرة للامبريالية .. وعززت فيالوقت نفسه دور الاتحاد السوفياتي العالمي ..

وكان ذلك كله لصالح الثورة العالمية .. اسهمت فيه الناصرية بنصيب عظيم .. كما استفادت منه في مواصلة نضالها .

القاهرة **جمال الشرقاوي**

جمال عبد الناصر والنزعة التاريخية

بقلم سامي خشبة

نزمع في هذه السطور ان نوضح جانبا واحدا من جوانب البناء الفكري لاسلوب جمال عبدالناصر في قيادة ثورة التحرر الوطني والتحول الاجتماعي في مصر ، وتأثيره القوي على حركة التحرر الوطني العربية والافرو آسيوية خلال الفترة التي امتدت منذ ١٩٥٢ حتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ ، هذا الجانب الذي يمكننا ان نسميه نزعة عبدالناصر « التاريخية » في رؤيته للحركة السياسيةالتي خاض غمارها ووقف على رأسها هذه الفترة الحاسمة من تاريخ امته .

ونحن نعني بالنزعة التاريخية مبدأ التعرف على الظواهر الاجتماعية في اطار — ومن خلال — عملية نشوئها وتطورها وفي ارتباطها بالظروف التاريخية المحددة التي تحكمها. فالنزعة التاريخية — كما يقول القاموس الفلسفي — تدل على النظرالى الظواهرالاجتماعية باعتبارها منتجات لتطور تاريخي محدد ، وهي نظرة تضع في اعتبارها كيف تنشأ تلك الظواهر ، وكيف تطورت، وكيف وصلت الى حالتها ووضعها الراهنين (١) .

ان وقوف القائد الثوري على رأس حركة التحرر الوطني لامته ، هذه الحركة التي تعني بالضرورة التعبير عن التغير الشامل الذي تم في المجتمع من قبل ، والقدرة على استشراف ضرورات التغير الاجتماعي الاكثر شمولا والذي لا بد ان يبدأ بعد تحقيق التحرر الوطني الكامل اقول ان وقوف مثل هذا القائد على رأس مثل تلك الحركة لا يمكن ان يأتي اعتباطا ، ولا بمجرد ضربة من ضربات الحظ الموفق او بسبب نجاح خطة تآمرية احكم اعدادها . ان الالتقاء العميق الذي تم في مصر وفي الوطن العربي كله بين الضرورات الحتمية التي فرضتها الحركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ بداية الحرب العالمية الثانية وبين فهم عبدالناصر — وقدرته على تطوير فهمه — لدوافع هذه الحركة ومطالبها الاساسية ، وضروراتها المحتمة ، هذا الالتقاء هو الذي يستطيع وحده ان يفسر قدرة «حركة الضباط الاحرار » في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على التحول الى بداية للمرحلة الاخيرة من مراحل الثورة الوطنية في مصر ، وفتح الطريق امام التحول الاجتماعي الشامل في مصر ايضا ، وكذلك فتح الطريق امام توحد اجنحة الثورة الوطنية في مختلف الاقطار العربية الامر الذي هيأ الظروف — رغم كل شيء — لانتصار هذه الثورة في اكثر من قطر عربي بمستويات مختلفة منذ عام ١٩٥٢ حتى الان. وهذا الالتقاء ايضا هو الذي يفسر السبب الذي جعل عبد الناصر وحده من بين كل قادة الثورات الوطنية في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، يستطيع ان يجعل الحركةالثورية الوطنية فيحدودها المحلية (اي في مصر) نواة توحيد قوية للحركة الوطنية الثورية على المستوى القومي كله ، اي في كافة ارجاء الوطن العربي التي كانت ما تزال ترزح تحت نير الاستعمار . ويمكننا هنا ان نقارن بين ما حدث في الهند مثلا (ونقصد هنا بالهند معناها الجغرافي القديم الذي يشمل الهند والباكستان الحاليتين) حينما انحرفت الحركة الوطنية واضطرت الى التسليم بتجزئةالوطن الواحد تحت وطأةالخلافات الدينية بدلا من ان تكون الحركة الوطنية دافعا الى استيعاب هذه الخلافات وتخطيها يمكننا ان نقارن ذلك بموقف الحركة الوطنية العربية التي استقطبها عبدالناصر من وضع التجزئة الفعلي حيث اصبح « توحيد » الوطن مرادفا لتحريره من القهر الاستعماري ومن التخلف الاجتماعي في آن معا ، وحيث اصبحت الوحدة تعني انتصار الثورة

(1) A- Dic . of Philosophy - moscou - 1967 - P 193

التحرر الوطني ، وبداية التحول الاجتماعي في وقت واحد، بتصفية الوجود الاستعماري والطبقات المستفيدة من التجزئة والتي تكرس التجزئة ايضا .

ولم يكن عبدالناصر هو اول من رفع شعار الوحدة ولا اول من ربط بين الوحدة والحرية والاشتراكية ، ولكن كان اول من استطاع ان يضع برنامجا عمليا وينفذ سياسة واقعية تحقق الارتباط بين الوحدة العربية وبين تحرير الوطن العربي من الاستعمار وبداية تحوله الاجتماعي وفقا لمراحل تطور اقطاره المختلفة .. « ان العبقري – في مجال الافكار الاجتماعية – يسبق معاصريه ، بمعنى انه يلمح مبكرا عنهم معنى العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تظهر الى الوجود ، وبالتالي يستحيل في هذه الحالة حتى الحديث عن استقلال العبقري عن بيئته ، وفي مجال العلم الطبيعي يكتشف العبقري قوانين لا تستند بالطبع على العلاقات الاجتماعية ، لكن دور البيئة الاجتماعية في اي اكتشاف عظيم يظهر قبل كل شيء في تراكم ذلك الرصيد من المعرفة الذي لا يستطيع اي عبقري بمفرده ان يصنع شيئا بدونه ، ويظهر ثانيا في تحويل انتباه العبقري الى هذا الاتجاه او ذاك .. (١) .

ان نزعة القائد الثوري التاريخية هي مايصنع ارضية التقائه بالتطور الواقعي لامته ، كما ان « ثوريته » الواقعية ذاتها هي ما يميزه عمن سبقوه حتى الى الانكار التي يصبح هو علما عليها . القائد الثوري في عصرنا – عصر انتصار حركة التحرر الوطني والاشتراكية وانهيار الاستعمار العالمي – لا بد ان يرى في التاريخ البوتقة التي تمت في داخلها التفاعلات التي ادت الى صنع الحاضر ، ووضعت فيها بذور المستقبل . انه يرى « اللحظة التاريخية » التي يعيشها ويقف على رأسها باعتبارها نتيجة العوامل التي حدثت في الماضي والتي صنعها الناس في اثناء خوضهم غمار الحياة وفقا للقوانين التي تحكم حركتهم في المجتمع . انه لا يكتفي بوجهة نظر المؤرخ ايا كانت لانه لا ينوي ان يدرس الماضي وحده ، ولا يمكن ان يتبنى موقف « الزعيم » لانه ما من ارادة فردية تستطيع ان تصوغ الحاضر او المستقبل على هواها طالما ادرك ان الجموع هي صانعة التاريخ وفقا لقوانين محددة ومتغيرة . ولكنه يحاول دائما ان يكتشف في التاريخ العناصر التى بلغت عناصر النضج في الحاضر الذي يعيشه وان يكتشف القانون الذي حكم مسيرة تلك العناصر فحكم بالانقراض على بعضها بينما سمح للبعض الاخر بالاستمرار . وهو بهذين الاكتشافين يفتح الطريق امام الوعي الانساني لكي يستوعب حركة المجتمع الذي يتشكل هذا الوعي في داخله،

(١) بليخانوف – تطور النظرة الواحدية الى التاريخ – ص ١٧٦ – ترجمة : محمد مستجير مصطفى – القاهرة ١٩٦٩ .

ومن اجل ان يتم التحول الجوهري او تبادل المواقع بين الوعي الانساني وبين حركة المجتمع ، وهو التحول الذي يبدأ به التاريخ الانسانى للمجتمع حيث يصبح وعي الانسان هو صانع الحركة الاجتماعية وقانونها وليس العكس، اي حيث تصبح الحرية متحققة وليست مجرد امكان محتمل، ولا يصبح التاريخ او الحركة الاجتماعية مفروضة على الارادة الانسانية لا تستطيع الا انتظار ما تحتمه عليها من نتائج والا الاستسلام لمثل تلك النتائج الحتمية .

ومع ذلك فالقائد الثوري – قائد حركة التحرر الوطني والتحول الاجتماعي في عصرنا – يعرف ايضا ان العناصر الاجتماعية التي يتحقق على ايديها هذا التحول ، انما تنمو ايضا في اطار الحركة الاجتماعية التاريخية ، وانها لا تخرج عن هذا الاطار مبرأة من كل آثاره ، وانها لا تستمر على صورتها التي بدأت بها مساهمتها الفعالة في حركة التحرر او في عملية التحول الاجتماعي . ويعرف ان المجتمع يحتاج الى مرحلة طويلة من النضال الدؤوب ضد مخلفات الماضي من اجل الوصول الى الوضع السيكولوجي والاخلاقي والفكري المنسق بحق مع وضعه السياسي والاجتماعي التاريخي الجديد .

ويعتقد الكثيرون ان نزعة عبدالناصر التاريخية لم تظهر بقوة الا منذ عام ١٩٦١ ، او بالتحديد مع صدور قرارات التأميم الكبيرة المشهورة التي حسمت قضية طريق النمو الذي تنوي الجمهورية العربية ان تسير فيه تحت القيادة الناصرية . وهم يبررون اعتقادهم هذا بان تلك القرارات ، وشروح عبدالناصر لها ، وخاصة ما جاء بعدها في الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ ، انما كانت التعبير النهائي عن « اقتناع » عبدالناصر بفكرة الصراع الطبقي وضرورة تصفية الرأسمالية المحلية باعتبارها اثرا من آثار المجتمع القديم ، وباعتبار تصفيتها الخطوة الحاسمة نحو بداية بناء المجتمع الجديد .

ولكن هذا الاعتقاد خاطىء لسببين :

اولهما ، ان عبدالناصر ، وان لم يصرح بوضوح باقتناعه بفكرة ان صراع الطبقات هو جوهر التاريخ الاجتماعي ، فان مواقفه المباشرة والعملية من قضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي لمصر ، تؤكد انه كان يدرك منذ البداية ، ويؤمن بان تاريخ « مصر » على الاقل انما يتلخص في تاريخ الصراع بين الفلاحين المعدمين وبين ملاك الارض الذين سماهم « الاقطاع » وان تاريخ مصر الحديث يمتزج فيه صراع العمال ضد الرأسماليين بصراع الفلاحين ضد ملاك الارض . وهناك العشرات من خطب عبدالناصر واحاديثه وبياناته في بداية الثورة (اعوام ٥٢، ٥٣، ٥٤) تحدث فيها باسهاب عن المشكلة الزراعية والقضية الوطنية ،وعن ارتباط تحرير الفلاح من سيطرة

مالك الارض الكبير بتحرير الوطن عن السيطرة الاستعمارية

ولكن فهم عبدالناصر لقضية الصراع الطبقي لم يقف ـ حتى في البداية ـ عند حدود هذا الفهم الاقتصادي الذي لم يجد القائد الثوري الشاب صياغة له سوى صياغاته الانشائية والخطابية المؤثرة ، ولكنها المعبرة بحق عن واقع ملكية الارض وعلاقة الفلاح بها وبمن يملكها . لقد تخطى عبدالناصر هذا الفهم الاقتصادي ، وتخطاه مبكرا الى رحاب فهم سياسي اكثر شمولا وعمقا .

في ٢ اغسطس عام ١٩٥٥ ، تحدث عبدالناصر الى مندوب جريدة لوموند الباريسية ، ويجيب على سؤال عن « الحريات الدستورية » التي ستتمتع بها مصر ، فيقول :

« ان الحرية في نظري هي حرية الرجل العامل ، حرية العامل في ان يحيا حياة كريمة ، وان تتاح له فسحة من الوقت للراحة ،وحرية الفلاح في الحصول على الارض وجني ثمار ما بذر وان يحتفظ بثمار جهوده فلا يعطيها لاقطاعي يضغط عليه ، هذه هي حرية الفلاح كما افهمها ..

ثم ما هي الحرية ؟ هل هي ان نرى الراسماليين يعيشون في عزلة عن بقية الشعب ، ينعمون بحياة الترف التي تعد سبة في جبين البلاد ؟ هل هي حرية الاقطاع الذي يحرم الفلاح من الارض التي تقيم اوده ويحرمه حقوقه الاولية ؟ ..، اننا نجد الاستغلاليين من رجال العهد البائد يناصبوننا العداء ،ولكن هذا لن يغير من الوضع شيئا فان الحرية التي نعمل لتحقيقها هي حرية الاكثرية لا حرية الاقلية ، ان الكادحين والفلاحين والعمال والتجار والطبقة المتوسطة يقفون الى جانبنا فهم يعلمون اننا نكافح في سبيل تحسين حالهم ».(١) هذه دون شك صياغة انشائية لتصور سياسي علمي صحيح عن حقيقة الصراع الطبقي في مصر ، وهو الصراع الذي كانت ثورة ١٩٥٢ نتيجته المباشرة والتعبير الصريح عن انتصار احد اقطابه الرئيسية. ولكنها ايضا صياغة واعبة بفخ العبارات الليبرالية من نوع « الحريات الدستورية » التي تتمتع هي الاخرى بصياغات انشائية ولكنها توهم بانها تعبر عن نوع مطلق او مجرد من الحرية ، لا يرتبط بمصالح طبقات محددة . وهذه الصياغة الانشائية ايضا التي تستطيع ان تحدد القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في التغيير الاجتماعي، بالكادحين والفلاحين والعمال والتجار والطبقة المتوسطة ، هي الصياغة التي عبرت عن التصور الاولي عند عبدالناصر عن حقيقة الصراع الطبقي في مصر ، ولكن هذا التصور نفسه هو الذي تطور فيما بعد لكي يجد صياغته السياسية الصحيحة في الميثاق والتي اطلقت على هذه القوى اسم « قوى الشعب العامل » حيث اكد ضرورة تحالفها في مرحلة الصراع الوطني والمراحل الاولى للتحول الاجتماعي.

وفي كلمات عبدالناصر ايضا ما يدل دلالة واضحة على ادراكه العلمي السليم لطبيعة الارتباط بين الصراع الطبقي وجوانبه السياسية والاقتصادية وبين الصراع الوطني من اجل التخلص من السيطرة الاستعمارية ، وهي دلالة لا تقل وضوحا عن دلالة مواقفه من الاحزاب الرجعية القديمة وجمعه بينها وبين قوى الاستعمار نفسه وتعامله مع الجانبين على اساس واحد .!

« وقد كنا يا اخواني نحارب في جبهتين : جبهة الاستعمار ، وجبهة البناء والتعمير ، وكانت هاتان الجبهتان متصلتين اتصالا قويا . فاننا قد اردنا ان نقضي على الاستعمار وعلى اعوان الاستعمار وانما نقضي عليهما لكي يكون الوطن ملكا لنا جميعا .. ملكا لنا ولابنائنا ..(٢) وقد قال عبدالناصر هذه الكلمات في يوليو ١٩٥٥ .

وبنفس الاسلوب ايضا ، يعبر عبدالناصر عن ادراكه لحقيقة ارتباط السلطة بالسيطرة الطبقية ، في الفترة المبكرة ذاتها فيقول في اكتوبر ١٩٥٤ :« كل واحد منكم يشعر ويحس بالماضي ،كل منكم يعرف ان الحكم كان اداة من ادوات الانتقام وان كرسي النيابة كان وسيلة من وسائل الانتقام ،وكل واحد كان يتبع هذه الوسيلة يمهد الطريق للتفريط في حريته وكرامته وعزته » (٣) انه يتحدث هنا عن طبيعة الديموقراطية « الليبرالية » ، الشكلية ،التي كانت الصورة الخارجية لنظام الحكم في مصر قبل ١٩٥٢، ويحدد ببساطة تكاد تكون غير سياسية العلاقة بين الاستيلاء على الحكم وبين ممارسة القهر الذي يسميه « الانتقام » وبين الوصول الى مقعد البرلمان وبين نفس الموقف الطبقي في جوهره .

ويعود عبدالناصر الى نفس الموضوع ، والى نفس الفكرة بعد اقل من عام ،لكي نجدها تزداد وضوحا وتحصل على تصور اكثر نضجا وان ظلت الصياغة الانشائية هي وسيلة التعبير الوحيدة ، والتي تفرضها طبيعة اسلوب حديث الرجل لابناء شعبه ومحاولة توصيل الفكرة بصرف النظر عن مصطلحاتها المعهودة .يقول في يوليو ١٩٥٥ :

« احب ان اقول لكم ان شعب مصر بعد ثلاثة اعوام طويلة من الثورة بدأ ينظر الى الحكومة على انها تمثل اهدافه وتمثل آماله بعد ان كان ينظر الى الحكومة في الماضي على انها تمثل آمال الاستعمار ، بل تمثل الاستبداد وتمثل الاستغلال » (٤)

---

(١) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات جمال عبدالناصر ـ القسم الاول ـ ص ٣ـ٤ـ٤ـ٤ـ طبع الهيئة العامة للاستعلامات ـ القاهرة

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق ـ ص ٢٣١ .

(٤) المصدر السابق ـ ص ٣٩٣ .

ولكن الملاحظ هنا ـ ايضا ـ في كلماته التي اقتطفها من حديثه عن حرية العامل وحقه في الحصول على « فسحة من الوقت للراحة » وعن ان كل « واحد يتبع هذه الوسيلة يمهد الطريق للتفريط في حريته وكرامته وعزته » ان عبد الناصر كان يستطيع ان يتجاوز الفهم الاقتصادي والسياسي للحرية الى فهم يقرب من الفهم الفلسفي العلمي لها . ان ارتباط الحرية ب الراحة » وارتباط قهر الاخرين بفقدان القاهر نفسه لحريته وكرامته ، يذكرنا ولا شك بمفاهيم فلسفية لم تبرز الى ساحة التصور الايديولوجي العلمي الا حديثا جدا ، وهذا لا يعني بالطبع ان عبدالناصر كان « فيلسوفا علميا » ولكنه يعني بالتأكيد ان حساسيته الثورية كانت قادرة على الوصول الى الكثير من المدركات العلمية الانسانية ، مجزأة دون ان تكون لبنات من نظرية متكاملة في الصراع الطبقي او في الحرية ،او في المفهومات السياسية عموما ودلالاتها السيكولوجية والاخلاقية ، ولكنها ذات تأثير قوي على ايديولوجية مجتمعه السائدة وعقليته وطريقة تفكيره .

اما السبب الثاني الذي يدفعنا الى الاعتقاد بان نزعة عبدالناصر التاريخية كانت سمة اساسية من سمات تفكيره منذ البداية واساسا قويا لقراراته التي اتخذها قبل عام ١٩٦١ ، فيظهر بوضوح من ميله الشديد الى العودة الى التاريخ الحديث لمصر وللوطن العربي ، في معرض كلامه عن التحول الذي ينبغي لمصر ان تعيشه سياسيا وفكريا . ولهذه العودة الدائمة الى التاريخ عند عبدالناصر دلالاتها المتنوعة .

لقد وعى عبدالناصر دوره ـ لا كمجرد رجل دولة او سياسي حاكم ، بل ولا كمجرد ثوري استطاع ان يصل الى الحكم ـ ولكنه كان يعرف ان دوره الاساسي ربما كان هو دور « الداعية الثوري » الذي لا يغيب عن ادراكه ابدا ان عليه ان يغير اسلوب حياة شعبه بايقاظ القوى صاحبة المصلحة في التقدم وتنظيمها وتسليمها زمام السيطرة الاجتماعية ، بقدر ما كان عليه ان يغير عقلية هذا الشعب واسلوبه في التفكير . وربما كانت وسيلته الاولى ـ ذات الطابع الرومانسي حقا ولكنها ذات التأثير العقلي والعاطفي القوي ـ هي العودة باستمرار الى نماذج محددة من التاريخ يستوحيها المعاني الجديدة ، ويعيد تفسيرها على ضوء فهمه « السياسي » للتاريخ ، ويزرع من خلالها افكاره وافكار عصره . وقد تكون احداث المقاومة العربية لغزوات الصليبيين والمغول من اشهر هذه النماذج التي وقف عبد الناصر عندها طويلا ، وهي ايضا من اشهر النماذج التاريخية ذات الطابع الرومانسي والتي كان عبدالناصر يعرف بوضوح تأثيرها العاطفي على وجدان امة لا بد ان تستعيد احساسها ب « العزة القومية والكرامة » على حد تعبيره المشهور الذي كان يعني به دائما استعادة الاحساس بالانتماء القوي الذي يغذي اكثر من غيره الاحساس الوطني لدى شعب يحارب قوى اكبر منه ، دفاعا عن كل ما يملكه .

ولكن النموذج التاريخي الاكثر واقعية والانضج تأثيرا من الناحية السياسية هو النموذج المستمد من الثورة المصرية في ١٩١٩ ونتائجها الكثيرة المتمثلة في اعلان استقلال مصر مع التحفظات الاربعة المشهورة ، وتكريس التكوينات الحزبية التي اكدت نضج الانقسام الطبقي والصراع في المجتمع المصري ، ثم دستور عام ١٩٢٣ ، هذه النتائج التي اكدت ان ثورة ١٩١٩ انما كانت ثورة شعبية اذا نظرنا الى قواتها الرئيسية ووقود نيرانها ، وثورة بورجوازية تحالفت مع كبار ملاك الارض وجنحت الى مهادنة الاستعمار اذا نظرنا الى نتائجها السياسية العملية .

في يوليو عام ١٩٥٥ ، يقول عبدالناصر :

« ولهذا يا اخواني حينما قضينا على اعوان الاستعمار ترنح الاستعمار واستطعنا ان نحصل على الجلاء .. اننا لم نسكت ابدا عن الكفاح منذ ان وطئت اقدام الانجليز ارض الوطن .. فهذا الشعب كافح دائما منذ ان وطئت اقدام الاستعمار ارض الوطن .. حارب الشعب في الاسكندرية وفي كفر الدوار وفي الشرقية، ولم يقبل ابدا ان يسلم .. وفي سنة ١٩١٩ قام هذا الشعب يحارب الانجليز بالعصي ... قام الشعب سنة ١٩١٩ وقام الشعب سنة ١٩٣٩ يطالب بالحرية ويطالب بالاستقلال ولكن اعوان الاستعمار كانوا دائما عونا للاستعمار ضد الشعب وضد امال الشعب .. وحينما قضينا على اعوان الاستعمار الذين كانوا يتسترون تحت اسم الحزبية ليحققوا لانفسهم المغانم الشخصية .. حينما قضينا عليهم ، وشعر هذا الشعب بانه اصبح قوة واحدة متحدة متماسكة استطاع نفر قليل ذهبوا الى القنال ان يجبروا جيش الاحتلال على التسليم وان يجبروه على ان يخرج جيشه من ارض الوطن .. لان جيش الاحتلال ، بل لان الاستعمار وجد انه لا سند له بعد ان تداعى اعوانه ..(١)

هنا لا يقدم عبدالناصر من تحليله لثورة ١٩١٩ سوى الجانب الذي يؤكد مشاركة الشعب فيها بالقوة الاساسية ، والذي يؤكد استيلاء « اعوان الاستعمار » من الطبقات الرجعية على كل مكاسبها ، ولكنه يقدم هذا الجانب في خطوطه السريعة لكي يوضح جانبا عصريا من الثورة الحالية ، يبشر به بين « شعبه » لكي يساعده على تغيير نظرته الى التاريخ وارتباطه بالقوى التي سيطرت عليه في السنوات بين ١٩٢٣ ، ١٩٥٢ السابقة مباشرة على الثورة الجديدة : فان الاستقلال الوطني الذي حاربتم من اجله قد ضاع لان الطبقات التي حاربتم تحت قيادتها قد هادنت الاستعمار على حسابكم ، ولم تكونوا تستطيعون الحصول على هذا الاستقلال الوطني الا اذا توليتم بانفسكم

(١) المصدر السابق ص ٤٠١ .

قيادة الكفاح الوطني ، واسقطتم تلك القيادة الرجعية المتهادنة . ليس هذا درسا في التاريخ ولكنه درس يهدف الى تغيير عقلية الشعب ! ان من يهادن الاستعمار لن يهادنه الا على حساب « الشعب » والقوى الثورية ، وهو يهادنه لان الاستقلال عن طريق الثورة الشعبية انما يهدده هو بقدر ما يهدد الاستعمار ، ولذلك فلا بد من القضاء عليه مع الاستعماربضربتين متتاليتين،ينال هو اولاهما ولا يستطيعان يسددهما سوىالقوى الشعبيةالثوريةوحدها.

وفي ٢١ يناير سنة ١٩٥٦ يتحدث عبدالناصر عن الدستور الاول الذي اصدرته الثورة في١٦ يناير من نفس العام ، فيعود الى نفس موضوع ١٩١٩ ، والى دستور ١٩٢٣ الذي كان احدى نتائجها :

« نحن نعلم جميعا ان الثورة ، ثورة ٢٣ يوليو لم تكن فقط ثورة سياسية ولكنها كات تجمع بين الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ـ وقد تضمن هذا الدستور المبادىء التي ترسي قواعد العدالة الاجتماعية والمبادىء التي ترسي القواعد السياسية النظيفة وتخلصنا جميعا من الظلم الاجتماعي وتخلصنا من الاستبداد السياسي .

اننا اليوم ونحن نبدأ مرحلة جديدة من تاريخنا يجب ان نأخذ من ماضينا عبرة . ففي عام ١٩١٩ قامت ثورة في مصر جمعت جميع ابنائها من اجل .. الاهداف الاجتماعية والتخلص من الاستعمار . واستطاع الشعب ان يجبرالملك والاستعمار علىان يطأطئوا الرؤوس وسارت مصر بعد ان اعتقدت انها حققت ما تصبو اليه واعلن دستور ١٩٢٣ . وكان دستور ٢٣ منحة منهم كما قالوا ولكن الشعب هو الذي كان بكفاحه وجهاده قداجبرهم على اعلان دستور ١٩٢٣ ، ولكن هل طبق هذا الدستور؟ ابدا لقد كان دستور ١٩٢٣ خدعة .. كان الشعب يمثل اهدافا واحدة لان الشعب الذي قام بالثورة كان يهدف الى عدالة اجتماعية نظيفة .. لقد انتكست ثورة ١٩١٩ ولم يكن الشعب هو السبب ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يطمعون في الاستغلال والتحكم في الشعب ، كان هؤلاء هم السبب الرئيسي والاول في انتكاس ثورة ١٩١٩، ونسينا الاهداف التي قمنا من اجلها في ثورة ١٩١٩ وانتهينا الى الاحقاد والحزبية وقاسى الشعب . انتم الذين قاسيتم . قاست الاغلبية العظمى،واصبحت تحكمها الاقلية التي تمادت في جمع المال والثروات وتم كل هذا تحت اسم الدستور والديموقراطية » .(١)

هنا يعود عبدالناصر ، من نظرته التاريخية الىتأكيد أحد المعاني الاساسية التي كان يرى ان تبشيره بها بعد مهمته الاولى ، ولكي ان يعي الشعب الثوري قدرته، في الماضي وفي الحاضر القائم . فالشعب بكفاحه وجهاده هو الذي اجبر الملك واعوان الاستعمار على اعلان دستور ١٩٢٣ ، ولكن القيادات المتهادنة مع الاستعمار والتي تخاف نتائج انطلاقة القوى الشعبية الثورية الواثقة من نفسها بعد نجاحها في كفاحها الثوري ،هي المسؤولة عن عدم « تطبيق » دستور ١٩٢٣ وهي المسؤولة عن ذلك لانها كانت تريد شيئا آخر ، كانت مشغولة « بجمع المال والثروات » على ان يتم كل هذا تحت اسم الدستور والديموقراطية. وعبدالناصر يقول هذا بعد ان يقول «علينا ان نأخذ من ماضينا عبرة ، فالتاريخ قد يكون مجالا للدراسة بهدففهم الحاضر اذا ما اكتشفنا ملامحه وقوانين حركته ، ولكن التاريخ ايضا يكون « اكثر » عبرة اذا كانت آثار المباشرة ما تزال ممتدة الى الحاضر القائم، وما تزال بحاجة الى ان يتصدى لها الثوريون ويجتثوها .

وفي ١ يونية ١٩٥٦ ،يعودعبدالناصر الى النموذج التاريخي المستمد من ثورة ١٩١٩ ، لكي يؤكد معنى اخر في ارتباط الثورة الوطنية بالثورة الديموقراطية والتحول الاجتماعي .

..« في عام ١٩١٩ قامت ثورة في مصر وكانتهذه الثورة تهدف الى اقامة حياة ديموقراطية سليمة ، وكانت هذه الثورة تنادي بالاستقلال التام .. واسلمت البلد قيادها الى زعماء اعتبرتهم امناء علىهذه الاهداف ... وبعد ذلك ماذا حدث ؟ هل تحققت الديموقراطية ؟.. تطورتالامور وانتهت ثورة ١٩١٩ بنصر دستوريوحصلت البلد على دستور في عام ١٩٢٣ . هل طبق هذا الدستور حسب مواده وحسب ابوابه وبنوده ؟ هل طبقت الديموقراطية بحيث تكون الحرية حرية شاملة ؟.. انتكست ثورة ١٩١٩ واصبحت الحرية هي حرية التحكم وحرية السيطرة وحرية الاستبداد وحرية الاستغلال . وبدأتفئة قليلة من ابناء هذا الشعب تعتبر ان هذهفرصة لتكسب ... لتغتني وتجمع اكبر قدر من المال ونسيت هذاالشعب الذي قام وثاروقاتلوقاسى وجابه الاستعمار. وابتدأت هذه الفئة القليلة تتآمر .. تتآمر من اجلمصلحة خاصة .. وجدت هذه الفئة القليلة انها لن تستطيع ان تقاوم الشعب ولن تستطيع ان تقاوم الاستعمار في نفس الوقت وايقنت ان الشعب لن يسلم ولن يستسلم ، ولكنه سيحاول مرةاخرى ان يطالب بحقه في الحياة . .سيحاول ان يطالب بحريته .. سيحاول ان يطالب بعدالةاجتماعية. ... واتجهت هذه الفئة المستغلة الى الاستعمار لتتعاون معه وتتآمر معه على حقوق هذا الشعب وعلى حرية ومقومات هذا الشعب (٢) .

فالطبقات المستغلة والمتحكمة والمستبدة لن تستطيع ان

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧

تقاوم الاستعمار والشعب في وقت واحد . انها قد تقدم « وعودا براقة وكلاما خلابا » كما يقول عبدالناصر في نفس الخطاب ، ولكنها لن تحقق من ذلك شيئا لانها مشغولة باستغلالها وثرواتها وترفها ، وستضرب القوى الشعبية الثورية وتتهادن مع الاستعمار ، ولكن « طال الامر » ولم يسكت الشعب ولكنه قاوم وهب وصبر ، ولكن هل استسلم الشعب . لم يستسلم ابدا . « كما قال عبدالناصر ايضا في نفس الخطاب .

★★★

فالنزعة التاريخية في المفهوم النظري – كما يقول القاموس الفلسفي – او كمنهج محدد في البحث النظري لا تعمل على تثبيت اي تغير تاريخي (حتى ولا التغير الكيفي) وانما تثبت فقط تلك التغيرات التي تعكس تكون الخصائص النوعية والارتباطات بين الاشياء والظواهر ، والتي تقرر معناها وخصائصها النوعية .

ولكن النزعة التاريخية في التطبيق العملي ، في ممارسة العمل السياسي الثوري ، لا بد ان تكون سلاحا اساسيا في يد القائد الثوري من اجل اكتشاف القوى الاجتماعية المختلفة في المجتمع الذي يعيش فيه ويناضل على راس قواه الثورية، ومن اجل تحديد الاعداء والاصدقاء الاعداء المؤقتين والاصدقاء المؤقتين والدائمين كذلك حتى يمكن توجيه العملية الاجتماعية توجيها واعيا نحو الهدف الثوري في المرحلة المعينة وطبقا لتصور واقعي وعلمي عن القوى المشتبكة في تلك العملية ، وهي سلاح ايضا من اجل اكتشاف المعاني الايديولوجية والسياسية الاساسية التي لا بد ان يتبناها القائد الثوري – باعتبارها المعاني المعبرة عن مصالح وعقلية القوى الاجتماعية المتقدمة – لكي يستخرجها من اطار التنظير المتعالى ، او التلقائية الفكرية ويدفعها الى رحابة وعي القوى الثورية كلها ، لتتحول هذه المعاني الى اجزاء اساسية من العقلية الثورية الجديدة ، القادرة وحدها على صيانة الثورة من التلقائية والتردد والفوضى . وان دراسة تفصيلية شاملة لمواقف عبدالناصر السياسية ، ولكلماته في الحركة الاجتماعية او القومية او في الثقافة والفكر ، لتكشف عن اصالة نزعته التاريخية ، رغم عدم قيامها منذ البداية على اساس نظري مسبق ظاهر .

كان عبدالناصر قادرا على اكتشاف معنى الواقع القائم ومعنى التاريخ جميعا من خلال مراقبته للاول مراقبة يقظة ومستجمعة ، ومن خلال دراسته الثاني دراسة مباشرة وموضوعية وغير متحيزة الا للحقيقة العلمية ولمصالح الجماهير الثورية . وربما كانت هذه هي النزعة التاريخية الاكثر اصالة ، وان كانت الاكثر تطلبا للجهد من اجل صياغتها واكتشافها ، والاكثر احتياجا الى هذه الصياغة وذلك الاكتشاف .

القاهرة — سامي خشبة

كارل ماركس

تاليف

روجيه غارودي

ترجمة : جورج طرابيشي

« يستقطب ماركس وتراثه اليوم مشاعر الامل والغضب عند الناس اجمعين ، ويمثل فكره ، بحب او بسخط ، سؤالا ووعدا وكفاحا بالنسبة الى البشر جميعا والطبقات كافة والامم قاطبة .

ذلك ان هدف هذه الفلسفة هو تغيير العالم ، وليس فقط تغيير الفكرة التي نملكها عنه ... فقد ازاح ماركس النقاب عن الفلسفة بوصفها تعبيرا عن عمل البشر وصراعاتهم ، ونزع ايضا قناع الفلسفات التي كانت تزعم انها تحلق فوق هذا العمل وهذه الصراعات ، وكشف الممارسات والسياسات التي انيطت بتلك الفلسفات مهمة تبريرها او تمويهها .

لقد اصبح فكر ماركس الوعي الفاعل لعصر بأكمله . فهو يعلمنا كيف نستخلص قانون التطور التاريخي لعصرنا ، ويساعد كلا منا على ان يعي معنى حياته ومعنى المستقبل الذي يحمله في طوايا نفسه ، ومعنى مسؤوليته تجاه هذا المستقبل .

ان فكر ماركس يبدو اليوم ، بالنسبة الى انصاره واعدائه على حد سواء خميرة الاختمارات الانسانية قاطبة في القارات الخمس . فهو يستدعي لدى بعضهم مشاعر الحقد واللعنة ، والاضطهاد والمحارق البشرية على نطاق لم يعرفه التاريخ قط ، ويثير لدى الجماهير الغفيرة التي وجدت فيه منفذا للنجاة ومعقدا للرجاء اندفاعة معجزة نحو البطولة والتضحية .

وما اخذه هذا الكتاب على عاتقه هو محاولة تفسير تلك الواقعة الهائلة » .

صدر حديثا — الثمن : ٥٥٠ ق.ل.

عبد الناصر وحركة التحرر الافريقية

بقلم حسين شعلان

مثلما كانت وفاة جمال عبد الناصر خسارة فادحة للشعب المصري وحركة التحرر الوطني العربية ، فانها ايضا خسارة كبيرة لحركة التحرر الوطني الافريقية . وصحيح كذلك انها خسارة فادحة لحركة التحرر الوطني العالمية العامة المعادية للاستعمار والمناضلة من اجل السلام العادل والتقدم الاجتماعي .

ونادرا ما يحدث في التاريخ ، ان تتجاوز جماهيرية وتأثير زعيم وطني حدود «الوجود القومي» بالقدر من الفعالية والايجابية التي تجاوزتها جماهيرية وتأثير جمال عبد الناصر على حركة التحرر الوطني العالمية وجزء منها حركة التحرر الافريقية المعاصرة . وانه ليصعب على اي دارس للشؤون الافريقية ان يميز بوضوح بين دور وتأثير مصر .. وبين دور وتأثير عبد الناصر ، على حركة التحرر الافريقية ، في الفترة ما بين قيام الثورة المصرية ١٩٥٢ وبين وفاة جمال عبد الناصر ، حيث ارتبط الاسمان ليصبحا وجهين « لعملة » واحدة : علاقة الحركة الوطنية التقدمية في مصر بالحركة الوطنية التحررية في افريقيا .

ووضع القضية على هذه الصورة ، يسعى الى تجنب انكار دور الفرد او «الزعيم» في التاريخ والمجتمع، بقدر ما يسعى الى تجنب مخاطر تطرف المبالغة في هذا الدور الى الحد الذي ينكر معه دور الظروف الموضوعية المحيطة فضلا عن منطق حركة التاريخ نفسه ودور الشعوب فيها . ودوافع محاولة تجنب ذلك كله ، تعود الى حقيقة ان هناك كثيرا من الملابسات المعقدة واعتبارات المناخ العاطفي .. التي يمكن ان تؤدي الى الوقوع في هذا المحذور .

وتتناول هذه السطور دور «الناصرية» في حركة التحرر الافريقي ، في اطار فهم يرى ان «الناصرية» ليست عقيدة تحدد معالم نظام اجتماعي ، وانما هي «اسلوب» في العمل السياسي — في السلطة وخارج اطار السلطة — حاول ان يدرك واقع ومعطيات العصر من زاوية رؤية حركة التحرر الوطني . و«عبد الناصر» هنا لم يكن وحدة وانما كان —مع غيره— نتاجا لظاهرة العالم الثالث ، وان كانت له من المبادرات والتأثير ما يصنعه —بحق— كأبرز نتاج ايجابي لهذه الظاهرة .

مفهوم افريقيا .. في البدايات الاولى :

ظل «الفكر التقليدي» في مصر يدور في اطار نظرية «المجال الحيوي» في رؤيته للعلاقة بين مصر ودورها وبين افريقيا . اما «الفكر الوطني» المصري ، فقد كانت افريقيا في نظره ، موقعا من مواقع صراع القوى الوطنية وبين الاستعمار ، وكانت معظم البرامج الوطنيه في ذلك الوقت ، تدعو الى الوقوف الى جانب القوى الوطنية في هذا الصراع . لكنها على اية حال ظلت تدور في اطار التأييد السياسي والادبي بين المهتمين بقضايا السياسة الخارجية دون أن يكون لها صدى جماهيري مؤثر . وقد ركز الفكر الوطني لفترة طويلة ، على مفهوم «وحدة وادي النيل» دون ان يمتد بنظرته الى ما هو ابعد» كنتيجة لالحاح وضغط « القضية الوطنية » ومشاغلها . لكن هذا الفكر الوطني لم يستجب على الاطلاق لفكرية «المجال الحيوي» بأي شكل .

ففي بداية عمل حركة الضباط الاحرار بقيادة جمال عبد الناصر ، اشارت منشوراتها الى افريقيا من زاوية ضرورة اسقاط الاستعمار وأعوانه في وادي النيل . وأكدت ان مصر لا تسعى الى اهداف عدوانية بل انها تطلب الحرية والاستقلال الكامل وترفض التحالف ومشروعات الدفاع مع الكتلة الاستعمارية وتتمسك بالحياد الصريح في السياسة الخارجية .

لكن كتاب «فلسفة الثورة» لجمال عبد الناصر، يشهد تطورا ملحوظا في هذا المجال. فقد حدد اسس صياغة جديدة لعلاقات نضالية في المعركة المعادية للاستعمار. ففي كتاب «فلسفة الثورة» ص ٦٣ — ٨١ وما بعدها، يقول عبد الناصر: «اننا لن نستطيع بحال من الاحوال — حتى لو اردنا — ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين».

ولا يحدد عبد الناصر علاقة مصر الثورة بافريقيا ومسئولياتها تجاهها، من اعتبارات عاطفية وانما بناء على فهم: **اولا**: ان مصر لا تستطيع ان تتجاهل ما يحدث على ارض القارة «لسبب هام وبديهي هو اننا في افريقيا». **ثانيا**: ان موقع مصر ومستوى تطورها، له طابعه المتميز والخاص. فمصر «تحرس الباب الشمالي للقارة» وهي التي تعتبر «صلتها بالعالم الخارجي كله». **ثالثا**: ان الارتباط بين القضية الوطنية المصرية والقضية المصرية السودانية يؤكد ضرورة متابعة ما يجري على ارض القارة التي تمتد حدود «السودان الحبيب الشقيق .. الى اعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها».

نستطيع ان نلمس بسهولة هنا استمرار مفهوم افريقيا في اطار «وادي النيل»، ولكنه هذه المرة يقوم على اسس كلية وشاملة. بل ويحدد دور مصر حين يقول «ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا» — (فلسفة الثورة).

لقد اصبحت ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر، وهي نتاج ظروف المد الثوري العالمي بعد الحرب الثانية ثم انتصار ثورة الصين وحصول عدد من بلدان آسيا على استقلالها السياسي — كظروف خارجية مواتية — ثم نتيجة لتطورات الصراع الداخلي في مصر الى الحد الذي لم يعد معه الشعب على استعداد لتقبل استمرار الحكم الاستعماري — كظرف داخلي موات —، نقول ان ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر .. اصبحت بانجازاتها التي حققتها بعد ذلك، تشكل عنصرا اساسيا وهاما من الظاهرة الخارجية الملائمة لتعاظم الحركة الوطنية في افريقيا، له فعاليته الخاصة وطابعه الخاص.

وذلك لا يعني بالطبع، الزعم بأن شعوب افريقيا وقواها الوطنية لم تعرف الثورة والنضال الوطني ضد الاستعمار، الا كرد فعل لثورة يوليو وانجازاتها. ذلك ان جذور الثورة والكفاح المعادي للاستعمار والتخلف كانت —ولا تزال— قائمة في المجتمع الافريقي.

القهر .. ليس ابديا

لقد شهدت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية تطورا ملحوظا في تصاعد الحركات الوطنية الساعية لاستقلال بلادها. لكن هذه السنوات، لم تشهد قبل ثورة يوليو، انتصارا لاي من الحركات الوطنية في افريقيا.

ان انتصار ثورة يوليو ٥٢ في بلد افريقي ضد نظام رجعي يستند الى الاستعمار، قد حطم بشكل عملي اسطورة ابدية القهر الاستعماري للقارة. هذه الاسطورة التي روجت لها اجهزة الدعاية والاعلام والتعليم الموالية للاستعمار. وكان لذلك آثاره الهائلة على تطورات حدة الصراع الوطني ومجراه في البلدان الافريقية. ففي كينيا —مثلا— شهدت منطقة شرق افريقيا انعطافة هامة في تاريخها الوطني بعد مرور شهور ثلاثة على قيام ثورة يوليو وانتصارها في مصر. فقد اضطرت بريطانيا امام تعاظم الحركة الوطنية الكينية، ان تعلن حالة الطوارىء في البلاد وأن تلقي القبض على آلاف من الوطنيين، وأن تشن في نفس الوقت سلسلة من الغارات على قرى الافريقيين. وباتت الصحافة البريطانية تتحدث عن الذعر الذي ساد بين جنود الاحتلال البريطاني في كينيا من ثوار حركة «الماو ماو». وفي تونس ومراكش سادت المظاهرات الوطنية في اواخر عام ١٩٥٢ وطوال عام ١٩٥٣، تطالب بالحرية وتهتف لثورة القاهرة. وتعاظمت الاضرابات الوطنية في مراكش في اغسطس ١٩٥٣ الى الحد الذي اضطرت معه سلطات الاحتلال الفرنسي الى مواجهة مد الحركة الوطنية بنفي الملك محمد الخامس الى مدغشقر. فاتسع نطاق المظاهرات الوطنية ضد وجود الاحتلال الفرنسي وخاصة في ١٩٥٤ حتى تكوّن جيش وطني في الريف المغربي في عام ١٩٥٥ ثم نالت المغرب استقلالها في ١٩٥٦.

وفي تونس سلمت السلطات الفرنسية بالاستقلال الذاتي للبلاد في ١٩٥٤ وتشكلت اول حكومة وطنية حققت استقلال البلاد التام في ١٩٥٦.

واندلعت الثورة الوطنية المسلحة في الجزائر في نوفمبر ١٩٥٤ تطالب بحرية واستقلال الجزائر.

وفي نيجيريا وغانا بغرب افريقيا، اتسع نطاق الاضرابات الوطنية العامة التي تعرضت لرّصاص سلطات الاحتلال البريطاني في عامي ١٩٥٣ — ١٩٥٤. وعظم نضال الحركة الوطنية في غانا حتى نالت استقلالها في ١٩٥٧ بعد انتصار ثورة يوليو في معركة السويس.

لقد دخلت حركة التحرر الوطني الافريقية منذ انتصار ثورة يوليو مرحلة جديدة من مراحل تطورها. وعت فيها — بالهام الثورة المصرية — ان تولي الوطنيين السلطة السياسية في بلادهم شرط اساسي لتحقيق استقلال البلاد. فانتقل الصراع بين الوطنيين الافريقيين وبين القوى الاستعمارية، من اطار مفهوم «المشاركة في

السلطة» الى اطار مفهوم تولي السلطة بشكل كامــــل ومنفـرد .

وقد تحقق ذلك بالفعل ، عام ١٩٥٨ ، في اطـــار الاستقلال الذاتي لمعظم دول «المجموعـــة الفرنسية» . وترأس الافريقيون الحكومات في هذه الدول بعد ان كان ذلك ممنوعا من قبل .

موقفان تاريخيان .. لعبد الناصر :

سجل عبد الناصر بعد انتصار ثورة يوليو ، موقفين تاريخيين في حياة حركة التحرر الوطنـــي الافريقية . فالموقف من قضية تقرير مصير شعب السودان ، كان له اثر فعال في مجال الاعتراف بحق شعوب افريقيا فــي تقرير مصيرها . فبرغم حساسية وتعقد الموقف حـــول قضية السودان عامي ٥٥ ــ ١٩٥٦ ، وسيادة المشاعـر العاطفية ذات البعد التاريخي لمفهوم «وحدة وادي النيل»، استطاع عبد الناصر كقائد للثورة ، ان يتخطى تعقيدات الوضع وانحاز بكل ثقل مصر وامكانياتها الى جانب شعب السودان في ان يمارس حقه في تقرير مصيره .

وفي مؤتمر باندونج ، الذي لعب عبد الناصر فــي الدعوة له وخلال انعقاده دورا قياديا فعالا ، خرجــت حركة التحرر الوطني الافريقية من مجالها القاري الخاص والمحدود الى مجال عالمي أرحب كان له اثره على تطـور النضال الوطني الافريقي نفسه . وبذلك ضرب مخطط الاستعمار الساعي الى محاصرة قضية افريقيا وعزلها عن الحركة العالمية المعادية للاستعمار . وكان لهذا كله اثره الذي لا ينكر على وضع علاقات القوى في القارة .

امكانيات في خدمة الثورة الافريقية :

ظلت اوربا لفترة طويلة من الزمان ، مركزا لعمل القيادات الافريقية الوطنية . وبعد انتصار ثورة يوليو ، ومنذ عام ١٩٥٥ بالتحديد ، اصبحت القاهرة مركـــزا هاما للوطنيين الافريقيين حيث اسست قيادة ثورة يوليو «الرابطة الافريقية» التي لعبت دورا هاما في مجال الكفاح السياسي لابناء القارة المضطهدين والمنفيين . ونظـــرا للاهتمام العالمي الذي بدأ يشغله كل ما يحدث فـــي القاهرة ، كان كل بيان يصدره اي مكتب لحركة وطنيـــة افريقية في الرابطة ، يجد طريقه بسهولة الى الرأي العام العالمي مباشرة . كما مدت هذه الرابطة الحركات الوطنية بكادر سياسي وطني درب خلال اقامته بالقاهرة وفي ظل مناخها السياسي المعادي للاستعمار . كذلك يســرت الرابطة للحركات الوطنية الافريقية امكانيات اقامـــة الاتصالات فيما بينها وبين مواقع النضال علـــى ارض بلادها مما ساهم في تنظيم وتنسيق اعمالها ونشاطها .

لقد اصبحت القاهرة ــ عاصمة ثورة يوليـــو المنتصرة ــ منبرا للحركات الوطنية الافريقية . ومـــن خلالها ، تعرف الرأي العام العالمي على مكتب الكاميرون الذي ترأسه المناضل الشهيد فيلكس مومـــي الرئيس السابق لحزب اتحاد شعب الكاميرون . كما تعرف على مكتب اوغندا الذي ترأسه المناضل الشهيد جون كال من حزب مؤتمر اوغندا الوطني ، ومكتب الصومال الـــذي ترأسه محمود حربي ، ومكتب جنوب افريقيا ومكاتـب اتحاد روديسيا ونياسالاند وكينيا وموزمبيق والنيجـر ونيجيريا وتشاد وزنزبار .

واذا كانت الرابطة الافريقية قد لعبت دورا هامـا في الحركة الوطنية الافريقية ، فلقد كانت اذاعة القاهرة بامكانياتها الضخمة ــ واحدة من اعظم اسلحة النضـال من اجل تحرير افريقيا وتمكين شعوبها من تولي حكـــم بلادها بنفسها . فقد خصصت القاهرة اذاعة وطنيـــة موجهة «لافريقيا الحرة» ، بلغ متوســـط ارسالها ٩٠ دقيقة باللغة الصومالية و٦٠ دقيقة باللغة السواحلي و٣٠ دقيقة باللغة الامهرية و٧٥ دقيقة بلغه الهوسا و٧٥ دقيقة بالانجليزية و٦٠ دقيقة بالفرنسية . وأهمية الدور والتأثير الذي قامت به وأحدثته هذه الاذاعات ، يكشف عنـــه حديث سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا في ذلكالوقت الى صحيفة الاوبزرفر البريطانية ، اذ يقول انه «لفـت انتباه الحكومة المصرية الى دور الاذاعة المصرية الموجهة الى شعوب شرق افريقيا» .

كما جعلت القاهرة من ارضها مركزا هاما وأساسيا للتضامن الافريقي والوحدة الافريقية ومسرحا هامـــا للقاءات التي تدرس قضية الثورة الافريقية بين زعمائها. فبعد انعقاد المؤتمر الاول للتضامن الاسيوي الافريقي في القاهرة في ديسمبر ١٩٥٧ ، عقد في القاهرة وحدهـا ــ من ديسمبر ١٩٦٠ وحتى يونيو ١٩٦١ ــ عدة مؤتمرات ساهمت بمستويات مختلفة في حركة تحرير القارة ، هي مؤتمرات : «اجلوا عن افريقيا» ــ «مؤتمر نساء افريقيـا وآسيا» ــ «المؤتمر الثالث لشعوب افريقيا» ــ «مؤتمر تضامن شعوب افريقيا وآسيا» . وتدور مجمل توصيات هذه المؤتمرات حول «خلق منظمة مشتركة لمساعـدة حركات التحرر في افريقيا» و«ضرورة القضاء علـــى الامبريالية في افريقيا بكل الوسائل الممكنة السلمية وغير السلمية ، والنظر الى حكومات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولنده واسرائيل وجنوب افريقيا والولايات المتحدة والمانيا الغربية ، باعتبارها المخطط الاساسي لسياســـة الاستعمار الجديد» .

وايمانا من القاهرة ، بأهمية ودور الكادر الفنـــي الوطني ، فتحت ابواب معاهدها وجامعاتها وكلياتهـــا العسكرية امام ابناء شعوب القارة .. ومن الجدير بالذكر انه في عام ١٩٦٠ كان هناك في فرنسا ٤٠٠٠ طالـــب افريقي وكان في القاهرة نفس الرقم ٤٠٠٠ طالبافريقي.

وكان لهذا اثره الهام في القضاء الى حد كبير على ما كان يسمى بالولاء الفكري للغرب .

معركة السويس .. والكفاح المسلح :

بفعل النفوذ السياسي والفكري للاستعمار ، ساد المناخ السياسي العام لافريقيا لفترة طويلة ، اعتقاد بصعوبة – ان لم يكن استحالة – ان تتخذ حكومة افريقية (في اطار الحكم الذاتي او الاستقلال السياسي)، موقفا ما يخرج على ارادة السلطات الاستعمارية . لكن اقدام ثورة يوليو على عقد صفقة الاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ،حطم هيبة وهيمنة الغرب في افريقيا باعتبار طابع التحدي الحاد لهذه الخطوة الثورية ضد محاولات الغرب الاستعماري في ان يفرض ارادته على مسار الثورة وتطورها .

واذا كان الفشل السياسي للاستعمار في معركة السويس ، تعبيرا عن افول النظام الاستعماري نفسه ، فقد كانت نتائج معركة السويس بالنسبة لشعوب افريقيا، تحمل دلالات هامة اخرى :

اولا : ان شعبا صغيرا كالشعب المصري ، يستطيع ان يصمد امام الضغط الاستعماري الى حد المواجهة المسلحة ، **ثانيا :** اثرت عملية مواجهة مصر لمؤامرات الاستعمار بعد العدوان الثلاثي (كالحصار الاقتصادي والحرب النفسية) ، خبرات قادة الحركات الوطنية في افريقيا في مواجهتهم لاساليب الاستعمار ضد الثورات الوطنية في بلادهم . **ثالثا** :ان الاستعمار العالمي غير مستعد للتسليم بسهولة بحق شعب ما في التحرر ، وان ممارسته لهذا الحق سيلقى مقاومة ضارية ، ومن ثم فان طريق الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد امام شعب القارة لتحقيق حريتها واستقلالها . وفي هذا المجال يقول عبد الناصر « ان الاستقلال لا يمكن الحصول عليه من الاستعماريين كمنحة وانما ان ينتزع منهم انتزاعا » .

لقد احدثت معركة السويس تغيرا ملحوظا في فكرية بعض قادة دول افريقيا الذين كانوا يؤمنون من قبل بامكانية حل القضية الوطنية في اطار المفاوضات . ومن هؤلاء مثلا جوليوس نيريري الذي وقف بعد ذلك ليقول انه يتهم « كل من لا يحمل السلاح ضد الاستعمار لتحرير بلاده، بالجبن » .

وفي اعقاب فشل العدوان الثلاثي ، شهدت حركة التحرر الافريقية دفعة عظيمة في تطورها . ففي مدغشقر – مثلا – اشتدت حملات هجوم الوطنيين ضد قوات الاحتلال الفرنسية حتى اضطرت سلطات الاحتلال في ديسمبر من عام ١٩٥٦ الى الغاء الاحكام العرفية التي فرضتها على البلاد منذ عام ١٩٤٧ . وفي نيجيريا دارت عدة معارك عنيفة من عام ١٩٥٨ بين القوى الوطنية وبين سلطات الاستعمار البريطاني . وفي كينيا ، تعاظمت الحركة الوطنية فيها ضد الاستعمار البريطاني الذي استدعى قوات اضافية وواجه الحركة الوطنية فيها بقوة السلاح الى الحد الذي قتل معه ما يزيد على ١١٥٠ وطنيا كينيا، ورغم مصاعب الكفاح الوطني، فلقد تشكل جيش منظم للتحرير من ثلاث تشكيلات في ابردير وجبال كينيا وفي نيروبي العاصمة . وفي الجزائر ، اصبحت قضية تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي قضية الشعب كله بقواه الوطنية المتعددة . وبشكل عام يذكر براجيتسكي في كتابه « تحرر افريقيا » انه في صيف عام ١٩٥٨ بدأ الافريقيون يترأسون حكومات بلادهم بعد ان كان ذلك ممنوعا من قبل

لقد كان صمود الشعب المصري امام اهداف العدوان الثلاثي ، حائلا دون الانتكاس بالحركات الوطنية الافريقية . وعلى العكس ، فبينما لم يكن في عام ١٩٥٥ سوى ٥ دول افريقية مستقلة تمثل ٢٥ بالمئة من سكان القارة، تحقق استقلال ٢٢ دولة افريقية اخرى منذ فشل اهداف العدوان على مصر في ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٠ . فاصبح ٧٥ بالمئة من سكان القارة يعيشون في ٢٧ دولة مستقلة .

لقد كان من الممكن – في الحديث عن دور واثر ثورة يوليو على حركة التحرر الافريقية – ان نكتفي بموقفها من قضية تحرير الجزائر . حيث ساهمت مصر الثورة بكل طاقاتها وامكانياتها المادية والسياسية حتى انتصر الشعب الجزائري في عام ١٩٦٢ واصبحت الجزائر يومها مثالا لكفاح شعوب القارة من اجل استقلالها وحريتها وساهمت هي بدورها في تدعيم مراكز الثورة الافريقية واقامة معسكرات تدريب للوطنيين الافريقيين .

منظمة الوحدة الافريقية :

خطط الاستعماريون منذ البداية ، لتجزئة حركة التحرر الافريقي . فروجوا لفكرية انقسامية تحاول تأكيد وتعميق الخلافات والحزازات بين ما اسموه « بافريقيا البيضاء من الشمال » و« افريقيا السوداء في جنوب الصحراء » . واحيانا اخرى بما اسموه « بافريقيا الشرقية» و« افريقيا الغربية » . او « افريقيا الناطقة بالعربية » و « افريقيا الناطقة بالانجليزية » و« افريقيا الناطقة بالفرنسية » .

واذا كان مؤتمر باندونج ومؤتمرات التضامن الاسيوي الافريقي ، مجالا خصبا نمت من خلاله جذور اتجاه الوحدة النضالية بين دول افريقيا ، فلقد نمي هذا الاتجاه في ظل مناخ معاد للاستعمار . ومن ثم كانت قضية الوحدة الافريقية مرادفة لقضية نضال حركة التحرر الافريقية ككل ضد الامبريالية العالمية من اجل تصفية الاستعمار من القارة .

لقد لعبت القاهرة دورا اساسيا في تجمع « الدار البيضاء » الذي تكون عام ١٩٦١ من الجمهورية العربية المتحدة وغانا وغينيا ومالي والمغرب والجزائر (حكومة

الجزائر في المنفى) . وبذلك كانت الصحراء الكبرى — بتعبير عبدالناصر — « جسرا ولم تكن فاصلا ». وبذلك تحطمت اسطورة « افريقيا البيضاء » وافريقيا السوداء » .. الخ .

كذلك كانت القاهرة واحدة من الدول الافريقية الاساسية التي كتلت جهودها من اجل تخطى وضع التجزئة الذي ترتب على خلق اكثر من كيان لتجمع الدول الافريقية حيث وجدت منظمة «الافرو مالاجاش » الى جانب تجمع « الدار البيضاء .

وفي المؤتمر التأسيسي لمنظمة الوحدة الافريقية الذي انعقد في اديس ابابا في مايو ١٩٦٣ ، حدد عبد الناصر وجهة نظر بلاده من اهمية وضرورة « خلق عقل واعصاب للارادة الافريقية الحرة .. عقل يملك الحكمة والشجاعة معا . يقاتل كبناء ويبني كمقاتل » . واكد عبد الناصر انه انطلاقا من ايمان القاهرة بان القارة الافريقية « تواجه اقسى مراحل نضالها » في ظروف يحاول فيها الاستعمار ان يصطنع ادوات جديدة ومبتكرة للتسلل من جديد الى القارة ، تتقدم القاهرة « بغير تحفظات .. بغير مطالب» لتمد يدها مع كل الدول الافريقية لاقامة منظمة الوحدة . واوضح عبدالناصر ان قيام المنظمة لا يعني « لدقيقة واحدة ان تتحول افريقيا الى كتلة دولية او ان ينعزل العمل الافريقي عن حركة التقدم الانسانية كلها » .

ومنذ تأسيس منظمة الوحدة ، عمل الاستعمار على تفتيتها وحاول باكثر من طريقة ان يهاجمها باثارة المشاكل والعقبات في طريقها لهدمها وتفجير الخلافات بين الدول الاعضاء فيها ، لكن جهود القاهرة — مع غيرها — التوحيدية مكن المنظمة من ان تواصل الحياة وان تجتاز الازمات وهجمات الاستعمار العالمي باساليبه المتباينة .

العداء للاستعمار الجديد :

امام اتساع نطاق حركة التحرر الوطني ، لجأ الاستعمار الى اساليب جديدة متعددة يواصل بها سياسة النهب الاقتصادي للقارة . وسوف يذكر التاريخ ان عبد الناصر ونكروما ، كانا اول الزعماء الافريقيين الوطنيين الذين استوعبوا محاولات الاستعمار العالمي للالتفاف من حول الثورات الوطنية لضربها اخر الامر . والواقع ان هذين الزعيمين ساهما بقدر كبير في صياغة مفهوم الاستعمار الجديد وشن حملات الهجوم السياسي عليه .

ان فهم عبدالناصر لخطر الاستعمار واستمرار وجوده في مناطق مجاورة لبلاده ، لم يتوقف عند حدود الوقوف ضد القواعد العسكرية للاستعمار في البلاد الخاضعة لنفوذه. ففضلا عن جهوده ونضاله من اجل تصفية هذه القواعد ومحاربة الاحلاف العسكرية التي حاول الاستعمار فرضها على الدول المستقلة ، وقف عبدالناصر ضد مختلف محاولات الاستعمار الجديد لان يرث مناطق نفوذ الاستعمار القديم من جهة ولان يقيم مناطق جديدة للنفوذ من جهة اخرى. ودور عبدالناصر الحقيقي في هذا المجال ، انه استطاع ان يخلق مناخا سياسيا جماهيريا على مستوى القارة معاديا للاستعمار القديم والجديد .

واذا حاولنا ان نذكر مثلا ، فاننا نشير الى المؤامرة ضد استقلال الكونغو . واذا كانت الجمهورية العربية المتحدة قد ابدت تفاؤلها من ان تتمكن القوات الدولية التابعة للامم المتحدة من حماية استقلال الكونغو وحكومته الوطنية برئاسة لومومبا ، فانها وعت درس التجربة وتمثلته . وفي هذا الصدد يقول عبدالناصر « ان هناك محاولات اصطناع ادوات للاستعمار جديدة ومبتكرة تتسلل حتى وراء اعلام الامم المتحدة التي جرت من تحتها في الكونغو خلال ازمته العنيفة .. تلك المأساة التي راح ضحيتها الثائر الافريقي باتريس لومومبا» . وفي اللحظة التي اكتشفت فيها القاهرة ، خدعة ارسال قوات دولية الى الكونغو كستار لتقويض استقلاله ، سحبت قواتها العسكرية التي كانت ضمن القوات الدولية .. والتي شهدت وكالات الانباء لها بمواقفها الى جانب حكومة لومومبا الشرعية . وقد عبأت القاهرة من امكانياتها وطاقاتها السياسية لحملة استنكار مقتل لومومبا والتنديد بالاستعمار الاميركي والاستعمار البلجيكي من مظاهرات قادها بعض المسئولين الرسميين . واذا كانت قوى التحرر والتقدم في العالم — والقاهرة موقع هام من مواقعها — لم تتمكن من حماية حكومة لومومبا الشرعية ، فلقد انحازت القاهرة بشكل علني وحاسم الى قوى الثورة الوطنية الكونغولية ضد عملاء الاستعمار الجديد ابتداء من ادولا حتى تشومبي وموبوتو . لقد قدمت القاهرة للوطنيين الكونغوليين الامكانيات المادية والعسكرية وساندتهم سياسيا وادبيا وجعلت من ارضها مسرحا لنشاطهم السياسي ومؤتمراتهم الوطنية بل وحاولت بقدر ما تستطيع ان تعمل على التقريب بين وجهات نظرهم عندما نشبت الخلافات الشخصية بينهم . ويوم قام الاستعمار الاميركي والاستعمار البلجيكي — بمعاونة الاستعمار البريطاني — بغزو الكونجو في اواخر عام ١٩٦٤ ، شنت الجمهورية العربية المتحدة حملة هجوم سياسي ضد الغزو تدينه وتستنكره في كل المحافل الدولية . ولسوف يظل تاريخ الحركة الوطنية في افريقيا يذكر لمصر موقفها من العميل مويس تشومبي الذي حاول حضور مؤتمر القمة الافريقي في عام ١٩٦٤ في القاهرة ، حين اعتقلته — سياسيا — وخطت بذلك تقاليد ثورية جديدة في عالم الدبلوماسية الوطنية .

لقد شهدت ارض القارة بعض الصراعات الخاصة بمشاكل الحدود بين بعض الدول الافريقية ، او احتدام الحزازات والخلافات القبلية الى حد الحرب الاهلية .

وهي جميعها ثمرة من ثمار الحكم الاستعماري وتقسيمه لبعض ارض القارة على اساس يذكي من الصراع القبلي وينميه لتبقى هذه المشاكل في نهاية الامر عنصرا من عناصر الهجوم المضاد على حركة التحرر الافريقي بتفتيت قواها وتفرقة جهودها وجرها الى معارك فرعية فيما بينها تحد من طاقاتها وامكانياتها التي يمكن ان تتكتل لمواجهة الاستعمار ومؤامراته ولبناء حياتها الجديدة . ولقد سعت حكومة الجمهورية العربية المتحدة للتوسط باستمرار لاعادة التفاهم الى مناطق الصدام . لكنها لم تتردد في موقفين بارزين في ان تنحاز بوضوح الى جانب القوى الاكثر تقدما حين وصل الصدام الى حد العمل المسلح. فعندما اثيرت مشكلة الحدود بين المغرب والجزائر ، انحازت مصر الى جانب ثورة شعب الجزائر كلية بل وارسلت جزءا من اسطولها البحري وبعض قواتها العسكرية لحماية الثورة الجزائرية . وعندما انفجرت الحرب الاهلية في نيجيريا بعد انفصال الاقليم الشرقي ثم تدخل المرتزقة ، ساندت مصر حكومة نيجيريا الاتحادية سياسيا وعسكريا برغم مشاغلها في ازمة الشرق الاوسط واعبائها .

ومن اشكال الثورة المضادة في افريقيا ، ظاهرة النظم العنصرية التي يتسع رقعتها في جنوب القارة وهذه النظم المتواطئة مع الاستعمار الجديد . وحينما اعلنت حكومة سميث الاستقلال في روديسيا من جانب الاقلية العنصرية ودون مشاركة الافريقيين ، اعلن عبدالناصر في اجتماعه بشباب معسكر حلوان (١٩٦٦) استنكار وادانة الجمهورية العربية المتحدة لهذا الاستقلال غير الشرعي كما اعلن ان القاهرة تعتبر نفسها في حالة حرب مع حكومة روديسيا العنصرية وقرر منع اية سفينة تحمل اية شحنات الى روديسيا ، من المرور في قناة السويس ، وبادرت القاهرة بمطالبة الدول الافريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا لتواطئها مع حكومة البيض .

يبقى ان نشير الى الدور الهام الذي لعبه عبدالناصر من اجل كشف طبيعة الدور الذي تقوم به اسرائيل في افريقيا كأداة من ادوات الاستعمار . ولقد حرص عبدالناصر بدأب على ان يكشف دور اسرائيل حتى نجح في عام ١٩٦٦ من ان يغير كثير من زعماء القارة من مواقفهم السابقة تجاه اسرائيل وموافقتهم السابقة على تقبل ما تسميه بالمساعدات والمعونات الاقتصادية التي هي في حقيقة الامر واجهة من واجهات الاستعمار الجديد في محاولته التسلل الى افريقيا .

* * *

تلك هي « البصمات » الهامة التي يمكن ان يقف امامها اي معلق ليميز بين دور وتأثير مصر .. وبين دور وتأثير عبدالناصر ـ ان كانت عملية التمييز واردة ـ على حركة التحرر الوطن الافريقية .

ولكننا ـ في مجالات اخرى ـ نستطيع ان نلمس بوضوح دور وتأثير عبدالناصر وفق الاطار الذي حددناه في بداية هذه السطور باعتبار « الناصرية » اسلوبا في العمل السياسي .

العلاقة الخاصة .. بالدول الاشتراكية

امام واقع انقسام العالم الى معسكرين : رأسمالي واشتراكي ، حدد عبدالناصر سياسته الخارجية وفق صياغة اخذ بها كثير من قادة الدول الافريقية المتحررة. فشعار « الحياد الايجابي » كان يعني في مفهوم عبدالناصر عدم الانحياز الى اي كتل من الكتل المتصارعة بشكل عضوي . ولكنه موقف لا يسوى في نفس الوقت بين « الصديق » وبين « العدو » ، وانما ينحاز الى جانب المواقف الدولية التي تتفق ومصالح الشعوب المستقلة في الدول الوطنية الجديدة .

ان الخطر الجسيم الذي كان يمثله عبدالناصر في نظر الاستعمار العالمي ، كان يكمن في حقيقة انه « الزعيم الوطني » الذي استطاع ان يخلق هذا « الجسر الخاص » بين عالم التحرر الوطني والمعسكر الاشتراكي . لقد ادرك عبدالناصر بوعي « قوانين » حركة العلاقة بين حركة التحرر الوطني وحركة الاشتراكية العالمية باعتبارها سندا وحيدا للنضال الوطني وتقدمه . وهو في هذا المجال لا يقف عند حدود « العمل السياسي » وانما يربطه بالعلاقات الاقتصادية في سبيل بناء الاقتصاد الوطني المستقل دعامة الاستقلال السياسي واساسه . ويبرز هنا بشكل خاص اقدام عبدالناصر على توقيع انفاقية بناء السد العالي مع الاتحاد السوفياتي . فبالاضافة الى ما كان يعنيه ذلك على المستوى الوطني والقومي من مصر ، كان يقدم نموذجا عمليا لشعوب افريقيا وقادتها على طبيعة العلاقة التي يمكن ان تقوم مع المعسكر الاشتراكي وعلى النتائج الايجابية التي يمكن ان تتحقق معها .

واذا كنا قد لمسنا الاثار التي ادت اليها ظاهرة « الانفتاح السياسي » لحركة التحرر الوطني على حركة الاشتراكية العالمية ، في المجالات السياسية والاقتصادية ـ سواء في مصر او في غيرها من دول افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية ـ فاننا نعتقد ان « البعد الجديد والخاص » الذي اتخذته علاقات الصداقة العربية السوفياتية بعد عدوان يونيو ٦٧ بشكل خاص ، في مجال العمل العسكري ، سوف تفتح آفاقا جديدة لها طابعها الخاص واثارها الهامة على مسار حركة التحرر الوطني من جهة وعلى طبيعة الصراع فيما بينها وبين الاستعمار العالمي من جهة اخرى .

وفي هذا المجال ، حرص عبدالناصر على ان يؤكد اهمية عدم « التورط » في تفاصيل الخلاف العقائدي داخل المعسكر الاشتراكي ، حرصا على تضييق شقة هذا الخلاف باعتباره ثغرة كبيرة داخل صفوف حركة الثورة العالمية المعادية للاستعمار ، شجعت الاستعمار العالمي على المبادرة بشن اكثر من حملة للهجوم ضد دول التحرر الوطني .

اساليب في العمل السياسي :

واذا انتقلنا الى مجال العمل السياسي الداخلي فاننا يمكن ان نرى كثيرا من مناهج العمل في بعض الدول الافريقية ، نستطيع ان نشاهد بوضوح « بصمات » – ان صح التعبير – لبعض اساليب العمل السياسي لعبدالناصر .

فالاتجاه الى احداث « تغيير سلمي » في جهاز الدولة بالاعتماد اساسا على تغيير قياداته ، ظاهرة نلمسها بوضوح في الدول الافريقية بعد ان حصلت على استقلالها السياسي. وينبغي ان نضيف الى هذا ان هذا الاسلوب لم يكن «اختيارا» فحسب، وانما كان ايضا نتاجا لواقع محدد تجري على ارضه حركة الصراع الطبقي وفق طابع خاص ومتميز .

كذلك فان الاتجاه الى « تجميع » القوى الوطنية بقدر الامكان في اطار صياغة « الحزب الواحد » باعتباره تجمعا جماهيريا لمختلف القوى الاجتماعية المناهضة للاستعمار والاقطاع ، ظاهرة كان لعبدالناصر فيها دور المبادرة الاولى . صحيح ان صياغة « الحزب الواحد » الحاكم ، كانت قائمة في المجتمعات الاشتراكية ، وفي عدد قليل من الدول ذات الحكم الدكتاتوري كاسبانيا ، ولكنها في الحالتين تقوم وفق مقتضيات ومعطيات محددة ، غير انها في الدول الوطنية قامت على اسس مختلفة ووفق معطيات اخرى مختلفة ، لكن عبدالناصر ربط – في الستينات – بين ضرورة وجود هذا التجمع الجماهيري وبين ضرورة وجود « الحزب » الطليعي داخله . وتلك قضية اخذ بها وادركها بعض قادة افريقيا ، ولكن بعضها الاخر اكتفى بالصياغات الاولى لهذه الظاهرة عند حدود « التجمع الجماهيري » دون التسليم بضرورة « الحزب الطليعي » – كما حدث في مالي مثلا .

ويبقى دور عبدالناصر في الربط بين « الثورة الوطنية» و« الثورة الاجتماعية » بانتقال القيادة الوطنية من ذلك الموقع الى مواقع اشتراكية ، واحدا من ابرز واهم تأثيرات عبدالناصر على حركة التحرر الافريقي . ربما بدأت هذه القضية وفق صياغة « الطراز القومي للاشتراكية » بمفهوم الاشتراكية العربية الذي كان له آثاره في بروز صياغات مماثلة « كالاشتراكية الافريقية » – مثلا – في السنغال وكينيا وتنزانيا .. الخ ، لكن نضج العمل الثوري وتطور خبرته فرض صياغة متقدمة تؤكد ان الاشتراكية واحدة ولكنها عند التطبيق يمكن ان تختلف وفق الظروف والواقع الخاص لكل بلد على حدة برغم انها – جميعا – تقوم على نفس الاسس التي اهمها : الغاء استغلال الانسان للانسان . هنا تحددت صياغة «التطبيق العربي للاشتراكية » او الاشتراكية العلمية وفق مقتضيات الواقع الخاص في مصر ، مثلما تحددت غيرها المماثلة في غينيا وفي غانا ومالي (قبل الانقلابين ضد نكروما وموديبو كيتا) .



وبقدر ما كان عطاء عبد الناصر لحركة التحرر الوطني العربية والافريقية .. كبيرا ، بقدر ما كانت وفاته فادحة . « فالافاق الجديدة » التي تفتحت عليها حركة التحرر الافريقية ، تدين لدوره بالكثير مثلما تدين لدور غيره من القادة الافريقيين المناضلين . لكن دوره الهام يكمن في حقيقة انه كان رائدا .

القاهرة — **حسين شعلان**

اخر ما اصدرته دور النشر اللبنانية والعربية

بالاضافة الى العرض الدائم لاحدث مجلات

الازياء والموضة الاوروبية

تجدونه

في مكتبة انطوان

فرع : شارع الامير بشير

بيروت

عبدالناصر والوحدة العربيــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٥ ـ

العرب وكما يدعو اليها البعض الاخر ليست صورة جديدة للمشاركة القيادية وبقدر ما هي تغليف لاستئثار فريق دون فريق بالقيادة او بقدر ما هي نفي لايــة قيادة . ان القيادة الجماعيــة بمعنى اعتماد الحركات التاريخية على قيـــادة متكاملــة لا على القائد الفرد الكامل فحسب هي امر واجب ولكن القيادة الجماعيةبمعنى حرمــان القائد الفرد العبقري من امكــان تحقيق عبقريته في خدمة مجتمعه هي جناية على المجتمع وعلى التاريخ . ويقتضي تفادي هذه الجناية التمييز بين القائد الدستوري والقائد التعسفي . انالقائد العبقري الدستوري الذي تتفتح عبقريته في نطاق القانون الشرعي هو هبة تاريخية للامة . ويكون من ســوء طالع الامة ان لا تكتشف ما فرطته في حق مثل هــذا القائد الا بعــد ان تفقده او ان تقتله او ان تقلبه !..

وكان عبدالناصر يلمح موقف الذيــــن يعتبرون شخصيته استهلاكا بدل ان يعتبروها رأسمــالا للمشروع الوحدوي . ولذلك دعا في مباحثات الوحدة الثلاثية الى تحقيق المشروع الوحدوي بدون عبدالناصر ، وقال :« قضية الوحدة والقضية العربية.. هي اكبر من كل واحد.. وأنا قلت اني انا مستعد لوحدة بدون عبدالناصر !.. مستعد.. ان الوحدة بلا عبدالناصر .. وان يؤيدها عبدالناصر مــن مصر ومن القاهرة.. بكلدمه وبكل روحه.. كل فرد زائل والحدث هو .. مستمر .. ولكن يجب ان يقوم علىاساس سليم .. ويجب ان يقوم على عوامل الاطمئنان ..» (١٢)

ان رواد المشروع الاتحادي الجديد اعلنــوه بدون عبد الناصر ، ولكنهم كما ذكروا في اعلانهم في الثامن من تشرين الثاني ١٩٧٠ اعلنوه بروح عبد الناصر . وهــذا اجمل تعبير عن وفائهم له . فهل يستطيعون تطبيقــه بقواعد عبد الناصر العقلانية الثورية ؟ وهل تعلموا منه الى الحد الذي يسمح لهم بالتحول من قادة اربعة او من اربع قيادات الى قيادة جديدة واحدة، اي من قيادات عسكرية مصرية وليبية وسودانية وسورية الى قيادة عربيــــة عقلانيــة ؟

اننا لا نكون مبالغين مهما شددنا على محورية دور القيادة الواحدة ، والقيادة الصادقة في وحدويتها فــي بناء الوحدات والاتحادات اي في تكون الدولة الواحدة او الدولة الاتحادية . فالتجارب الاتحادية الحديثة الشرقية والغربية تزكي هذه الحقيقة . فلولا لينين والقيـــادة الشيوعية لما كان هنالك اتحاد سوفياتي . ولولا غاندي وقادة الكونفرس لما كان هنالك اتحاد هندي . ولولا قيادة حزب الثورة المكسيكية بعد الحرب العالمية الاولى لما كان الاتحاد الفدرالي المكسيكي اقرب اتحادات اميركا اللاتينية الى الاستمرار والنجاح . ان كل العوامل المساعدة علــى تكوين الاتحاد وديمومته تفعل فعلها عبر القيادة الاتحادية. وحظ الاتحاد في القيام والاستمرار هو حظه في ظهور مثل هذه القيادة الملائمة في الظروف الملائمة . ان العوامل المساعدة على تحقيق الاتحاد الاميركي لم تكن لتفعــل فعلها» ... لولا قيادة جورج واشنطن وهاملتن وجــي وماديسن وفرنكان وجيمس ولسن . ولم تصبح ارادة الاتحاد فعالة الا بفضل قيادة جون ماكدونالد والكسندر جالت وجورج كارتييه في كندا ، وقيادة باركس وبارتن وديكن في اوستراليا ، وقيادة بسمارك في المانيا ، وقيادة فيكتور امانويل وجاريبالدي وكافور وريكاسولي فــي ايطاليا ... ان العامل القيادي وما ينضويه من القدرة على التفاوض والتفاهم يصنع الفرق بين سكونية ارادة الاتحاد وحركيتها ... » (١٣) .

ان العوامل التي تحرك ارادة الاتحاد هي العوامل التي تحرك ارادة التكامل المجتمعي التي انطلقنا منهــا كمتغيرات لبحثنا. ويبدو مفعولمتغير التجاور الجغرافي ناصعا بين مصر والسودان وليبيا . كما يبدو متغيــر «المصالح الوظيفية» اذا اخذنا بعين الاعتبار التكامل بين الرساميل الانسانية والطبيعية والمالية فيالاقطار الثلاثة. ويظهر مفعول متغير «الوضع الاستقلالي» ومتغير «النظر الىالتجارب الوحدوية السابقة»كحوافز للاتحاد لا كموانع منه . وهذا الحافز هو حافز الجمهورية العربية السورية للاسراع للانضمام للمشروع باعتبارها ــ كما قال احد قادتها القطر العربي المصاب بمرض الوحدة العربية والمصر على المبادرة الى المشاريع الوحدوية او المشاركة فيها الى ان تتحول الوحدة من مرض الى عافية جديدة .

ولئن كان هنالك اختلاف بين ظروف الاقطـــار الاربعة ، الا ان الجامع بين القيادات ليس الشعـــور الوحدوي فحسب ، بل رؤياها الناصرية المشتركـــة للمشروع الوحدوي . وهذا ما يدخل متغير «التجانس» المبدئي في المشروع الحالي اكثر مما دخل في اي مشروع سابق ، ويجعل التحدي الاكبر للقيادات الاربع امكــان تحقيق الخطة الوحدوية الناصرية بدون عبد الناصر . «ان الطريق التي تسير فيها عملية التوحيد بين عدد من الاقطار العربية التقدمية المتحررة قد وضع اساسهـــا القائد والمعلم عبد الناصر مراعيا في ذلك تجربة الوحدة السابقة بين مصر وسوريا ، ومراعيا ايضا وقبل كــل شيء الظرف الخطير والصعب الذي تمر فيــه امتنا ، فصيغة الاتحاد الجديد بدأت من صيغة تحالـــف بين القيادات الثورية لاقطار عربية ثلاثــة . ودخلت الان سوريا . والهدف الاول منه هو ان تكون هنالك وحدة في القيادة السياسية للمعركة توحد الستراتيجيـــة السياسية الدولية والعربية لاقطار الاتحاد ، وتوحــد كذلك استراتيجيتها العسكرية وقواها الضاربة وان انجاز هذه الخطوة شيء هام وكبير . الا انها تبقى في حدود توحيد الطاقات وتوحيد الجهد في المعركة . والاتحـاد

الحقيقي يتطلب اكثر من ذلك . واعتقد بان نظم الاقطار العربية الاربعة الداخلة في الاتحاد ، والتي تحمل كلهـا شعارات الحرية والاشتراكية والوحدة مؤهلة لخطوات وحدوية اقوى وامتن ، فنحن لا نعتقد ان ثمة اتحادا او وحدة حقيقية تقوم وتستمر بدون بناء القاعدة الاقتصادية الثابتة لها وبدون ان تكون هناك خطوات على طريق وحدة النظم ووحدة التنظيم السياسي» (١٤) .

ان التحدي التنظيمي للمشروع الاتحادي الجديـد هو وجه من وجوه التحدي القيادي . فالقيادة الاتحادية اما ان تكون قيادة تنظيمية او ان لا تكون . والتنظيـم الاتحادي الفدرالي هو اعقد انواع التنظيم . انه تنظيـم لدولة جديدة تقام فوق الدول القديمة ، او بناء لنظـام جديد يستوعب بشمول ومرونة ، بمركزية ولامركزية ، بوحدوية وتعددية، سائر التنظيمات الاتحادية والاقليمية. واذا كان النظام الجديد يستوعب التنظيمات الاقليمية ولا يلغيها ، فلأن هناك ضرورات قطرية تقضـي ببقائها . ولذلك يبدو تنظيم الاتحاد الفدرالي كعملية توفيق بين الضرورات الاقليمية الخاصة والارادة والاهداف الوحدوية العامة (١٥) .

ان التنظيم الاتحادي الفدرالي هو اعقد انـواع التنظيم التكاملي المجتمعي ، لانه تنظيم جديد كل الجدة وحديث كل الحداثة في تاريخ التنظيم السياسـي الانساني ولد في الفـرب تجاوزا لتنظيم الدولـة الامبراطورية ـ والدولة القومية ، بالافادة من مزايـا التنظيمين وتفادي مساوئهما . وهو أعقد وأعسر منـالا بالنسبة الينا ، لانه يعني اقتباسنا او نقلنا لتجربة حكـم غربية . وهذا ما يضعه في السياق العام لتحديثنـا السياسي . ويقتضي التحديث القويم بان يكون الاقتباس اقتباسا ابداعيا ، وبان نتمكن من رؤية التنظيم الفدرالي كعمليةذاتية خلاقةلتجاوز تنظيمينا الوحدويينالتاريخيين: التنظيم الامبراطوري الما قبل ـ ميلادي والتنظيم الخلافي او السلطاني المابعد ـ ميلادي .

ان تاريخنا الوحدوي تاريخ حركي ، تستمر فيـه النزعة للوحدة وتتغير اشكالها . انها النزعة لتوحيد دار الانسان عبر رؤانا لوحدة الكون فوحدة خالق الكون . وهي الشوق لحرية كل انسان عبر تأكيدنا لحريـة الواحد . وكما اثرنا في مطلع التاريخ بنظامنا الملكـي الامبراطوري ، وبرؤيانا الوحدانية في رؤى الاخريـن وتنظيماتهم فقد تأثرنا في الطور الخلافي وما قبل الخلافي برؤاهم وتنظيماتهم . ولا ضير علينا من التأثر بها اليوم ولكن التأثر الصحيح بنظم الغير يقتضي فقهنا لها علـى حقيقتها ، ويقتضي فقه تجاربنا الوحدوية التنظيمية على حقيقتها ، لا للنقل ما عند الغير ، ولا لنعيد ما كان لدينا، بل لننقل منها بمعرفة ووعي وبصيرة للشكل او لطـور تنظيمي افضل .

ان التنظيم الاتحادي العربي لا يكون تنظيما ناصريا الا اذا كان ثوريا وكان ديموقراطيا وكان اشتراكيا . ان الديموقراطية والاشتراكية متلازمتان لدى عبـد الناصر والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنتين . انهما جناحا الحرية الحقيقية وبدونهما او بدون اي منهما لا تستطيع الحرية ان تحلق الى آفـاق الغد المرتقب» (١٦) . وبوحي «الميثاق» وهدى التلازم الثوري بين الديموقراطية والاشتراكية ، اقام عبد الناصر النظام المصري ، وعدله بضوء محنة الخامس من حزيران. ان الامتحان الاكبر لهذا النظام هو امتحان المعركة مـع اسرائيل . مات هذا النظام بعد كارثة الخامس مـن حزيران ، ولكن قيادة عبد الناصر الرسولية الكارسماتية اعطته حياة جديدة . وحياته الان متوقفة على مصيـر المعركة مع اسرائيل ، وعلى جميع العوامل الداخليـة والخارجية التي ترتبط بها المعركة . ومصيره هو مصير المشروع الوحدوي الناصري في شكله الرباعي . اجتاز النظام امتحانه الاول بعد عبد الناصر بالانتقـال الهادىء والسريع الذي جرى من عبد الناصر الى انور السادات. ولكن الامتحان الاكبر هو في الانتقال من حالة الاحتلال للاراضي العربية الى حال التحرر . والنجاح في الامتحان الاول يمكن ان يكون استهلال النجاح في الامتحان الاكبر. وتجلى هذا النجاح الاول في ان الرؤساء تغيروا ولـم يتغير الميثاق . ولكن هذا التغير الشكلي الناجح لا يغني عن التغيرات الجوهرية الاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي ما تزال مطمح الثورة لا متحققها . ولكن تحقيق هذه التغيرات مرتبط في التصور الناصري بالثورة العربيـة الشاملة لا بالثورة المصرية لوحدهـا . ولذلك جـاء استمرار الالتزام العربي استمرارا للالتـزام الثوري . وجاء اختيار السادات اختيارا للاستمرار في هـذا الالتزام ، لان السادات هو احد صانعي سياسة الالتزام العربي ، واحد الذين مارسوا هذه السياسة مع عبـد الناصر ، واحد الذين سبقوا الى اعلانها للرأي العام منذ سنوات على انها الالتزام الذي خلصت اليه مصر بعد ان درست سياستها وقررت ان تبلورها» ... وتحددهـا تحديدا واقعيا واضحا ، وانتهت .. الى جعل تلـك السياسة داخل اطارين لا تخرج عنهما : الوطنية المصرية، والقومية العربية ، بحيث لا يظهر تناقض بينهما ، وبحيث لا تكون مصلحة مصر وسلامتها ومصالحها عاملا من عوامل الحاق الضرر بمصالح وسلامة دولة عربية اخرى» (١٧) .

ان التنظيم الاتحادي العربي لا يكون ناصريا الا اذا كان ثوريا وديموقراطيا واشتراكيا ، ولذلك اعلن القذافي ان «الباب مفتوح امام اية دولة عربية للانضمام الى هذا الاتحاد بشرط ان يكون لديها قناعة بالاشتراكية العربية.

واعرب عن عدم توقعه لانضمام اية دولة ملكية لهـذا الاتحاد بل لا بد ان تكون جمهورية حققت حريتها وان حكومتها تمثل شعبها فعلا . فبدون هذه الشروط فان الوحدة لا تستمر طويلا» (١٨) . ان الاعضاء الاربعة لاعلان الثامن من نوفمبر ملتزمون بالثورة والديموقراطية والاشتراكية بمقدار ما هم ملتزمون بالرؤيا الناصرية ، وبالقواعد الناصرية للعمل الوحدوي . ولكن عضوا واحدا حقق نظاما ديموقراطيا اشتراكيا ، وما تزال حالة الاعضاء الثلاثة اقرب الى «حالة ثورة» منها الى «حالة نظام» . وهذا ما يقضي بان تجري عملية بناء الاتحاد على مستويين : المستوى القطري الخاص لبناء نظم في الاقطار الثلاثة تشبه النظام المصري بدون ان تكرره ، والمستوى العربي العام لبناء النظام الاتحادي الذي يستوعب النظم الاربعة ، ولاقامة اتحاد القوى الوطنية التقدمية ، لئلا يعاني الاتحاد الفراغ التنظيمي الشعبي الذي عانته الوحدة المصرية السورية ، ولئلا يصطدم بالتناقض التنظيمي الحزبي الذي قضى على الاعلان الثلاثي المصري ـ السوري ـ العراقي قبل ان يخلق . وهذا ما يجعل عملية بناء الاتحاد العربي اعقد من سواها ، لان الاتحادات الغربية تكونت على الاغلب من اعضاء ذوي نظم او تقاليد دستورية قائمة ، ولكن الاتحادات الشرقية تكونت في ظل ثورات شاملة ادت في الآن ذاته الى اعادة تنظيم الكل والاجزاء . وتولى الحزب الشيوعي هذا التنظيم بوحي فكرة الديموقراطية المركزية . ولذلك يتساءل بعض الباحثين عن حقيقة الفدرالية السوفياتية ؟ أتكون في استقلالية الجمهوريات التي يذهب الدستور الى حد الاعتراف بحقها في الانفصال ؟ أتكون في وحدوية الحزب الشيوعي الذي يتولى السلطة من المركز ؟ او تكون في منزلة بين المنزلتين، اي في التنظيم الذي يكون «اشتراكيا في محتواه وقوميا في شكله ، فتؤمن به الفدرالية السوفياتية الحريات الاساسية لشعوب الاتحاد ، ولكنها تؤمن ايضا المركزية الاساسية للشيوعيين الاصليين ، فتحرك بذلك الارادة الحسنة من ادنى الى اعلى ؟» (١٩).

تكونت جميع الاتحادات الغربية والشرقية بوحي الليبرالية او الماركسية . والليبرالية والماركسية والفدرالية هيُ الان موضع مراجعة جديدة في مواطنها الاولى بضوء مستحدثات الثورة العلمية التكنولوجية . ولئن شكل التنظيم الفدرالي خطوة ثورية جديدة في التنظيم الانساني جعلت اكثر الثوريين الاشتراكيين ، وفي مقدمتهم برودون يدعون لانسانية فدرالية ، الا ان التكون الاتحادي الفدرالي لم يكن دائما تكونا ثوريا . بل ان الثورية قد تتنافى مع الفدرالية اذا اكتسبت معنى العنفية ، واذا نزعت الى الاستئثار السلطوي وجنحت للوحدوية المركزية اي الى تجسيد الثورة في مركز واحد او شخص واحد او حزب واحد او ايدولوجية واحدة. ان الفدرالية هي توفيق عقلاني سياسي ودستوري مستمر وتجدد بين الوحدوية والتعددية . وهذا ما جعل خط الفدرالية بالنجاح ضئيلا حتى الان في العالم الثالث بسبب تراوح اكثر النظم القائمة فيه بين الفوضى والديكتاتورية . وكلاهما مناف للفدرالية التي تفترض الحرية النظامية اي التغيير السلطوي التناوبي .

ان التراوح بين الفوضى والديكتاتورية في نظم العالم الثالث هو وليد التخلف . والفدرالية تتنافى مع التخلف ، ولكن الفدرالية تشق طريق التقدم اذا وفرت الاطار القانوني العام الثابت لصناعة الامة الجديدة ، واذا وفرت التعبئة الانتاجية الواسعة والشاملة لامكانات وطاقات اعضاء الاتحاد الواحد في سبيل التقدم . ولا ريب ان انتظام ولايات اميركا الشمالية في اتحاد واحد وتفتت اميركا اللاتينية دولا متعددة هو سبب رئيسي من اسباب التقدم الشمالي والتخلف الجنوبي . ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حققا السوق القارية الذاتية في الاطار الاتحادي الفدرالي . والسوق القارية هي سبب رئيسي من اسباب تقدمهما الاقتصادي على الدول الاخرى . وتحقيق مثل هذه السوق هو عامل فعال في دفع اوروبا الغربية في طريق الاتحاد الفدرالي . ووعي كل هذا يبرز التخطيط الاتحادي الفدرالي كتخطيط انمائي في سبيل التقدم وفي سبيل التحرر من التخلف (٢٠) . وهذا ما يجعل بالضرورة من المخططين الاتحاديين في الدول المتخلفة مهندسين انمائيين . وما لم يرتفعوا لهذا المستوى ، فان العملية الاتحادية تظل على هامش حياة الشعب وان تجاوبت مع شعوره . فالمهم هو التطابق بين شعور الشعب الوحدوي وبين تقدمه الحسي . ولا صحة للزعم القائل بانه لا يمكن للمجتمع المتخلف الا ان يصنع قيادة تخلفية . فالتفاعل الحضاري المشتد بين المجتمعات الانسانية ، والتفاعل الديالكتيكي داخل المجتمع الواحد كفيلان بصناعة قيادة تقدمية انمائية تخطيطية تأتي نفيا او ثورة على التخلف في مجتمعها . ولولا ذلك لما امكن اي مجتمع ان يتحرر من التخلف وان يحقق التقدم .

ولئن ظهرت الوظيفة الانمائية للاتحاد في الظروف الحاضرة في الدول المتخلفة اكثر اهمية منها في الدول المتقدمة ، الا ان الدول الفدرالية المتقدمة كانت هي بالامس دول متخلفة ، وكان الاتحاد الفدرالي سببا من اسباب «تسريع» تحولها من التخلف الى التقدم . لان تحقيق «.. الوحدة الاقتصادية وتوحيد السوق يساعد على ايجاد جهد دفاعي موحد ، ويزيد من الرفاه المبادي اثناء السلم . وتتلاءم بعض الاقطار اكثر من غيرها ، في اي اتحاد ، مع بعض انواع التخصص الاقتصادي . ولذلك فان التنمية المشتركة لجميع امكانياتها تفيد الاتحاد باسره.

ولكن لم تتمكن الدول التي ندرسها من تحقيق اوفر التنمية لامكانياتها الاقتصادية ، الا بعد ان تخلصت من خطر الحرب فيما بينها ، ولم تعد اي منها تخشى ان تدخل حربا منفصلة مع عدو خارجي . وقد ساعد التخصص الصناعي ، وما رافقه من زيادة في الكفاءة ، هذه الدول على زيادة قدراتها الدفاعية ، كما ان هذا التخصص نفسه لم يتحقق الا في الدول المتحدة في الدفاع عن نفسها» (٢١) .

ان التخطيط الاتحادي يبدو بضوء التجارب الاتحادية السابقة تخطيطا تحديثيا اي تخطيطا انمائيا دفاعيا . فالقدرة الدفاعية هي وليدة القدرة الانمائية ، والدول العربية تحتاج للقدرتين معا ، لتتمكن من التحرر من التخلف عدوها الاول في الداخل وللتحرر من اسرائيل عدوها الاول في الخارج . والتخلف بصورة عامة وبصورته الاقتصادية بصورة خاصة هو الحائل الاكبر دون التكامل الاقتصادي الذي عملت له الجامعة العربية بدون نجاح . ان اقتصاد التخلف هو اقتصاد المحصول الواحد الزراعي او المعدني الذي يتحكم به المشتري او المستثمر او المسوق الخارجي . والدول العربية اما دول زراعية تعتمد على محصول ضخم كالقطن او دول بترولية لا تعتمد الا على البترول . ولذلك ظلت الاقتصاديات العربية مرتبطة بالاسواق الخارجية وبالمساعدات الخارجية اكثر من ارتباطها ببعضها البعض . وهذه هي تركة فترة الانحطاط العثماني التي ادت الى ركود الاقتصاد العربي وفترة الحكم الاستعماري الذي ادى الى تقسيمها بعد ان كانت سوقا واحدة والى اخضاعها للاحتكارات العالمية بعد ان كانت مترابطة فيما بينها ، وبعد ان كانت الحواضر والثغور العربية المراكز الدولية للتبادل التجاري .

والتخطيط التنظيمي الاتحادي هو تخطيط لتصفية هذه التركة ، ولتصفية قواعدها في الداخل والخارج ، ولكسر الحلقة المفرغة للتخلف الاقتصادي ، ولاطلاق دورة الحياة الاقتصادية العربية في وجهة انمائية انتاجية واحدة . ان البترول هو رأسمال عربي استغل واستهلك حتى الان اكثر مما ثمر تثميرا انتاجيا . والبترول هو مكمن الثورة العلمية التكنولوجية العربية . ومهما تحررت وتصنعت اية دولة بترولية عربية منفردة ، فانها تستطيع مجتمعة ان تحقق معجزة ، معجزة حضارية اكثر مما هي معجزة اقتصادية . ان جميع الدول العربية تتحول لدول بترولية من حيث انتاج البترول او من حيث مروره في اراضيها . وتوجد بين الدول الاربع المشاركة في مشروع الاتحاد الجديد ثلاث دول بترولية هي ليبيا وسوريا ومصر . ولذلك فانها مدعوة لتنظيم «متحد بترولي عربي» يكون مستقطبا ونواة لتنظيم بترولي اتحادي عربي شامل (٢٢) .

ان التطلع للتقدم الاقتصادي والشعور بالحاجة الى الدفاع المشترك تجاه خطر خارجي واحد هما من اهم الحوافز التي حركت عملية تكوين الاتحادات المعاصرة (٢٣) .

وهذان الحافزان يحركان الان عملية تكوين الاتحاد العربي الجديد كاستجابة لتحدي التخلف وللتحدي الاسرائيلي وللتحدي الاستعماري . ولكن هذه التحديات مجتمعة هي وجوه للتحدي التاريخي الحضاري للعرب. ان الاستجابة الشاملة لهذا التحدي هي في ان نكون عربي جديد اي في انطلاقة حضارية عربية جديدة . وما لم يعن الاتحاد الجديد مثل هذه الانطلاقة الجديدة فالاولى له ان لا يكون. ان من حقنا ان ننشد الاتحاد لنبقى ، ولنقوى ولنتحرر ولنتقدم ، ولكن من واجبنا ان ننشد الاتحاد لنبدع . ولا نستطيع ان نبدع اذا كانت انطلاقتنا الحضارية الجديدة في اتجاه الماضي . فلا بد ان تكون في اتجاه المستقبل، لا بد ان تكون غايتنا جعل الحضارة الحديثة حضارتنا نستسيغ منجزاتها استساغة ابداعية لنستطيع ان نتخطاها لما هو افضل منها .

واروع انجازات الحضارة الحديثة منهجيتها العلمية التجريبية . انها هي المصدر الحقيقي لتقدمها اي لاي تقدم انساني . ان منهجية الحضارة الحديثة العلمية المطردة التقدم لا ايديولوجيتها المطردة التغير هي معجزتها الكبرى . ولذلك كانت هذه الحضارة حتى الان عالمية التكنولوجية اكثر مما كانت انسانية الايديولوجية . ولئن كانت الايديولوجية الماركسية اشمل انسانية عرفتها حتى الان ، الا انها بتحولها من منهجية علمية ثورية الى ايديولوجية اخذت تستحيل ايديولوجية سلطوية ايديولوجية قومية . ولذلك فان علينا نحن ان نمد هذه الحضارة بالروح الانسانية وبالحرارة الانسانية التي تفتقدها. ولكننا لن نستطيع ذلك الا باستساغتنا لمنهجيتها العلمية التجريبية ، واعتمادها كقاعدة اولى لتقدمنا الطبيعي والاجتماعي (٢٤) . ان القيادة العقلانية العصرية هي القيادة الملتزمة بمثل هذه المنهجية في نظرتها الى الكونين الطبيعي والاجتماعي ، وفي نضالها لتنظيم مجتمعها تنظيما جديدا . ولئن بدا تحرك هذه المنهجية محصورا في حيز الظواهر والبنيات والوسائل ، وقاصرا عن حيز القيم والغايات ، فان اي بحث قيمي او غائي لا ينطلق من نتائجها التجريبية هو قبض للغبار .

ان بوسعنا بل ان علينا ان نوسع حيز المنهجية التجريبية لنجعل منها تجريبية انسانية كاملة ، تتحرك من الطبيعة الى ما بعد الطبيعة . ولكن التحرك يجب ان يكون من الطبيعة الى ما بعد الطبيعة لا من ما بعد الطبيعة الى الطبيعة اذا اردنا ان يكون الغيب حقيقة جديدة نكتشفها لا سرابا نفتقده .. ان النظريتين الليبرالية والماركسية اللتين نشأت في ظلهما الاتحادات المعاصرة نشأتا هما ايضا في جو التجريبية العلمية ، التي دفعت الفكر الاجتماعي لاستقراء قوانين للنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مثل حتمية او نظامية القوانين التى اكتشفها الفكر العلمي في الكون الطبيعي . وليست النظم السياسية المعاصرة وليدة تصارع وتوافق القوى الاجتماعية فحسب ، ولكنها بالاضافة لذلك وليدة تصارع الافكار اي وليدة محاولات التكيف مع ما اكتشف

من قوانين النمو الاجتماعي والاقتصادي سواء أكان الانطلاق من قوانين آدام سميث او من قوانين كارل ماركس .

ولئن كنا مدعوين بالضرورة لتجاوز نتائج سميث وماركس بقدر ما يتجاوزها التطور الحضاري ، وبقدر ما يتجاوزها البحث العلمي في تحوله من الحتمية الى الاحتمالية ، ومن الميكانيكية الى السيبرنية، ومن التطورية البيولوجية التصاعدية الى التطورية الانسانية الابداعية ، فانه لا يكفي في هذا التجاوز ان يكون فعل رفض ذاتي. فلا بد ان يكون نتيجة لبحث علمي منهجي . لا بد ان يكون لقاء جديدا خلاقا بين الذاتية والموضوعية ، يجدد ذاتيتنا الثقافية ويوجهها نحو المستقبل لا نحو الماضي ، نحو الابداع لا نحو التقليد ، نحو الطبيعة لا قبل ما بعد الطبيعة ، ونحو الانسان قبل المادة ، اي نحو الحرية لا نحو الحتمية . واذا كنا شهدنا في محاضر الجامعة العربية ومحاضر المحادثات الثلاثية تشابه الكلمات واختلاف المدلولات ، فالسبب الرئيسي لذلك هو اننا ما نزال حتى الان متطفلين على مائدة الفكر الاجتماعي الحديث ، ومتثاقلين فكرنا الاجتماعي التراثي . اننا لم ننقطع عن هذين الفكرين انقطاعا ثوريا حقيقيا ، ولم نتواصل معهما تواصلا منهجيا حقيقيا ، ولم نصل ما بينهما وصلا منهجيا خلاقا (٢٥) . اننا لم ننقل بعد فكرنا الاجتماعي التراثي الى لغة حديثة ، ولم تعرب بعد لا الليبرالية ولا الماركسية تعريبا حقيقيا ، لاننا لم نعرب بعد المنهجية العلمية التجريبية التي صاغت الليبرالية والماركسية ، ولذلك لم يكن من اليسير علينا ان نعرب الديموقراطية ، ولن يكون من اليسير علينا ان نعرب الفدرالية . ان التعريب الحقيقي هو تعريب الروح والمنهج لا تعريب الكلمة والشكل .

ان الناصرية تصلنا – كما ذكرنا في « الوعي العقائدي» منذ سنوات عبر الثورية العلمية والديموقراطية والاشتراكية والتعاونية بالفكر السياسي الحديث (٢٦) . ولكن لا الناصرية ولا اية ايديولوجية شرقية او غربية يمكن ان تصلنا وصلا خلاقا بهذا الفكر اذا لم توفر لنا البنية المنهجية الاساسية للفكر الحديث . فان التخطيط الجديد لتنفيذ المشروع الوحدوي الناصري لن يؤدي الى انطلاقة حضارية عربية جديدة ، الا اذا كان تخطيطا على مستوى الفكر والعمل معا ، اي تخطيطا لفكر علمي عربي ولسلوك علمي عربي .

ويبدو وكأننا ننظر الى النجوم بيننا تتعثر خطواتنا في الاخاديد التي يحفرها لنا العدو . ولكن هذه الاخاديد كما اظهرت حرب الخامس من حزيران وكما تدل الحرب الالكترونية والذرية التي يعدها لنا الان هي صناعة علمية. ولا تقهر الصناعة العلمية الا بصناعة مثلها او احسن منها. ولذلك فان الفرق بين النظر العلمي والنظر غير العلمي ليس الفرق بين النظر الى السماء والارض ، ولكنه الفرق بين التحرك السليم في السماء والارض وما بين السماء والارض . والفرق بين التحركين ليس الفرق بين العلم واللاعلم ، وبين الاتحاد واللااتحاد ، ولكنه الفرق بين البقاء والزوال ، اي بين الحياة والموت . وامتنا تستحق العلم والاتحاد لانها تستحق الحياة (٢٧) .

حسن صعب

---

(1) - George Vedel , Les Grands Courants de la penscee politioue et le Federalisme , Le Federalisme , op . cit ., P. 31 - 86

٢ – خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الى مجلس الامة في ٥ فبراير ، ١٩٥٨ ، في كتيب : البيانان التاريخيان للرئيس شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ، ص ٢٠ – ٢٣

٣ – الجمهورية العربية المتحدة ، الميثاق ، قدمه الرئيس جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ ، الباب التاسع ، الوحدة العربية ، ص ١٣١

٤ – نفس المرجع ، الباب الثاني ، في ضرورة الثورة ، ص ١٥

٥ – نفس المرجع ، ص ١٨

٦ – نفس المرجع ، ص ٢٠

٧ – نفس المرجع ، ص ٢٢

٨ – نفس المرجع ، الباب التاسع ، الوحدة العربية ، ص ١٣٧

٩ – نفس المرجع ، الباب الثاني ، ضرورة الثورة ، ص ٢٢

١٠ – نفس المرجع ، الباب الاول ، نظرة عامة ، ص ١٤

١١ – محاضر ومحادثات الوحدة ، المرجع السابق الذكر ، ص٤٥

١٢ – نفس المرجع ، ص ٤١

13 - K.C. Whcare , Federal Goverment , London,oxford University press 1953 . P. 40

١٤ – الدكتور جمال الاتاسي ، الحوادث ، بيروت ، ١٨ كانون الاول ، ١٩٧٠ ، ص ١٨

(15) - Arthur Macmahon . The problems of Federalism . A Survey , in Federalism Mature and Emergent , ed . , Macmahon , New York , Doubleday , 1955 , P. 3 - 27

١٦ – الميثاق ، المرجع السابق الذكر ، الباب الخامس ، عن الديموقراطية السليمة ، ص ٥٠

١٧ – انور السادات ، قصة الوحدة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ١٦

١٨ – الشعب ، بيروت ، ٢ دبسمبر (كانون الاول) ١٩٧٠

(19) - Guy Lardreit de la charriere , l'Idee Federale en Russie de Riourik A Staline , Paris Dedone , 1945 , P . 160

(20) - Federalism and Economic Growth in Underdevelopad Countries , Symposium , Bicks , Carnell , Newlyn , Birch , New York , oxford University Press , 1961

٢١ – روبرت بوي وكارل فريدريك ، دراسات في الدولة الاتحادية ، ترجمة برهان الدجاني ، بيروت ، الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٤–٥ اصل الكتاب بالانكليزية Studies in Federalism , ed . Bowie and Friedrich , Boston , Mass

٢٢ – عبد الله الطريقي ، تأميم البترول العربي واقامة السوق العربية المشتركة ، ملحق الانوار الاسبوعي ، بيروت ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٠ .

(23) - Wheare , op . cit . P. 37

٢٤ – حسن صعب ، علم السياسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠٨ – ٤٢٧

٢٥ – حسن صعب ، تدريس العلوم السياسية في لبنان ، الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية بيروت ، ١٩٥٩

٢٦ – حسن صعب ، الوعي العقائدي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨

٢٧ – فصل من كتاب يصدر قريبا بعنوان «المشروع الوحدوي الناصري بعد عبد الناصر» .

عبدالناصر والارض والفلاح

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٥ ـ

اجراءات تهدف الى تحسين حال الفلاح ، وتغيير تكوينه واساليبه .

بل وقد اذهب الى ابعد من هذا ، فأزعم ان كل ما اتخذته الثورة بقيادة جمال عبدالناصر ، من اجراءات ، انما كان يهدف الى تحرير الفلاح ورفع مستواه : التعليم المجاني في جميع المراحل هو اولا لمصلحة ابناء الفلاحين الذين ما عرفوا التعليم بهذه الصورة من قبل ، والذين كان كبار الملاك يصيحون في وجههم مستنكرين :

« اذا تعلم الفلاح ، فمن الذي سيزرع الارض ؟» . الوحدات الصحية والعلاجية في الريف للفلاحين . الماء النقي ، بدلا من ماء الترعة الملوث بالامراض للفلاحين . والكهرباء لكي تبدد ظلام القرى الدامس فلا تكون لياليها هي ارخص الليالي . والصناعات لاستيعاب الايدي العاملة الفائضة من الريف . والسد العالي : ماء اوفر واكثر انتظاما .. وارض جديدة .. وكهرباء ونور .

ومن الممكن ان نوجز اهداف زعامة عبدالناصر الثورية بالنسبة للفلاح في اربعة اهداف :

١ ـ تحرير الفلاح سياسيا حتى يدخل الحياة القومية مساهما فيها مساهمة فعالة وايجابية ، ومتخلصا من سيطرة كبار الملاك ، ومشاركا في اعادة بناء الوطن العربي في مصر .

٢ ـ رفع مستوى الفلاح اقتصاديا ، حتى يرتفع مستوى الانتاج الزراعي ، واحلال الدولة محل المالك الكبير في كل مجالات النشاط الزراعي ، وخاصة في مجالات التمويل والاستثمار اللازمة لتجديد الزراعة وتحقيق تقدمها المستمر .

٣ ـ احلال الروح الجماعية التعاونية بين الفلاحين محل الروح الفردية التعارضية ، وتخليصهم من جميع الوسطاء على المستوى الاقتصادي عند تأجير الارض او الحصول على مستلزمات الانتاج او تسويق المحاصيل ، مع رفع مستوى العامل الزراعي ، اقتصاديا وتكنيكيا ، وتخليصه من استغلال المقاولين .

٤ ـ مساعدة الفلاح على استعادة سلطته باستعادة حقه في تملك الارض ، واحياء مبادراته وشعوره بالمسئولية القومية .

التحرر السياسي

وفيما يتعلق بتخليص الفلاح من السيطرة السياسية الاقطاعية ، وتحرير صوته الانتخابي من نفوذ كبار الملاك ، فان الثورة نجحت في ذلك الى حد بعيد ، وذلك بفضل اجراءات سياسية اخرى مصاحبة .

وكما هو معروف ، فقد كان الفلاح عبدا للاقطاعي ، وكان الاقطاعي او المالك الكبير عبدا للرأسمال الاجنبي الاستعماري .

ومن الناحية الاقتصادية ، فقد كان المالك الكبير هو الذي يستغل الفلاح : مستأجرا او اجيرا او مالكا فقيرا ، استغلالا مباشرا عن طريق الايجارات العالية بمعدلات المضاربة على الارض ، وعن طريق الاجور الدنيا التي لا تكاد تقيم الاود ، وعن طريق التمويلات المرابية الفائدة والشروط . لكن هذا المالك الكبير نفسه كان مستغلا استغلالا مباشرا من جانب رأس المال الاجنبي الاستعماري المتمثل في مصارف الائتمانات العقارية والزراعية والمصارف التجارية وبورصات القطن والمحاصيل الزراعية الاخرى .

ولفترة طويلة كانت اسعار القطن المصري تتحد في بورصات ليفربول ونيواورليانز . وفي وقت من الاوقات كان مجموع الديون والائتمانات التي للمصارف الاجنبية على الارض تكاد تجعل هذه الارض ملكا لهذه المصارف لا ملكا لاصحابها من كبار الملاك .

وفي الوقت ذاته ، كان المالك الكبير تابعا ، من الناحية السياسية، وبحكم التبعية الاقتصادية، للمستعمر الاجنبي ، الذي كان يرى فيه القاعدة الاساسية لنفوذه في البلاد .

وعندما كسر الاصلاح الزراعي العلاقة بين الفلاح والمالك الكبير ، فانه كسر ، في الوقت ذاته ، العلاقة بين المالك الكبير والاستعمار ، وعزل نفوذ المستعمرين عن الريف ، وحصره بشكل واضح في مجرد قوات الاحتلال الواضحة المعالم ، والتي كانت الهدف الواضح ، دائما ، لغضب الشعب العربي في مصر ، وفي البلاد العربية الاخرى .

ولم يؤثر الاصلاح الزراعي في مدى نفوذ الملكيات الكبيرة فحسب ، وانما هو قد أثر كذلك في الملكيات المتوسطة ذات الملاك الغائبين ، والتي كان يتم استغلالها عن طريق التأجير ، وكان ملاكها من طبقة الموظفين او

تجار المدن .

وهنا ، فان ما جاء في قانون الاصلاح الزراعي خاصا باعادة تقدير القيم الايجارية في اطار حد اقصى ، وبتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر ، وبوضع الضمانات للمستأجرين في مواجهة اصحاب الارض ، لا يقل اهمية وتأثيرا عما حققه من اعادة توزيع الارض الزراعية، خاصة اذا عرفنا ان نحو نسبة ٦٠ بالمئة من المشتغلين بالزراعة في مصر ، هم من المزارعين المستأجرين .

اما فيما يتعلق بالهدف الثاني والثالث ، فان اشراف الدولة على الزراعة ، اليوم ، يتحقق عن طريق نظام التعاون الموجه .

فقد الزم قانون الاصلاح الزراعي جميع المنتفعين بالاصلاح الزراعي بتكوين جمعيات تعاونية تحت توجيه اجهزة الدولة الزراعية والتعاونية . وتمت بعد ذلك عدة خطوات لبث روح الزراعة الجماعية عن طريق تجميع الدورة الزراعية ، وعن طريق تنظيم الانتاج الزراعي تدريجيا ، وعن طريق تعميم التسويق التعاوني للمحاصيل الرئيسية خطوة خطوة .

ولا شك في ان التعاون الزراعي في الريف المصري، وخاصة في قطاع الاراضي خارج الاصلاح الزراعي،والذي يعرف باسم « التعاون الائتماني » لا يزال يحتاج الى جهود اكثر ، والى ان يتحول من مجرد كونه تعاون خدمات الى كونه تعاون انتاج .

لكن لا بد لنا من الاعتراف بان العقبة الرئيسية في سبيل تطوير قيادة الدولة للزراعة عن طريق البنيان التعاوني تكمن اساسا ، في عدم كفاءة كثيرين من المشرفين الزراعيين ، وخاصة فيما يتعلق بمستوى علاقاتهم مع الفلاحين .

ولا شك في ان الفلاحين المنتفعين بالاصلاح الزراعي قد استعادوا كرامتهم وارتفع مستواهم المادي والمعنوي . انهم يشعرون بانهم قد تحرروا واصبحوا اسياد انفسهم، وانهم قد تخلصوا من محاولات الاقطاع السيطرة بالقوة، على نفوسهم الشرية ، ومن محاولاته لاستعبادهم . والذين عاشوا منهم قبل الاصلاح يدركون اكثر من غيرهم الفارق بين ما كان وما هو كائن الان .

والجهود لا تزال مبذولة لاحياء مبادراتهم وشعورهم بالمسئولية القومية ، وان كانت الامية التي تزال منتشرة بينهم تعتبر معوقا من اخطر المعوقات في هذا السبيل .

ومع هذا ، فلقد كذب الفلاح ، بعمله ومواقفه ، كل الادعاءات التي قيلت ضد الاصلاح الزراعي وتأثيره على الانتاج . وبفضل استعادته لحقه في ملكيته الارض ، وشعوره بان ثمرة جهده انما تعود اليه ، وبفضل مساعدات الدولة الارشادية له ، فلقد نجح في زيادة غلة الارض ورفع مستوى المحاصيل .

وقد ركل الفلاح جانبا كل مزاعم معارضي توزيع الارض بدعوى التمسك بالدين او التقاليد .

ولقد زرت مؤخرا قرية « ميرة » وقرية «الزعفران» وهما اول منطقتين تم فيهما توزيع اراضي الاصلاح الزراعي في ٢٣ يوليو ١٩٥٣ ، وتحدثت الى عدد كبير من المنتفعين بالاصلاح الزراعي ، فلمست مدى ما اكتسبوه من شعور بالكرامة والحرية . ولم اجد احدا منهم – وكما يشاع في البارات والفنادق الكبرى ومن الهمسات احيانا – يريد ان يعيد الارض التي اعطاها الاصلاح الزراعي له الى اصحابها، او ان كرامته وحريته قد اصبحت اقل مما كانت عليه قبل عهد الاصلاح الزراعي . ولم اجد فلاحا كان معدما او فقيرا قبل الاصلاح الزراعي قد اصبح اكثر فقرا او اعداما بعد الاصلاح . ووجدت ابواب الامل مفتوحة امام الجميع بلا حدود .

ولا شك في ان مستوى دخل الفلاح بصورة عامة قد ارتفع ، ودخل فلاح الاصلاح الزراعي بصورة خاصة . ويقدر البعض نسبة الارتفاع في الدخل بنحو مائة وخمسين في المائة .

ونتيجة لارتفاع الدخل ، فقد اتجه الفلاح اول ما اتجه ، وشأنه في ذلك شأن كل الفلاحين في الدول النامية والذين طال حرمانهم من الكفاية ، الى زيادة الاستهلاك الغذائي ورفع مستوى نوعيته .

وبعد الاتجاه نحو زيادة الاستهلاك الغذائي يتجه الفلاحون الى تحسين مساكنهم ، ثم يتجهون ، بعد ذلك ، الى تعليم الابناء والبنات احيانا، كضمان لمزيد من الدخل في المستقبل ، وكأداة لتحسين مكانتهم الاجتماعية في القرية .

على ان بعض الفلاحين لا يزالون ينفقون جزءا كبيرا من دخلهم بصورة اسرافية ، اما في زواج جديد، او في المكيفات ، او في اللهو في المدن .

وفي الواقع ، فان مسألة توجيه الانفاق لدخل الفلاحين المنتفعين بالاصلاح الزراعي قد اصبحت قضية راهنة تحتاج الى دراسة وقرارات .

ثم علينا الا ننسى تلك الدلالة على المكانة الجديدة للفلاح، التي خلقها له عبدالناصر ، وهي التي تنعكس في الادب

الناصرية ومقاصدنا الثورية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٢ ـ

ينضموا الى الفدائيين في مقاومتهم لتلك المؤامرة ؟.. لماذا بقوا في الجيش يساهمون فيها ؟..

السبب لا يعود ، كما تخيل هؤلاء ، الى قصور ذاتي محض في الجندي الفلسطيني ، بل الى الاوضاع الموضوعية التي تحيط بالعمل الفدائي . فعندما يتطلع هذا الجندي الى هذا العمل فلا يرى انه يمارس « الدور المستحيل » الذي يفترض فيه تبعا لهذا الموقف التبشيري الشعائري ، اي دور التحرير او دور الحرب الشعبية ، على غرار فيتنام او الجزائر ، فانه لا يجد فيه قوة الجذب التي يمكن ان تجذبه اليه ، لان واقعه منفصم عن هذا « الدور المستحيل » .

عند المقارنة مع الحرب الفيتنامية الشعبية ، نرى انه تبعا لاحصاءات وتقديرات اميركية كان هناك ما يقل عن معدل عشرة الاف جندي يتركون شهريا ، جيش فيتنام الجنوبية ويلتحقون بالفيتكونغ . الفرق هو ان الاوضاع الموضوعية التي تحيط بهذه الحرب في فيتنام تختلف اختلافا جذريا عنها في فلسطين ، وهي تسمح بفاعلية ضد المحتل لا تنفتح لها ابدا اوضاع الاخيرة ، وليس لان الجندي الفلسطيني اقل استعدادا للكفاح المسلح او اقل شوقا لتحرير فلسطين . انني شخصيا اعتقد ، لاسباب عديدة لا مجال للخوض فيها هنا ، ان هذا الاستعداد موجود في الجندي الفلسطيني اكثر من الجندي الفيتنامي في جيش جنوبي فيتنام ، ولو ان الاوضاع الموضوعية التي تحيط بالاول كانت مماثلة لتلك التي تحيط بالثاني ، لما كان هناك جنود فلسطينيون يؤمرون او حتى جيش اردني يمكن الايحاء له بمقاومة الفدائيين .

هذا الموقف التبشيري الشعائري يطلب منا ايضا الاعتراف بان الاطار الفلسطيني كان الاطار الوحيد الذي خرجت منه قيادات ثورية ترتبط ارتباطا عضويا بالجماهير . هكذا ، بشطحة قلم ، تزول اهم تجارب العرب الثورية الحديثة ، في الجزائر ، في اليمن الجنوبي ، وفي الخليج ، وفي مصر . فقبل الاطار الفلسطيني ، واكثر منه بكثير خرجت من الاطار الجزائري قيادات ثورية ارتبطت ارتباطا عضويا بالجماهير وبشكل لم تحققه بعد المقاومة الفلسطينية . نفس الشيء تقريبا يقال ايضا عن ثورة اليمن الجنوبي . وعن المقاومة الدائرة الان في بعض انحاء الخليج . اما قيادة عبدالناصر بالذات فقد حققت هذا الارتباط العضوي بشكل لا يماثلها فيه ، عن قريب او بعيد ، اي ارتباط اخر . الجماهير الفلسطينية نفسها كانت تشعر بهذا الارتباط اولا مع قيادة عبدالناصر وليس مع اية قيادة اخرى .

وقبل وفوق كل شيء ، يدعونا هذا الموقف التبشيري الشعائري الى التمثل بتجربة فيتنام كانموذج نحتذيه الثورة الفلسطينية ، وتعيده في فلسطين . الخ . ولكن دون اي وعي لعلاقة هذه التجربة بالاوضاع الموضوعية التي ترتبط بها ، والى غياب هذه الاوضاع الموضوعية غيابا تاما مطلقا في فلسطين ، التجربة الفيتنامية ، كحرب شعبية ظافرة ، لا تتفرع مباشرة من الفيتنامي كانسان ذي كفاءات طبيعية فيه ، بل تتفرع من علاقته مع اوضاع موضوعية ، تاريخية وسياسية ، وبشكل اخص جغرافية ديمغرافية استراتيجية معينة .

٣ ـ هناك قسم من هؤلاء الناصريين السابقين يحارب ثورة ٢٣ يوليو الناصرية باسم « طبقوية » غريبة ، وهو يريد ايضا توجيه المقاومة في ضوئها . فالبورجوازية الصغيرة اصبحت الشر الوحيد . مصدر كل شر في الناصرية وفي المقاومة ، مصدر كل انحراف وكل خطأ وضعف . فهي الشيطان الجديد الذي حل محل شيطان المسيحية والاسلام في تفسير الشر ووجوده في العالم .

المجال لا يتسع لمناقشة معضلة لهذا « المفهوم » (؟) الذي يكشف بوضوح هنا ايضا ، عن الطبيعة المثالية ، التبشيرية ، الشعائرية ،

والفن المصري المعاصر ، وفي الاغاني والرقصات ، وفي احياء التراث الشعبي في الريف .

ملك اسمه الفلاح

ويطول الحديث اذا اردنا ان نعرض ونناقش ونقيم تقييما نقديا كل ما حققه جمال عبدالناصر للفلاحين ، وكل ما بلوره ـ وهذا له اهمية تاريخية كبرى ـ من امال في نفوسهم . ولكن من غير المختلف عليه ان الاصلاح الزراعي المصري هو من انجح الاصلاحات الزراعية في البلاد الفتية لانه امكن تنفيذه ، فعلا ، بعد صدوره كتشريع ، بينما لا يزال الكثير من الاصلاحات الزراعية مجرد قوانين لم يتم تنفيذها حتى الان رغم صدور بعضها قبل تشريع الاصلاح الزراعي في مصر .

كذلك ، فانه من غير المختلف عليه ان الزعيم الراحل جمال عبدالناصر قد عمل ، فعلا ، على تحرير الفلاح من نير الاقطاع والسيطرة الاستعمارية ـ الاقطاعية ، سياسيا واقتصاديا ، وفتح الباب للتطور الاجتماعي في الريف ، كما مهد السبيل الى تطوير الانتاج الزراعي المصري وتخليصه من وحدة المحصول ، والى رفع مستوى الكفاءة الانتاجية والدخول في تجارب ما كان يجرؤ على الدخول فيها اي مالك كبير ، وذلك بهدف البحث عن طريقة لمواجهة التحدي الذي تمثله العلاقة بين زيادة السكان وزيادة الانتاج الزراعي .

ولقد قال عبدالناصر ، وهو يوزع ارض الاصلاح الزراعي في ٢٣ يوليو ١٩٥٣ ، وبعد عام واحد فقط من قيام سلطة الثورة :

«يسعدني ان ارحب بالفلاح وقد تحرر واصبح سيد نفسه ، من الناحية السياسية والاجتماعية . ويسعدني ان ارى الاقطاع وقد انهار الان . والاقطاع لم يكن ـ باي حال من الاحوال ـ امرا طبيعيا ، ولكنه كان محاولات للسيطرة بالقوة على النفوس الشريرة ، ومحاولات للاستعباد .

وجمال عبدالناصر هو الذي قال دائما للفلاحين انه ابن فلاحين مثلهم من « بني مر » وان اسرته لا تزال في « بني مر » في صعيد مصر ، تزرع وتفلح مثلهم .

وهو الذي رأى فيه الفلاحون دائما التجسيد الحي لآمالهم ومطالبهم وتطلعاتهم ، ورأوا فيه الزعيم الذي خلع الملك ، اكبر اقطاعي في البلاد ، لكي ينصب محله ملكا اخر .. اسمه الفلاح .

القاهرة — ابراهيم عامر

والميتافيزيقية ، التي تحدده . لذلك اكتفي ببعض الاشارات العاجلة.

(أ) ليس هناك اخطر من هذا الموقف الخارج عن الوحدة والدولة الواحدة ، عن الناصرية وثورتها ، باسم طبقوية ، ليست فقط غريبة عن واقعنا ، بل غريبة ايضا عن الماركسية ـ اللينينية ، ومضادة لها.

(ب) من السهل جدا الكشف عن حقيقة هذه الطبقوية الشعائرية وذلك بان يطلب من هؤلاء الناصريين السابقين تحديد ما يعنون بها. اي تحديد من هذا النوع يكشف رأسا عن متناقضات وتخبط هذا المفهوم.

(ج) اننا في المجتمع العربي لا نعرف الطبقات التي عرفها ولايزال يعرفها المجتمع الصناعي الغربي . فالولاءات الطبقية لا تحدد سلوك « الطبقات » والوعي الطبقي شبه مفقود . ان اشكال هذا الوعي وما رافقه من عنف واضرابات طبقية تعرفت عليها حركة العمال في اوروبا ، وحتى في الصين وروسيا قبل الثورة ، اشكال مفقودة لدينا، كما انها مفقودة ايضا تلك الطبقات الرأسمالية والبورجوازية الغربية التي تشرط وتحدد هذه الاشكال . ليس من قبيل المصادفة انه لم يوجد حتى الان حزب عمالي او فلاحي في الوطن العربي. فالانتماءات والولاءات النفسية والاخلاقية والاجتماعية ، التي تعودها العربي عبر قرون عديدة في التخلف والاستعمار ، والتي لا يزال يعانيها هي ولاءات محلية وطائفية ، قبيلية وعائلية . لهذا كان وجود قاعدة تتركز عليها الجهود الثورية العربية ، قاعدة تتجسد من ناحية رمزية في قيادة مشخصنة كما هي في الناصرية ، شرطا اساسيا في تجاوز هذه الولاءات والانتماءات المتخلفة وبلورة نفسية الوحدة ، لانها توفر نقطة التقاء واحدة وارضية مشتركية تتحدد وتنصهر المشاعر فيها .

(د) ارجاع كل نقص وضعف وخطأ في الحركة العربية الثورية ، في الناصرية او في المقاومة الى هذه الطبقية يبسط التاريخ والاجتماع ليس فقط بشكل مضاد للماركسية ، بل بشكل شعائري محرج لانه يتجاهل جميع اصعدة الاجتماع الاخرى ، جميع قوى التاريخ المتفاعلة مع هذه الاصعدة ، وعلاقتها مع التركيب الطبقوي .

على سبيل المثال فقط ، اذكر ان ترسبات وموروثات الماضي مثلا تعطل امكانات الشعب العربي ، وتعطل ايضا فاعلية التحولات الثورية التي تحاولها الثورة ، على الرغم من ان هذه التحولات ستؤدي في المدى البعيد على الاقل الى خلق الاوضاع التي تزيل هذه الترسبات والموروثات اي حد كبير . ان التخلف الذي نعانيه لا يفسر بتاخرنا التكنولوجي او بعدم توفر التكنولوجيا الحديثة لنا ، فالمستوى التكنولوجي وحده لا يفسر التخلف ، لان هذا التخلف هو ايضا تخلف العقل والذات عن مجاراة المجتمع الحديث ، هو اطارات نفسية وعقلية لا تنطبق على هذا المجتمع . لهذا كان الفرق بين الانسان الغربي والانسان « المتخلف » اكبر من الفرق في تكنولوجيا الانتاج ، ولهذا لم نكسب حرب حزيران على الرغم من توفر الاداة التكنولوجية او الاسلحة الحربية .

ترسبات من هذا النوع هي التي دفعت لينين الى ان يكتب :

« ايها الرفاق ، ان الرأسماليين والمنظمين .. حتى في اكثر البلدان تقدما ، كانوا يحاولون لسنوات ، ولعشرات من السنين، ان يدرسوا وان يمتحنوا تجاربهم وتجارب غيرهم العملية ، فيصححوا ويغيروا ما بدأوا فيه ، ويتراجعوا ويصلحوا ما يصنعون مرات عديدة، كي يصلوا الى جهاز اداري يناسب تماما العمل الذي يقومون به . هذا ما كان يحدث في النظام الرأسمالي ، الذي كان يعتمد في العالم المتحضر على عادات وتجارب قرون عديدة ... اننا نبني في ارض جديدة تفرض جهدا طويلا مستمرا ، وصبورا ، في تجديد العادات التي ورثناها عن الرأسمالية والتي يمكن تجديدها فقط تدريجيا (٦) .

ثم يكتب في مكان اخر ، « كي يمكن لنا تجديد جهاز الدولة السياسي ، يجب علينا ، وباي ثمن كان ، اولا ان نتعلم ، ثانيا ان نتعلم ، وثالثا ، ان نتعلم ، وثم ان نحول دون بقاء ما نتعلمه حرفا ميتا

٦ـ Lenin : op . cit . Vol , 3 , P. 579

او شعارا .. اننا منذ خمس سنوات ونحن في حركة يسودها الضجيج، نحاول تصحيح جهاز الدولة ، ولكن ذلك كان ضجة محضة دلت التجارب انه كان دون فائدة ، او بالاحرى عبثا ومؤذيا طيلة السنوات الخمس . هذا الضجيج خلق الانطباع باننا كنا نصنع شيئا ، ولكن في الواقع ، كان يعثر ادمغتنا ونظمنا (٧) .

ثم يكتب في مكان ثالث : « هكذا يجب ، فيما يتعلق بجهاز الدولة، ان نستنتج الان من تجاربنا الماضية ، بانه سيكون من الافضل لنا بكثير ان نسير ببطء اكبر .... فجهاز الدولة السياسي هو في حالة يرثى لها ، هذا ان لم نقل في حالة تثير الاشمئزاز . لذلك يجب ان نفكر اولا وبعناية كيف يجب ان نواجه نواحي الضعف فيه ، ونذكر ان هذا الضعف يمتد بجذوره الى الماضي ، الذي وان انهينا سيادته، فاننا لا نسوده بعد ، كما انه لم يدخل بعد المرحلة التي يمكن اعتباره فيها طورا ثقافيا من الماضي البعيد » (٨)

الناصرية اداة ـ واداة مرحلية ، وبشكل خاص وحدوية ، على الرغم من ريادتها للثورة العربية ـ في خلق مجتمع جديد لا يجد في المجتمع العربي التقليدي مواد صالحة للبناء . فالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية ، والاطارات النفسية والعقلية التي تسوده ، والقواعد الايديولوجية والفكرية التي ينطلق منها ، واسس السلوك السياسي والاقتصادي التي يمارسها الخ .. كلها تتسم بخصائص لا تنسجم مع هذا المجتمع الجديد الذي نريده ، لذلك فان المرحلة الانتقالية هي مرحلة طويلة تفرض نفسا طويلا .

هذه الطبقوية الشعائرية دفعت الياس مرقص الى ان يكتب في نقده لاراء الجبهة الشعبية الديمقراطية كما تعبر عنها في كتاب « حول العفوية والنظرية في العمل الفدائي ». ما يلي : « في كتاب « العفوية والنظرية في العمل الفدائي » تتخذ الاقتصادية الامبريالية ، شكلا كاريكاتوريا لا شبيه له كشكل كاريكاتوري في التجارب السابقة في تاريخ حركة العمال الماركسية » (٩)

(٤) المقاومة ، وان اصبحت اضعافا مضاعفة وعشرات المرات أقوى مما هي عليه لا يمكن ان تكون بديلا عن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، لا يمكن ان تكون بديلا عن الجيوش النظامية . الاوضاع الجغرافية والديمغرافية والاستراتيجية للارض المحتلة ولعلاقة المحتل بها ، تجعل من غير الممكن تحول المقاومة الى حرب شعبية على غرار الجزائر او فيتنام ، تجعل من المستحيل عليها تحرير فلسطين او حتى جزء منها ، دون ان تتحول الى تشكيلات مماثلة للجيوش النظامية في معارك من نوع الحرب التقليدية .

المقاومة تستطيع ان تعثر استقرار ونمو الكيان الاسرائيلي ولكنها لا تستطيع الغاء هذا الكيان او تحرير فلسطين منه، دور المقاومة هو مساندة الجيوش النظامية ، والارتقاء عن طريق ممارسة الكفاح والقتال الى مستوى الحرب النظامية الفعالة .

(٥) ليس هناك ادل على الطبيعة الميتافيزيقية والتبشيرية والنفس القصير اللذين يجيزان هذا اليسار الفكري والسياسي من موقفه من الجيوش النظامية . فهذه الجيوش فشلت في حزيران ، فاذا به يسرع الى اعطائها ماهية ثابتة خالدة ، هي ماهية العجز ، دون اي تقدير لتفاعلها مع الاوضاع الموضوعية والتاريخ ، ومع الهزيمة نفسها ، وكيف ان هذا التفاعل نفسه يمكن ان يؤدي ليس بعيدا . فقط ، بل قريبا ، الى تجاوزها لذاتها ولفشلها السابق .

فان هي فشلت عام ١٩٦٧ ، فذلك لا يعني كما قلت في مناسبات اخرى انها ستفشل عام ١٩٧٧ ، عام ١٩٨٧ ، او عام ٢٠٠٧ الخ .

القوى الاساسية الثابتة التي تسمح ببناء جيوش قوية هي المساحة الجغرافية الواسعة ، القوى البشرية ، والمواد الاولية . وهذه كلها

(٧) Ibid : Vol , 3 , PP , 831 , 830

(٨) Ibid , P. 829

(٩) راجع مواقف ، عدد ١.

متوفرة لنا. اما الاسباب الاخرى وهي العقلية الحديثة، التكنولوجيا، العلم ، لتدريب ، وممارسة القتال ، فهي امور يمكن نيلها مع الوقت، ولكن ان كانت القوى الاساسية غير موجودة ، فانه لا يمكن نيلها مع الوقت . هذه القوى متوفرة لنا بكثرة ، ولكنها غير متوفرة ابدا لاسرائيل . هكذا يرجعنا مرة اخرى الى الدولة الواحدة التي يجب ان نقدمها على كل شيء اخر ،لانها هي الاداة التي تستطيع بها ان تحشد جميع تلك القوى الاساسية في سبيل معركة تحرير فلسطين . ولكن مرة اخرى . فان طريق الوحدة تمر بمصر ، ومرة اخرى نرى ان طريق تحرير فلسطين يفرض علينا الارتباط بثورتها الناصرية ، على الاقل ارتباطا مرحليا استراتيجيا ، كطريق الى هذه الدولة الواحدة .

(٦) الاستنتاج الذي يفرض ذاته من الملاحظات المتقدمة هو ان العلاقة الصحيحة بين المقاومة الفلسطينية وبين ثورة ٢٣ يوليو الناصرية والجيوش النظامية ، وبشكل خاص اساسي جيش الاخيرة، يجب ان تكون علاقة مساندة وتعاون وثيق ، هذا ان لم نقل علاقة ارتباط ، وليس كما يعلن هؤلاء الناصريون السابقون فيموقفهم التبشيري الشعائري ، علاقة تناقض نقدم فيها المقاومة نفسها بديلا عن الناصرية والجيوش النظامية .

هكذا نرى في هذا الموقف التبشيري الشعائري الذي يعبر عنه بشكل خاص ناصريون سابقون ، ان التخريجات اللفظية تركب الفكر، وان الثورة تتفرع من الفاظ ثورية . هذا الموقف قدم لنا المقاومة الفلسطينية بديلا عن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، عن الجيوش النظامية ، من الوحدة العربية ، ليس لانها في الواقع والممارسة استطاعت او تستطيع ان تدلل على ذلك ، بل بسبب ذلك « التقليد العريق » في صفوف يسارنا الفكري ، الذي يستخرج الثورة من اللفظة ، واستراتيجية الثورة من تخريج بياني للثورة .

الالتزام بالمقاومة وتحرير فلسطين يجب ان يكون مقياس الثورية الصحيحة او الاصالة الثورية . فكل شيء يجب ان يكون فيخدمة معركة فلسطين والرصيد الثوري لاية حركة او نظام هو في درجة التزامه وتكريسه كل شيء لهذه المعركة . ولكن هذا غير كاف ،دون خط استراتيجي واضح فعال يتفرع من طبيعة المعركة واوضاعها، من طبيعة الواقع العربي والقوى الفاعلة فيه وفي التاريخ الذي يحيط به ، فدون هذا الوعي الثوري الموضوعي لا يؤدي الالتزام الى الفائدة المرجوة ، وقد يضر اكثر مما يفيد .

(٧) التناقض الاساسي الذي تحياه الحركة العربية الثورية في الاقطار التي حققت فيها ثورتها ،هو التناقض بين الامة العربية وبين الامبريالية ، وليس بين بورجوازية يمينية وبورجوازية يسارية ، بورجوازية صغيرة وبورجوازية وسطية ، بين بورجوازية صغيرة وبين عمال وفلاحين الخ ... هذا التناقض الاساسي هو الذي يجب ان يكون محور استراتيجية العمل الفدائي ، وليس « التناقضات » التي يقدمها هؤلاء الناصريون السابقون . الصعيد الثوري الاساسي الذي نتحرك فيه ، هو صعيد المجابهة مع الاستعمار صعيد الكفاح ضده وضد جميع القوى التي ترتبط به ، او تساعده بطريق غير مباشرة .

حول هذا الموضوع كتب ماوتسي تونغ . :« يجب ان نتجنب كل سياسة مغامرة نحو التجار والصناعيين الصغار وفي الوسط . السياسة التي تبنيناها في الماضي ،في المناطق المحررة ، في حماية وتشجيع نمو جميع الصناعات والتجارة الخاصة المفيدة للاقتصاد القومي كانت سياسة صحيحة ويمكن استمرارها في المستقبل. ان سياسة تشجيع الاقطاعيين والمزارعين الاثرياء بنقل نشاطهم الى الصناعة والتجارة ، وهي السياسة التي تبنيناها في مرحلةتخفيض الاجار والفائدة كانت هي ايضا سياسة صحيحة » (١٠)

وبعد ان يذكر تعاون البورجوازية مع الكومينتنج تراه ينبهالى « ان ذلك لا يعني انه كان علينا ان لا نكسبها سياسيا او ان تجاهها لم تكن سياسة مغامرة ، ان سياستنا ، على عكس ذلك ، كان تجاهها لم تكن سياسة مغامرة ، ان سياستنا ، على عكس ذلك ، كان يجب في تلك المرحلة ، ان نعمل على حماية وكسب البورجوازية كي يمكن لنا ان نركز جهدنا على قتال اعدائنا الاساسيين » (١١)

ثم نراه يتساءل « من هو الشعب .. في الطور الحالي ؟ ..انه يتشكل من العمال ، والفلاحين ، بورجوازية المدن الصغيرة ، والبورجوازية الوطنية . هذه الطبقات تتحد بقيادة طبقة العمال والحزب الشيوعي في بناء دولتها الخاصة ، في انتخاب حكومتها الخاصة » (١٢)

بعد ذلك يكلم ماوتسي تونغ عن الصراع الثوري ضد اشكال الانحراف اليميني والانحراف اليساري كأهم انواع هذا الصراع (١٣). كما ان اللجنة المركزية « قاومت الانحراف اليساري واليمينية في الحزب ، ولكن بشكل خاص ، الانحرافات اليسارية » (١٤). فكل حركة ثورية تجابه في صعيدها الخاص يسارا يحاول انيتجاوزها دون وعي موضوعي للواقع ، ويمينا يحاول ان يعثر سيرها لانهيخاف من مجابهة الواقع . فعندما يبالغ الثوريون في قوة العدو ، في عنصر المقاومة ، في ثبات وجمود الواقع ، يتحولون الى يمين ثوري. وعندما لا يعطون العدو او الواقع الذي يحاربونه ما يجب مناهمية وصحة تقدير لقواه يصبحون يسارا ثوريا ، اي يسارا يريد ان يتخطى المراحل المختلفة سريعا ، دون اي تقدير صحيح للقوى الموضوعية التي تسود الواقع (١٥) .

لهذا كان « من واجب التقدميين الشيوعيين ، اعضاءالاحزاب الديمقراطية العمال الذين يتميزون بوعي سياسي ، الطلاب والمفكرين التقدميين ، ان يتحدوا مع الطبقات التي تقف في الوسط والعناصر المتخلفة في مختلف الطبقات ، مع جميع هؤلاء الذين لا يزالون مترددين ومتأرجحي الارادة في الصين الشعبية، اعطاؤهم مساعدة صحيحة ، انتقاد ترددهم ، تثقيفهم ،كسبهم الى جانب الجماهيرومنع الامبرياليين من جذبهم » (١٦) .

اما كاسترو ، فانه يكتب ، حول هذا الموقف المتزمت ، الشعائري ، الذي يتخذهقسم منالناصريين السابقين . بان «التزمت والدوغمائية اللذين يتفرعان عن مفاهيم طبقة في تحليل الدورالذي يجب ان تمارسه كل طبقة إجتماعية ، احزابها . ومنظماتها وقادتها، يجعلان من الصعب تحقيق وحدة العمل الضرورية بين القوى الديمقراطية والتقدمية لشعوبنا . هذه نقائص نمو ، وامراض مراهقة في الحركة الثورية ، وتجب ازالتها . ففي الكفاح ضد الامبريالية والاقطاعية ، من الممكن توحيد اكثرية الشعبالعظمى في برنامج تحرير يتجه لمصلحة الطبقة العاملة ، والفلاحين، والمثقفين ، والبورجوازية الصغيرة ، والاجزاء الاكثر تقدمية من البورجوازية الوطنية ، هذه القطاعات تضم الاكثرية الكبرى من السكان وتمثل قوى اجتماعية كبيرة مهيأة لانهاء سيادة الامبريالية وازالة الرجعية ... يجب ان لا نخلط بين التطرف وبين الحزم الثوري . فالاول يعبر عن روح بورجوازي صغير في الحركةالثورية، ويجب ان نكافح ضده ، كما نكافح ضد التزمت » (١٧) . انكاسترو

١٠ـ Slected works of Maotse-tung , Vol , 3, Peking , 1961, P , 183

(11) Ibid : P. 209

١٢ـ Ibid : PP : 417 - 418

١٣ـ Ibid : P : 422

١٤ـ Ibid : P : 219

١٥ـ Ibid : PP : 181 - 182

١٦ـ Ibid : P : 429

١٧ـ Castro , F : Révolution Cubaine , presentation et Choix de L . Constant . paris , 1968 , PP : 141 - 142

تتمة «ثورة ٢٣ يوليو» والادب العربي

الداخل ، بكل حركة ايجابية مضيئة في العالم العربي . يشهد على ذلك ما ظهر من حوافز ملحة لعقد المؤتمرات الدورية للادباء العرب في فترة هذا النهوض الوطني العربي ، لمعالجة اهم القضايا الادبية والفكرية التي كانت تضعها احداث الحياة العربية ، في تلك الفترة ، امام الادباء والمفكرين في الوطن العربي عامة . وقد شهد شهر ايلول ١٩٥٤ مؤتمرين اثنين من هذا النوع ، احدهما باسم «مؤتمر الكتاب العرب» في دمشق ، والثاني باسم «مؤتمر الادباء العرب» في بيت مري بلبنان ، وكان هذا هو اول المؤتمرات الدورية للادباء العرب التي لا تزال تتوالى ، حتى كنا هذا العام بانتظار حلقتها النامية في دمشق ثم تأجلت لغير موعد معين . واذا لم يكن يتيسر لهذه المؤتمرات المتعاقبة ان تؤدي مهماتها المرجوة في دراسة القضايا التي تتصدّى لمعالجتها ، فان الذي يعنينا في هذا البحث ان نستشهد بها للدلالة على مدى عمق التفاعل الذي بدأت آثاره ، منذ اوائل الخمسينات ، بين حركة الادب العربي وحركة الحياة العربية ، بما تطرحه من قضايا ملتهبة تثيرها الاحداث والتغيرات في صعيد الكفاح الوطني التحرري بعد ثورة ٢٣ يوليو ، بوصفها ـ كما قلنا ـ اول رد فعل انفجاري للنكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ .

***

ولكن التفاعل الفعلي المباشر بين الادب العربي وثورة ٢٣ يوليو ، لم تبرز آثاره ، بصورة حادة وصارخة الا عند نقطة الطفح في غيظ المستعمرين من هذه الثورة بعد خطوتها التاريخية الكبرى بتحرير قناة السويس .. كانت نقطة الطفح هذه بالعدوان الثلاثي الشهير على مصر ، خريف ١٩٥٦ ، الذي انتهى بانتصار مصر على المعتدين، بفضل بطولة شعبها ومساندة الاتحاد السوفياتي الحاسمة ، كما انتهى بتحقيق الجلاء الكامل للجيوش البريطانية المحتلة عن الارض المصرية نهائيا ، واستكمال مصر لاستقلالها الوطني الخالص من كل شائبة ، بالاضافة الى استقلالها الاقتصادي الذي حققته الثورة كذلك .

عند هذه النقطة الفاصلة ، انتفض الادب العربي بمختلف اشكاله ، كما انتفضت جماهير الشعوب العربية بأسرها ، تضامنا مع شعب مصر وثورته وقائدها جمال عبد الناصر .. ولو ان احدا تصدى اليوم لجمع الوان الشعر والمقالة والقصة وغيرها من فنون الادب العربي ، التي كتبت عن هذه المعركة ، وتغنت بها ، لاجتمع له من ذلك ما يربي على مجلدات . ففي لبنان وحده صدر من ادب هذه المعركة عددان ضخمان لمجلتي «الآداب» و«الثقافة الوطنية» ، وكتاب منفرد بعنوان «مع مصر في المعركة» لادباء لبنانيين وسوريين وعراقيين ومصريين ، نشرته «دار الفارابي» في العام نفسه .. ولكاتب هذه السطور دراسة عن «الادب الذي ولدته المعركة» (١) يومئذ وصف

١ ـ «الثقافة الوطنية» : العدد الاول ، السنة ٦ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧

كان يؤكد باستمرار « ان هناك مكانا لاي كان في جبهة ضد الامبريالية ، وانه لا يجب اعطاء جبهة من هذا النوع طابعا ايديولوجيا متشيعا » (١٨)

ودوبريه يؤكد من ناحيته « ان الكفاح المسلح في اميركا اللاتينية يتشكل اساسيا من الطلاب او البورجوازية الصغيرة .. ومن السخرية اعطاء هذه الاخيرة المعنى الضمني الذي تتخذه في اوروبا » (١٩) .

هذا اليسار ، الناصري سابقا ، اللاوحدوي ، اللاقومي ، الطبقوي ، « المتمركس » حاليا يقدم لنا في الواقع صورة هي من ابشع واقبح ما يمكن ان يصل اليه ما اسماه لينين باليسار الطفولي، وخصوصا في عدائه للناصرية ومخاصمته لها .

في معالجة موضوع الثورة ، او اي موضوع اجتماعي سياسي معالجة علمية يجب ان نحذر من الوقوع في اغلوطتين ، ما يمكن ان نسميه باغلوطة المبالغة ، او تحويل حقيقة او واقعة جزئية الى حقيقة او واقعة شاملة . وثانيا ، ما يمكن تسميته باغلوطة التبسيط او تحويل موضوع ذي ابعاد مختلفة الى صورة واحدة .

هذا اليسار اللاوحدوي ، اللاقومي ، الذي يتشكل من قسم من الناصريين السابقين يغوص حتى الاذنين في هاتين الاغلوطتين . انه لا يمارسهما فقط بل يعيش فيهما ، بهما ومنهما .

***

لا يكفي أن يكون الفرد ثوريا في المفاهيم او حتى الذات التي ينطلق منها ، بل يجب عليه ان اراد تحقيق مقاصده الثورية ان يتميز بوعي ثوري تاريخي عميق وخصوصا للمرحلة التي يعانيها ، فيعرف كيف يحدد موقفه من كل تحول ، وفي كل حلقة . من حركة الثورة العامة . عليه ان يضع في كل منها يده على المنطق الذي يدفعها والقوى التي تسودها . فيمسك بالمنطق والقوى كي يساند عملية التحول الثوري العام في مجراه ، وفي انتقاله من مرحلة الى اخرى.

القضية ليست ما نريد او نود بشكل مجرد ، بل ما يمكن صنعه في ظروف مرحلية معينة ، تحددها مقاصد ثورية معينة. المقصد الوحدوي الثوري يجب ان يكون المقصد الاول لانه الاداة الاساسية في تحقيق المقاصد الثورية الاخرى . كل هذه المقاصد تحتاج اليه ، ترتبط به ، ومن دونه تستحيل . الارتباط بثورة ٢٣ يوليو الناصرية هو ،في دوره ، اداة هذا المقصد الوحدوي اذ دون مصر . يستحيل هو ايضا . طالما ان ليس هناك من نواة جديدة للوحدة ، فالارتباط يجب ان يكون بثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، ولكن عندما تتحقق هذه النواة من مصر وبعض الاقطار العربية الاخرى ، ينتقل الارتباط الى الدولة الجديدة ويتخذ اسمها رمزا له .

اننا لم نعرف كيف نفيد ، اثناء حياة عبد الناصر ، رائد ثورتنا الحديثة ، من ولاء الجماهير الغريب له فعسى ان نتدارك الامر بعد الفاجعة التي المت بنا في مماته ، فنتعظ ونحاول ان نفيد من الرصيد الثوري الفريد الذي تركه عند الجماهير العربية عبر الوطن العربي ، فنتجه الى الدولة الواحدة عبر مصر في ثورتها الناصرية ، وهي ثورة كل العرب تلك كانت امنيته الكبيرة، الامنية التي كرس لخدمتها امكانات الثورة وامكانات مصر . لقد اسانا كثيرا للفقيد الكبير اثناء حياته فعسى ان نتمكن من تصحيح ذلك في مماته ، فنستبدل الاساءة بالامانة . فقد توقف على ذلك قدرتنا في الوصول الى الدولة الواحدة ، اي الى البعد الثوري الذي يرتبط به جميع مقاصدنا وامالنا الثورية الاخرى .

نديم البيطار
ميشيغن (الولايات المتحدة)

١٨ ـ Debray , R . Essais sur L'Amérique Latine , 1967 , Paris P: 102

١٩ ـ Ibid : P : 102 .

فيها هذا الادب بقوله :

« .... ولكن الامر الجديد في معركة مصر الاخيرة ، وفي هذا الادب المتفجر الان من ثناياها ، هو ان هذه المعركة جاءت والوعي القومي العربي يشتعل برغبة واحدة تنتظم اوسع الجماهير الشعبية وأوسع فئات المثقفين في مختلف بلدان العرب ، هي رغبة التحرر الحقيقي الكامل من كل علاقة قائمة بين اي بلد عربي وبين الغرب على اساس استعماري . وجاءت هذه المعركة كذلك والوعي القومي هذا يدفعه شوق متأجج الى الانصهار في جبهة نضالية واحدة ، من اقصى المغرب العربي الى اقصى المشرق العربي . ثم ان هذه المعركة جاءت في حين تهيأت لها ، في مصر ، **القيادة الواعية** التي ارتبطت بأعظم الاحداث التحررية اثارة لتلك الرغبة، والهابا لهذا الشوق ، بحيث **تحولت هذه القيادة الى رمز متألق متوهج في خواطر الجماهير العربية من اوساط الشعب والمثقفين ، وفي طليعتهم الكتاب والشعراء والفنانون** » .

* * *

.. وبفضل هذا التألق والتوهج للقيادة ــ الرمز ، قيادة جمال عبد الناصر لثورة ٢٣ يوليو ومعاركها المتلاحقة في مناهضة الامبريالية والصهيونية ، وفي استكمال السيادة الوطنية لمصر وبناء اقتصادها الوطني المستقل المتطور واتجاهها العملي نحو التحولات الاجتماعية في الطريق الى الاشتراكية ــ اقول : بفضل ذلك كله اتجهت الانظار الى مصر الثورة بقيادة عبد الناصر لتحقيق نواة **للوحدة العربية** السياسية تجسيدا للمطمح العربي التقدمي وتعبيرا حقوقيا عن الوحدة القومية النضالية والتاريخية والثقافية واللغوية والجغرافية القائمة موضوعيا بين شعوب الارض العربية من مشرقها الاسيوي الى مغربها الافريقي .

كانت سورية المتحررة ذات الوضع الدمقراطي هي المؤهلة عام ١٩٥٨ لتؤلف مع مصر الثورة هذه النواة .. وهنا كان الحدث التاريخي الاول من نوعه في تاريخ العرب الحديث . ولكن دور العمل الادبي بأشكاله الفنية، لم يتعادل مع دور العمل الفكري في استقبال هذا الحدث العظيم وفي التأثر به .. فقد نشط الكتّاب والمفكرون، اكثر من الكتّاب الادباء والشعراء في هذا المجال . غير ان هذه الظاهرة كانت ظاهرة صحية ، لان قيام الوحدة ــ النواة كان يستدعي تقديما علميا ودراسات فكرية جادّة، لكشف الاسس الموضوعية والذاتية في واقعنا القومي الحاضر لفكرة الوحدة ، ولتحويل هذه الوحدة الى حقيقة مادية . بل لقد طمح بعض المفكرين العرب ، عند ظهور هذا البناء الجديد للوحدة ، الى اكثر من دراسة الحدث الكبير على هذا النحو من الكشف والتحليل التاريخي ، فجعل يدرسه على اساس فكري وأيديولوجي ، كما فعل الدكتور حسن صعب في بحث كتبه بعنوان : «المعنى العقائدي لقيام الجمهورية العربية المتحدة» (١) . وقد ظهرت ، في عام الوحدة ، دراسات غنية في تقويم الحدث نفسه ، وفي الدعوة الى تطويره وتوسيعه على اسس تخطيطية عقلانية ووفق الاتجاه الكفاحي التحرري الذي اتجه اليه الحدث ، وطنيا واجتماعيا . وبهذا الصدد كتب مثلا احد الباحثين التقدميين باسم «ابن خلدون» دراسة بعنوان «الجمهورية العربية المتحدة خطوة كبرى نحو وحدة عربية شاملة» (٢) قال فيها : « ... واذا كان هناك من فوجيء بولادة الجمهورية العربية المتحدة ، وأصابته الدهشة ، فاننا نطلب اليه ان يفتح عينيه فقط ليرى الاستقبال العظيم الذي استقبلت به الشعوب العربية جمهوريتها الجديدة . لقد اثبت ذلك ، مرة اخرى ، ان الوحدة العربية المتحررة ليست سوى تعبير عن ارادة الشعب العربي بأسره » .

يضاف الى نشاط هذه الدراسات عن الوحدة ، نشاط اخر في اوساط الادباء والمثقفين في كل من مصر الثورة وسورية اثناء وحدتهما ، لمعالجة اوضاع الادب والادباء ، ومعالجة شؤون الفكر والثقافة بوجه عام على اسس جديدة تتفق مع اهداف الثورة ومع المضمون الثوري للوحدة .

ــ ٤ ــ

.. واذا مضينا مع ثورة ٢٣ يوليو في مسيرتها بقيادة جمال عبد الناصر ، وفي تطور منجزاتها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية ، فلا بد ان نرى حقيقة هامة واضحة ، هي ان دولة الثورة قد عنيت عناية جدية بتطوير مكانة الادباء في المجتمع وتطوير وسائل الازدهار الادبي والفكري ، الى جانب عنايتها الكبرى بتكوين الملاكات العلمية والفنية لرفع مستوى الاجهزة البشرية التي تتولى بناء دولة ذات اعباء ومهمات بحجم التأثير الفعّال الذي تمارسه ثورة ٢٣ يوليو في حركة التحرر العربية والعالمية .

ولكن ، يلاحظ ان المؤسسات التي عهد اليها ، في دولة الثورة ، امر هذا التطوير لوسائل الازدهار الادبي والفكري ، لم يقم على ادارتها وتوجيه نشاطها ومهماتها ناس بوزن الاهداف والمهمات المطلوب منها تحقيقها . ولعل مرجع ذلك انهم غير مستوعبين روح **المعاصرة** ، وغير مستوعبين كذلك **ثورية** الثورة .. ومن هنا كان هذا الانفصال بين الطابع **المحافظ** الذي يسيطر على تلك المؤسسات وبين الطابع الديناميكي الثوري الذي يسود المنجزات الانمائية الكبرى التي حققتها الثورة ..

غير ان هذا النقص في فعّالية تلك المؤسسات ، لا يعني ان النقص نفسه قائم في الحركة الادبية ذاتها ، في الـ «ج.ع.م» خارج تلك المؤسسات ، بل الامر على العكس . فانه لمن الظاهرات البارزة لهذه الحركة كونها تتطور خارج المؤسسات الادبية الرسمية في مستوى رفيع يوازي مستوى التطور النوعي العام لمنشآت الثورة

١ ــ «الآداب ــ العدد ٤ ، السنة ٧ ــ آذار (مارس) ١٩٥٩ .

٢ ــ «الثقافة الوطنية» ــ العدد ٣ ، السنة ٧ ــ آذار ١٩٥٨ .

في المجالات الانمائية الاساسية ، دون ان نقصد بذلك اي ارتباط بين الامرين .. وحركة الابداع الادبي هناك تتسم بظاهرة التنوع الخصب وولادات المواهب الشابة الاصيلة والتماعها بسرعة وتجاوبها القوي مع روح المعاصرة في اصالة وتماسك يحفظان عليها شخصيتها المستقلة . وان النظرة الموضوعية لهذه الحركة في مصر الثورة ولنتاجها الشعري والقصصي والمسرحي والروائي والنقدي ، تدعو للاعتراف بأنها تتميز باندفاعة زاخمة نحو آفاق مترعة بالاشراق والتألق .. وهناك **ظاهرة اخرى ذات شأن كبير في نظرنا نحن الكتاب العرب خارج مصر، وهي ظاهرة جديدة لم يسبق حدوثها في تاريخ الادب العربي بمصر ما قبل الثورة . اعني بها ظاهرة التلاحم والتكامل مع الحركة الادبية في سائر البلدان العربية . فقد كانت دائما حركة الادب المصري تتجه الى التعامل مع ادب العرب خارج مصر تعامل الفاعل غير المنفعل ، الذي يريد ان يعطي ولا يأخذ ، ان يؤثر ولا يتأثر ، ان يضيء ولا يستضيء .. فكان من فعل ثورة ٢٣ يوليو انها انمت الحس القومي العربي في الاشقاء المصريين ، وأنمت بذلك عملية التفاعل المشترك بين ادبنا العربي هنا وهناك ، ولقد كان للوحدة بين مصر وسورية ، رغم قصر عمرها الزمني ـ مع الاسف العميق ـ ، الفضل الاول في وضع عملية التفاعل هذه على خطها الحركي المتنامي صعدا حتى الان .. وان هذه الظاهرة لفضل كبير لثورة ٢٣ يوليو على حركة تطور الادب العربي ينبغي ان يذكر ولا يجحد..**

ـ ٥ ـ

.. وفي اخر المطاف مع مرحلة الخمسينات والستينات لثورة ٢٣ يوليو ، تبرز أمامنا حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ .. هذه الحرب الخاسرة التي كان عبء عملياتها العسكرية وعبء آثارها المادية والنفسية والقومية على اكتاف الجمهورية العربية المتحدة .. ومن هذه الاعباء ما حملته واقعا وحقا ، ومنها ما حمَّلها اياه المتخاذلون والانهزاميون والرجعيون باطلا وزيفا ووهما.. والمسألة التي تعنينا من ذلك هنا ان الادب العربي نفسه قام بدور بارز في حمل هموم الحرب هذه ونفذ لهبها المأسوي الى دمه وعروقه .. ولكن بعضه انغمر في لهب المأساة حتى عميت عنده الرؤية عمى مطبقا فاصبح لا يرى غير جدار اليأس والفجيعة «يتلذذ» بمعاناة الارتطام به وبصدى صمته الاعمى .. وبعضه الاخر حمل اللهب خارج ذاته ليرفعه شعارا للشماتة ، مثيرا به حملة «ديماغوجية» يقصد بها حربا على الثورة وقيادتها وحربا على الحركة التحررية العربية بجملتها وعلى اتجاهاتها ومنجزاتها التقدمية ، جاعلا من المأساة ذريعة للطعن حتى بقابلية الشعب العربي ان يدخل حركة التاريخ في مسيرة التطور الحضاري .. غير ان الادب العربي لم يفتقد فريقا ثالثا بين الفريقين ، هو ذلك الذي احترق بالمأساة حقا ، دون ان يحترق عنده جوهر القضية ، بل لقد انصهر جوهرها في اللهب وتبلور وتألق ، فمنحه الرؤية البصيرة الواعية، ومنحته الرؤية هذه اشعاع الأمل والثقة بأن الشعوب لا تقتل الهزيمة ، بل الهزائم ، بذور الحرية النامية في كيانها ، وان الشعب العربي الذي سقى هذه البذور تاريخا من الدم والكفاح طويلا لن ينضب معين تاريخه الدموي الكفاحي هذا ابدا ، وان **الثورة** التي انبثقت من هذا الشعب ستبقى هي الثورة ما دام هذا الشعب نفسه حيا لا يموت .. ولقد اثبت الشعب العربي هذه الحقيقة مرتين : مرة يومي ٩ و١٠ حزيران ١٩٦٧ حين أبى على جمال عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو ان يتخلى عن مكان قيادته الثورية ، ومرة اخرى قريبة العهد منا حين غاب وجه عبد الناصر ، فجأة ، عن مكان قيادته دون ارادته ، فاذا بالشعب العربي ، شعب الثورة ، شعب الحركة التحررية العربية الدائبة المسير ، يخرج من قلب الفجيعة ليعلن ان «المشوار» لم يكتمل بعد ، وأنه ، لا بد من ان **«يكمل المشوار»** .. وينبغي ان نسجل هنا ، امانة للحقيقة ، ان **ادب المقاومة** الذي يصدر عن ارض فلسطين المغتصبة ذاتها ، كان في طليعة الفريق الثالث من الادب العربي ، فريق الادب المندمج بالمأساة والملتحم بنارها دون ان يفقد رؤيته الصافية الواعية المخضوضرة بالحياة والأمل والثقة ، ثقته بالشعب ، لانه من الشعب يتفجر ، وبروح الشعب يزهر ويورق ، ثم لانه يرى الى المعركة والى الثورة في ضوء العلم الثوري ، في ضوء الفهم العلمي الصحيح لحركة التاريخ .. ثم لانه كذلك ادب يستمد رؤياه الفنية ذاتها من المعاناة الحقيقية المترعة بالعذاب حتى الطفح ، بمختلف الوان العذاب المادي والنفسي معا ..

ـ ٦ ـ

تبقى مسألة ..

حاول هذا البحث ان يرى ظاهرات عدة من العلاقة بين حركة ثورة ٢٣ يوليو وحركة الادب العربي في المرحلة التي انتهت من عهد هذه الثورة بغياب وجه القائد الثوري المناضل جمال عبد الناصر .. ولكن ، ما مدى عمق هذه العلاقة ، وما مدى اثرها في التحولات النوعية التي اكتسبتها حركة الادب العربي خلال تلك المرحلة .. ثم ما هي هذه التحولات بالتعيين ، وما الآفاق التي ستمضي اليها في المرحلة القابلة ؟.

هذه المسألة تتجاوز مهمة بحثنا الان الى محاولة جديدة يحتاج الادب العربي اليها اشد حاجة ..

حسين مروه